عزيزي القارئ

عام يمضي وعام يجيء والبشرية تواصل سعيها اللانهائي نحو خلاصها من نقائصها وآثامها. وكلما ظهر في نهاية النفق بصيص نور بددته الحقائق المرعبة لعالمنا المعاصر. فالتطورات التي شهدتها السنوات الأخيرة، بما في ذلك انهيار الشيوعية، والتبشير بـ «نظام عالمي جديد» قوامه احترام الشرعية الدولية وإعلاء شأن حقوق الإنسان، وبزوغ عصر «العولمة» باعتبارها خطوة حيوية نحو عالم أكثر استقرارا وعدلا وأكثر تكاملا واندماجا، لم تطرح إجابة عن التساؤل الأصلي: كيف ترتقي البشرية بمستقبلها. وهو تساؤل يصبح مع كل عام جديد أكثر إلحاحا وحدّة. ومع انكشاف الوجه القبيح لسياسة الكيل بمكيالين التي ينتهجها العالم المتقدم مع دول العالمين الثاني والثالث (الانهيارات المالية في بلدان جنوب شرق آسيا - النزاعات العسكرية في البوسنة والصومال وكوسوفو - الاعتداءات الإسرائيلية على الشرق الأوسط - إلخ)، يصبح من الضروري توحيد جهود كل القوى المستنيرة في سائر أنحاء كوكبنا من أجل تعميق التطور الديمقراطي في العالم أجمع، وتوسيع حق الدول والشعوب في الاختيار، وصياغة وإنجاز نماذج متنوعة للتنمية تتواءم مع النزعة العولمية الشاملة وتعبر في الوقت نفسه عن السمات الخاصة لكل الشعوب والأمم وتجاربها التاريخية المتباينة.

والمتأمل لمقالات عددنا هذا يجدها تعكس هذه الهموم. فمقال «الخطاب والـ (لا) تكامل في أوروبا» يقدم رؤية جديدة للوحدة الأوروبية، التي خطت خطوة شديدة الأهمية مع الانطلاقة الرسمية لليورو كعملة أوروبية موحدة لمعظم دول السوق الأوروبية المشتركة مع مطلع هذا العام. ويركز هذا المقال - آخذا حالة فرنسا وألمانيا وبريطانيا كمثال تطبيقي - على حقيقة أن التكامل الأوروبي ليس اقتصاديا فحسب، لكنه أيضا تكامل مؤسسي ومفاهيمي يعتمد على نجاح المؤسسات الوطنية في التكيف مع النظام الناشيء حديثا لإدارة شؤون الحكم في أوروبا، وفي إطلاق عملية إعادة بناء مفاهيمية وبناء خطاب سياسي وطني يكفل تسويغ كل من التعديل الهيكلي الاقتصادي والتكييف المؤسساتي.

وعلى الجانب الآخر من العالم، يناقش مقال «لعبة الروليت الكونية» مذبحة الأسواق المالية التي حدثت في بلدان جنوب شرق آسيا. ويلخص المقال مناقشات مائدة مستديرة شارك فيها ثلاثة من الخبراء الماليين تضاربت وجهات نظرهم حول أسباب الأزمة، وآفاق تجاوزها، واحتمالات المستقبل بالنسبة للدول المرشحة لأزمات مماثلة (اليابان وروسيا والبلدان الشيوعية السابقة).

ومن جنوب شرق آسيا إلى أفريقيا الممزقة، يناقش مقال «الجنود الأطفال.. الأطفال الجنود» ظاهرة من أقبح الظواهر التي أفرزها عالمنا المعاصر، ألا وهي تحويل البراءة إلى أداة للقتل. وبينما يقول البعض إن الأطفال هم واجهة أي مجتمع، فإن هذه الظاهرة تثبت إلى أي مدى يمكن للعسكر و«لوردات» الحرب أن يدمروا مستقبل بلادهم من أجل أطماع لحظية. وفي الوقت الذي ينص فيه الإعلان العالمي لحقوق الطفل، الذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٥٩، على أنه: «يجب أن يكون للطفل حق التمتع بوقاية خاصة أو تتاح له الفرص والوسائل... لكي ينشأ من النواحي البدنية والروحية والاجتماعية على نحو طبيعي وفي ظروف تتسم بالحرية والكرامة... وللطفل الحق في الحصول على وسائل التعليم الإلزامي المجاني... ومن الواجب أن تتاح للطفل فرصة الترفيه عن نفسه باللعب والرياضة»، فإن الجنود الأطفال العصريين متعلقون بالعنف، وهم بشائر نظرية «الفوضى القادمة» التي يبشر بها بعض كبار الكتاب الغربيين.

وكما عوّدنا القارئ العزيز دائما، فإن عددنا هذا يتضمن مجموعة مهمة من المقالات في مختلف فروع المعرفة. فمن بين المقالات العلمية هناك مقال «هل الشمس مسؤولة عن احترار الأرض؟»، الذي يطرح وجهة نظر مختلفة عن أسباب ارتفاع درجة حرارة الأرض. فهو لا يوجه أسهم الاتهام، كما جرت العادة، للإنسان وأنشطته الصناعية، لكنه يوجهها بدلا من ذلك للشمس، التي ربما تكون هي المسؤولة عن هذه الظاهرة. وهناك أيضا ملف ممتاز عن نشأة الحياة على الأرض يستعرض بدء الحياة على كوكبنا، وأشكال وعناصر الحياة الأولية وتطورها.

ويحفل هذا العدد بالمقالات الأدبية، وأهمها ملف عن الأديب البرتغالي خوسيه ساراماجو، الفائز بجائزة نوبل للآداب هذا العام، يتضمن حوارا معه ومقالاً بقلمه عن توقعاته لمستقبل الرواية، بالإضافة إلى مقالين آخرين عن رحلة حياته وأهم إنجازاته. وهناك أيضا مقال ممتاز عن الروائية الفرنسية الراحلة مرجريت دوراس، التي وصفها أحد النقاد بأنها أهم عبقرية فرنسية معاصرة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أيضا مقالات عن «منطق الجنس الدرامي»، و«الوداع الأخير»، و«نيويورك عاصمة الرواية البوليسية».

ولا يفوتني هنا أن أتقدم للقراء الأعزاء بأصدق التهاني والأمنيات الطيبة بمناسبة قدوم العام الجديد وحلول عيد الفطر المبارك، أعاده الله على الأمتين العربية والإسلامية بالخير واليمن والبركة. ولعل أجمل ما يمكننا أن نقدمه لقرائنا الأعزاء بهذه المناسبة هو نجاحنا في الوصول إلى انتظام الصدور - في مواعيدنا المحددة. ونعاهدهم أن «الثقافة العالمية» لن تتأخر ثانية أبدا في الوصول إلى يد القارئ في الوقت الصحيح. وكل عام وأنتم بخير.

رئيس التحرير

تمر عملية التكامل الأوروبي، في اللحظة الراهنة، بمنعطف حاسم. ففي الوقت الذي تتسارع فيه وتيرة التسابق نحو توحيد العملة الأوروبية، ويخاطر السياسيون برصيدهم السياسي وبالإمكانات الاقتصادية المستقبلية لبلدانهم بالانخراط في الموجة الأولى للعضوية.. يشهد التأييد الشعبي انحساراً يتزايد باطراد. إذ لم يعد التكامل الأوروبي، مع تواصل تزايد نسبة البطالة وتدني المساعدات الاجتماعية، منطويا على ذلك الوعد المتمثل في قيام اتحاد بين مجموعة بلدان يحقق رخاء أعظم للجميع. ويتنامى الشعور بعدم الارتياح بصورة أوضح في صفوف الذين هم أكثر تأثراً بالإجراءات التقشفية – وهو ما يتجلى في العدد المتزايد من إضرابات الاحتجاج على عمليات الخفض في الوظائف وفي الإعانات الاجتماعية، وفي الشعور العام بالاستياء، وفي صعود اليمين المتطرف.

الخطاب والـ (لا) تكامل في أوروبا

حالة فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا

بقلم : فيفيين شميدت

ترجمة : عبدالسلام رضوان

وليس بإمكاننا، بطبيعة الحال، أن نلقي بتبعة القسم الأكبر من التأزم الاقتصادي على التكامل الأوروبي وحده : فالعولمة، والتي تتجلى بصورة أكثر وضوحا في الأسواق المالية الدولية الآخذة في الازدهار وفي المنافسة التجارية الكونية، ربما مثلت قوة أكثر فعالية فيما يتعلق بالتغير الراهن، وهو ما ينطبق أيضا على العامل الديموغرافي الذي يقضي بأن عدداً أقل فأقل من العمال يتعين أن يعيل المزيد والمزيد من المتقاعدين من خلال الضمان الاجتماعي.

العنوان الأصلي للمقال:
Discourse and (Dis) Integration in Europe : The Cases of France, Germany and Great Britain بقلم: Vivien A. Schmidt ونشر في: Daedalus عدد صيف 1998

وفضلا عن ذلك فقد ارتبط السخط السياسي بالتداعيات السلبية المترتبة على نهاية الشيوعية – الانقسامات الحزبية التقليدية بين يمين ويسار ووقوع الأفكار تحت طائلة التشوش والفوضى – بتفاقم الفساد السياسي، والذي أودت ملاحقته قضائيا بالعديد من السياسيين إلى السجن وبالعديد من الأحزاب إلى الخزي.

والواقع أن العديد من النقاد الأوروبيين يعتبرون المشكلات المرتبطة بعملية التكامل مشكلات مؤقتة، ناتجة من التعديلات الاقتصادية الضرورية استعداداً للتوحيد النقدي، وأنها ستحل عندما يعود الرخاء على أساس مالي أكثر رسوخا. غير أن هناك أيضا من يحذرون من حلول الكارثة إذا ما أخفق التكامل النقدي في أن يتحقق في الموعد المحدد أو في ألا يتحقق على الإطلاق أو – وهو الأسوأ – أن يتم البدء فيه ثم يجري التخلي عنه بعد ذلك بوصفه أمراً غير قابل للتطبيق. وفي السيناريو الأكثر سوءاً، يمكن أن يعقب التفكك الأوروبي شيوع الاضطراب في الأسواق، والانسحاب من السياسات الاقتصادية الشاملة المشتركة، وتصاعد النزعة الحمائية، وانهيار التجارة عبر الحدود.

وفي هذا التركيز على الجانب الاقتصادي، يغفل كل من التفاؤليين والتشاؤميين عناصر أخرى أساسية بالقدر ذاته ربما عملت على تعزيز التكامل الأوروبي أو على تفعيل التفكك. إذ إن التكامل الأوروبي ليس اقتصاديا فحسب، بل هو تكامل مؤسسي ومفاهيمي أيضا، ولا يعتمد التأييد المتصل للتكامل الأوروبي، داخل كل دولة عضو في الاتحاد، على التعديلات الهيكلية الناجحة في الحقل الاقتصادي وحدها بل يعتمد أيضا على التكييف الناجح للمؤسسات القومية مع النظام الناشىء حديثا لإدارة شؤون الحكم الأوروبية والبناء الناجح لخطاب سياسي قومي يكفل تسويغ كل من التعديل الهيكلي الاقتصادي والتكييف المؤسساتي.

ولاريب أن النظام الاقتصادي الأوروبي المتطور، بسعيه إلى تحقيق توحيد نقدي وسوق واحدة، قد تطلب إجراء تعديلات هيكلية من جانب الدول الأعضاء، وهي التعديلات التي فرضت بالضرورة وجود سياسات نقدية صارمة وميزانيات محكمة على الصعيد الاقتصادي الكلي.. وإزالة قيود التشريعات المنظمة، والخصخصة على الصعيد الاقتصادي الجزئي، ودولة رفاه على نطاق أضيق على الصعيد الاجتماعي الاقتصادي. على أنه لا يقل عن ذلك أهمية أن نظام إدارة شؤون الحكم الأوروبي الناشىء حديثا قد تطلب، ببناه المؤسسية شبه الفيدرالية وبعمليات صنع سياساته تعددية الطابع وبثقافة اتخاذ القرار تعاونية المنحى، تطلب تكيفا مؤسسيا من قبل دول أعضاء يغلب على بنيتها الطابع التوحيدي، وتتسم عمليات صنع السياسات فيها بالطابع «الدولتي» أو «الهيئاتي»، ويغلب على ثقافة اتخاذ القرار فيها إما الطابع الصراعي أو الإجماعي. كما أن المشروع الأوروبي الطموح أبداً، برؤيته فيما يتعلق بأوروبا سياسية أكبر، وأقوى، وأكثر تماسكا وبأوروبا اقتصادية أكثر اتساما بالليبرالية الجديدة، قد دفع الدول الأعضاء إلى بناء خطابات قومية تحدد الرؤية

الخاصة لكل بلد حول الكيفية التي يمكن بها لكل أمة أن تتوافق مع كل من أوربا والعالم، وهو ما يكفل في الوقت ذاته تسويغ التغييرات الاقتصادية والمؤسسية المرتبطة بأوروبا الموحدة.

ورغم أن كل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي معرضة بالقدر نفسه لتلك الضغوط «الأوروبية»، فقد كفلت الاختلافات في الوضعية الاقتصادية، والتنظيم المؤسساتي، والنمط المفاهيمي ألا ينظر كل منها إلى وزنه وموقعه داخل المجموعة على نحو متساو أو يستجيب (لتلك الضغوط) بالطرائق ذاتها. وعلى حين وجد عدد من البلدان مجالا أسهل، مقارنة بالبلدان الأخرى، لتكييف اقتصاداته مع المتطلبات الهيكلية لأوروبا الموحدة، وجدت بلدان أخرى تكييف مؤسساتها مع متطلبات إدارة شؤون الحكم الأوروبية أقل إرباكا مقارنة بالبلدان الأخرى، بينما نجح بعضها في بناء خطابات قومية لتسويغ التغيير الاقتصادي والمؤسسي المرتبط بأوروبا الموحدة بصورة أسرع من البلدان الأخرى.

ومن بين القوى الأوروبية الكبرى الثلاث، كانت فرنسا هي الأكثر اتخاذا لإجراءات التغيير استجابة لضغوط «الأوربة» Europeanization: ولأنها مرت بتحول اقتصادي ومؤسسي كبير، فإنها تخوض الآن غمار أزمة سياسية ربما كان السبب الأبرز وراء نشوئها هو أنها لم تتمكن من بناء خطاب متسق قادر على تسويغ تلك التغييرات. وفي المقابل، كان على كل من بريطانيا وألمانيا أن تغير في نطاق أقل نسبيا: فبريطانيا استبقت العديد من التغيرات الاقتصادية والمؤسسية التي تتطلبها «الأوربة» وقاومت بنجاح بعضها الآخر، بينما استطاعت ألمانيا حتى وقت قريب تفادي التغيير نتيجة لقوة اقتصادها وطبيعة تنظيمها المؤسسي. وقد واجه كل منهما متاعب سياسية أقل حتى الآن بسبب التغييرات التي أدخلها، نتيجة لنجاحه في الحفاظ على خطاب تسويغي متماسك، وان انطلق كل خطاب من منحى مختلف. على أن بريطانيا تواجه اليوم خيارات مؤسسية كبرى فيما يتعلق بالمزيد من خطوات التكامل في حين تواجه ألمانيا ضغوطا اقتصادية كبرى، ويبقى مدى قدرة خطابيهما على إسعافهما سياسيا سؤالا ينتظر الإجابة.

تكييف الاقتصادات القومية

منذ بداية الثمانينيات، تسارع التغير الاقتصادي بالنسبة لكل الدول الأعضاء على الصعيدين الاقتصاديين الكلي والجزئي. فقد حفز الدفع باتجاه سوق موحدة عملية «لبرلة» Liberalization الأسواق المالية، والتحرير التشريعي للقواعد المنظمة للنشاط التجاري والمالي، وخصخصة الصناعات المؤممة، ومواءمة المقاييس. وولدت عملية التوحيد النقدي الوشيكة التحقق سياسات نقدية صارمة، وميزانيات تقشف، ومعدل تضخم ضئيلاً، ووضع حد أقصى لحجم الدين العام والعجز الحكومي. وفضلا عن هذه التعديلات على الصعيدين الاقتصاديين الكلي والجزئي فقد حدثت تغيرات في مجال الأعمال وعلاقته بالحكومة والقوى العاملة. فالشركات الكبيرة أصبحت أكبر حجما، وأكثر توزعا من الوجهة الجغرافية في عملياتها، وأكثر «أوروبية»

(إن لم يكن أكثر دولية) في نطاقها. ومن ثم فهي أقل حاجة لا إلى إيجاد تسويات مع عمالة الماضي فحسب بل ومع الروابط الوثيقة تقليديا مع الحكومات القومية أيضا – حتى لو لم يكن ممكنا اعتبارها «لا دولتية» كلية، إذ تظل ارتباطاتها السياسية الرئيسية، وسماتها الثقافية المميزة، وقاعدتها الاقتصادية قائمة على ركيزة قومية(1).

غير أنه ورغم أن هذه التغيرات قد نشأت عنها إجمالا اقتصادات أكثر عافية ونشاطات أكثر تنافسية في حقل التجارة والأعمال، فإنها أدت أيضا إلى خسارة مصاحبة في القدرة على الصعيد الاجتماعي الاقتصادي. فقد واجهت أغلب البلدان الأوروبية خدمات اجتماعية متضائلة وبطالة متزايدة، وشهدت نتيجة لذلك موجة مطردة ومتسعة النطاق من الإضرابات و(أو) من الشعور العام بالاستياء. وكفل النظام الصارم للتكامل النقدي الأوروبي جنبا إلى جنب مع ضغوط الأسواق المالية الكونية أن تحتل دولة الرفاه موقعا أقل أهمية من الدولة التنافسية، نظراً لأن الحكومات أصبحت تبدي اهتماما بقيمة أموالها وبتوجهات الأسواق يفوق اهتمامها برفاهية مواطنيها.

ومن بين الدول الثلاث الأكبر في أوروبا، كانت فرنسا هي التي شهدت التحول الأكثر أساسية استجابة للضرورات الاقتصادية الأوروبية. ولأنها كانت أكثر قابلية للتأثر بقوى السوق الكونية والأكثر تعرضا لتحديات المنافسة الدولية مقارنة بكل من ألمانيا وبريطانيا، فقد أصبحت «الأوربة» عبر التكامل النقدي والسوق الموحدة، في نظر الحكومة الفرنسية، الدرع الوحيد الفعال ضد العولمة والسبيل الوحيد لترسيخ دعائم الاقتصاد وتعزيز النمو الاقتصادي. غير أن ذلك تطلب من فرنسا لا أن تتخلى عن استقلاليتها الاقتصادية وحدها بل تطلب أيضا أن تتخلى عن نهجها التوجيهي – أو التدخلي – في التعامل مع عملية صنع السياسات على كل من الصعيد الاقتصادي الكلي والجزئي. ومنذ بداية الثمانينيات، أخذت فرنسا في تحويل اقتصاد يتميز بدورة تضخم وخفض لقيمة العملة تقرره الدولة ونشاط صناعي تسيطر عليه الدولة إلى اقتصاد يرتكز على تضخم داجن، قادر على الحفاظ على عملة قوية، وعلى اختزال ملكية الدولة وسيطرتها على النشاط التجاري والصناعي عبر التحرير التنظيمي والخصخصة(2).

على أن المشكلة بالنسبة لفرنسا اليوم هي أن التحول الناجح في مجالات الاقتصاد الكلي والجزئي قد عجل بحدوث أزمة في المجال الاجتماعي الاقتصادي. ففي الوقت الذي شهد فيه الاقتصاد تغيرا جوهريا في توجهاته الرئيسية وتحولت فيه العلاقة بين الحكومة ودوائر الأعمال، تنامى معدل البطالة (متجاوزا معدلها في أعقاب الحرب والبالغ 12,8 في المئة) وتجمدت الأجور، وانخفضت الإعانات الاجتماعية. وليست إضرابات شركات القطاع العام – والتي شلت البلاد لفترة قاربت الشهر، ولقيت تأييدا شعبيا هائلا – سوى التعبير الأكثر درامية عن الشعور الواسع النطاق بالاستياء والغضب والذي تجلى كذلك في صعود اليمين المتطرف.

وفي المقابل فقد كان على ألمانيا، التي كانت دائما أكثر ارتباطا بالتوجه الدولي وبالتنافسية الكونية، كان عليها حتى الوقت الراهن أن تتغير في نطاق أقل نسبيا استجابة لعملية التكامل الأوروبي، سواء على صعيد الاقتصاد الكلي أو الجزئي. ولقد مثلت «الأوربة»، بالنسبة لألمانيا، تعزيزاً للوقاء التقليدي للاقتصاد الكلي في مواجهة القوى الكونية أكثر منها حماية جديدة ضد هذه القوى، كما هي الحال بالنسبة لفرنسا. والواقع أن ألمانيا عمدت دائما، بوصفها صاحبة الاقتصاد المتقدم على الاقتصادات الأوروبية الأخرى والعملة الأقوى وصاحبة الدور القيادي في السياسة النقدية من خلال «البوندزبانك» (البنك المركزي)، إلى فرض أنماط وتفضيلات اقتصادها الكلي الخاصة على بقية بلدان أوروبا(3).

وفضلاً عن ذلك ففي حين مثلت ألمانيا قوة «مُؤَوْربِة» Enropeanizing على صعيد الاقتصاد الكلي، فقد نجحت في تأخير الأوربة على صعيد الاقتصاد الجزئي، بالتفاوض حول عمليتي التحرير التنظيمي والخصخصة ببطء شديد مع «الشركاء الاجتماعيين»، ودوائر الأعمال، ومع حكومات الأقاليم، بحيث تضمن أقل اضطراب ممكن في العلاقة التقليدية.

وخلال العامين الماضيين أو نحوهما فقط، أصبحت الصيغة الألمانية للنجاح الاقتصادي موضع تساؤل. فتكاليف توحيد شطري ألمانيا وضغوط المنافسة الكونية تشكل عبئا كبيرا بالنظر إلى أن ألمانيا تعاني من منتجات مرتفعة السعر، وقوة عمل عالية الأجر، ومعدل بطالة بلغ أعلى درجاته منذ هتلر، في الوقت الذي ينخفض فيه الاستثمار داخل البلاد (الأجنبي والأهلي) وتتباطأ الإنتاجية، ويشح الابتكار. وفضلا عن ذلك فقد أخذت علاقة «التراضي» الثلاثية بين دوائر الأعمال وقوة العمل والحكومة تتخذ منحى صراعيا مع دفع دوائر الأعمال - وقد أقلقتها التنافسية الآخذة في الانخفاض - في اتجاه المزيد من المرونة من جانب قوة العمل بينما يرد العمال بالضغط في الاتجاه المضاد، وهم يرون وظائفهم تغادر البلاد وإعاناتهم يجري تقنينها أو تقايض بما هو أقل قيمة. وعلى الرغم من أن الانخفاض في القدرة الاجتماعية الاقتصادية الألمانية مازال محدودا نسبيا حتى الآن، فإنه يُنظر إليه بجدية تامة، كما اتضح من الجدل الذي دار حول تخفيض أجر الإجازة المرضية من 100 في المئة إلى 80 في المئة، والذي أقره قانون حكومي، واحتج عليه مستخدمون مضربون، وانتهى الأمر إلى عدم تطبيقه من قبل أصحاب العمل في الشركات الكبيرة.

كذلك شهدت بريطانيا تغيرا محدودا نسبيا استجابة للأوربة. فعلى الصعيد الاقتصادي الكلي، حافظت بريطانيا على نهجها الليبرالي والدولي التوجه في التعامل مع صنع السياسات المتعلقة بالاقتصاد الكلي وقيدت التزامها بالتكامل النقدي الأوروبي، حيث لم تر فيه درعا على أي وجه ضد القوى الكونية (كما يتضح من خروجها من آلية سعر الصرف للنظام النقدي الأوروبي). وعلى الصعيد الاقتصادي الجزئي، حجّمت

بريطانيا من إمكانية تعرضها للتغير الناجم عن التكامل الأوروبي لا من خلال إحجامها عن التفاوض على التوقيع على الفصل الاجتماعي من «معاهدة ماستريخت» فحسب بل أيضا نتيجة لأن عمليتي التحرير التنظيمي والخصخصة حدثتا بالفعل قبل الضغوط الأوروبية، إذ إن حكومة تاتشر كانت ملتزمة إيديولوجيا بتقليص سيطرة الدولة على اقتصاد هو في كل الأحوال مسيطر عليه بدرجة أقل من قبل الدولة مقارنة بكل من ألمانيا وفرنسا(5).

غير أن الصناعة البريطانية تركت لشأنها تغرق أو تطفو فوق سطح المتاعب - بعد أن عرّضتها الحكومة لمنافسة دولية أكبر ولتقلبات السوق دون كفالة مستوى الدعم الحكومي والحماية من خلال شراء الأسهم، كما هي الحال في فرنسا، أو التعاون والتشاور بين الحكومة والشركات والمنظمات الممثلة للعمال في ألمانيا - ولقد غرقت في أغلب الحالات. ولم يبدأ الاقتصاد البريطاني في الانتعاش مرة أخرى إلا أخيراً، ومنذ خروجها من آلية سعر الصرف، وساعد على تحقيق ذلك أداء الشركات المملوكة للأجانب والشركات البريطانية التي نجحت في مواصلة البقاء، وكذلك بفضل مرونتها الأكبر على صعيد العمالة والذي جعلها على درجة عالية من حيث جذب الاستثمار الأجنبي المباشر. وعلى الصعيد الاجتماعي الاقتصادي تواجه بريطانيا في واقع الأمر مشكلات أقل بكثير مقارنة بفرنسا: فنظام الرعاية الاجتماعية جرى تخفيضه على نحو متدرج منذ الثمانينيات، وإن لم تصل معدلات تخفيضه أبدا إلى المستوى الذي كانت تنذر به تحليلات المراقبين، كما أن معدل البطالة ظل أقل بالمقارنة بفرنسا (وإن جاء ذلك على حساب الضمان الوظيفي).

وهكذا، يمكن القول على وجه الإجمال إن الدول الثلاث ضحت بالكثير من قدرتها الاجتماعية الاقتصادية فضلا عن جانب كبير من استقلاليتها السياساتية على الصعيدين الاقتصاديين الكلي والجزئي.

تكييف المؤسسات القومية

على الرغم من أن الإمكانية المستقبلية للاتحاد النقدي تعد أحد موضوعات الاهتمام الرئيسية للصحف في الوقت الحاضر فإن التكامل الأوروبي لا يتوقف نجاحه أو إخفاقه على مجرد قدرة اقتصادات الدول الأعضاء على تلبية معايير معاهدة ماستريخت. فمن المرجح أن تواصل أوروبا المتكاملة بقاءها بصرف النظر عما إذا كانت عملة موحدة قد تم إنجازها بالنسبة لمجموعة البلدان الرئيسية في العام 1999، أو في عام 2001، أو لم يتحقق ذلك أبدا - كما لن يرجع ذلك فقط لكون السوق الموحدة مكتملة إلى حد بعيد. فليس هناك سبيل سهل مؤسسيا للعودة إلى أوروبا غير متكاملة، على الرغم من أن مواصلة طريق التكامل سيتضح أنه أكثر صعوبة لأسباب عديدة، وليس بسبب احتمال إخفاق التكامل النقدي فحسب.

وجنباً إلى جنب مع أوربة السياسات والأساليب الاقتصادية الوطنية جاءت أوربة البنى المؤسسية القومية وعمليات صنع السياسات. فكل الدول الأعضاء وقعت الآن ليس فقط في شرك نظام سياسي اقتصادي أوروبي يربط العملات

القومية بعملة أوروبية موحدة، ويحول مجموع الأسواق القومية إلى أسواق أوروبية، ويشجع الشركات القومية على التحول إلى الشركات أوروبية بل وقعت أيضا في شرك نظام سياسي إداري أوروبي يحول المسؤولين السياسيين القوميين إلى صناع قرار أوروبيين، والإدارات القومية إلى أدوات تنفيذ للقرارات الأوروبية، والمصالح المنظمة قوميا إلى جماعات ضغط أوروبية. وأصبح الفاعلون القوميون على صعيدي القطاع العام والخاص، والذين ظلوا في الماضي جزءاً من نظم لإدارة شؤون الحكم مفردة أو على الأكثر ثنائية المستوى وشبكات قومية ثابتة لإدارة شؤون الحكم، أصبحوا يعملون بصورة متزايدة في إطار نظام لشؤون الحكم متعدد المستويات بوصفه جزءاً من شبكات لإدارة شؤون الحكم الأوروبية بالغ المرونة(6).

على أنه في الوقت الذي عزز فيه الفاعلون القوميون سلطاتهم فوق القومية نتيجة للتكامل الأوروبي، فقد أخضعوا سلطاتهم القومية لأوروبا. وأصبحت مؤسسات الاتحاد الأوروبي تحتل أولوية أسبق على المؤسسات القومية، لتضعف بالتالي السلطات التنفيذية القومية وتختزل سيطرتها على السلطات فوق القومية، وتجرد الصلاحيات البرلمانية من عنصر المبادرة، وتخضع السلطة القضائية لمحكمة العدل الأوروبية. وفضلا عن ذلك فإن عمليات صنع السياسات الأوروبية جارت بصورة متزايدة على عمليات صنع السياسات القومية، متيحة إمكانية الوصول والتأثير لفاعلين مختلفين ولمصالح مختلفة، ومتوصلة إلى قرارات سياساتية بطرق مختلفة، وفارضة قرارات، أو منتظرة فرضها، بطرائق مختلفة.

وضمن هذا السياق استشعرت بعض البلدان وطأة التكييف المؤسسي أكثر من غيرها، أساسا بسبب مشكلات الملاءمة المؤسسية. فالبنى المؤسسية الأوروبية هي أكثر اتساما بالطابع الفيدرالي – أي أنها أكثر توازنا فيما يتعلق بصلاحيات السلطة التنفيذية، والهيئة التشريعية، والنظام القضائي وكذلك في المستويات المختلفة للسلطة – من كونها وحدوية، حيث تهيمن السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية والنظام القضائي فضلا عن السلطات الأقاليمية. كذلك تميل عمليات صنع السياسات الأوروبية إلى الاتسام بالطابع التعددي من اتسامها بالطابع «الدولتي» أو «المجالسي»، أي أنها عرضة لتأثير المصالح فيما يتعلق بصياغة السياسات أكثر من كونها مغلقة كلية أو مفتوحة بالنسبة لمصالح امتيازية بعينها؛ وأكثر اتساما بالتقعيد التنظيمي في مجال تنفيذ السياسات – من خلال تطبيق القواعد دون أي استثناء – من كونها ذات طابع إداري (بأن تكون عرضة للتكييف «المصالحي») أو تشاركية – من خلال تطبيق القواعد بالتنسيق مع مصالح امتيازية بعينها؛ وأكثر تعاونية من المنظور الثقافي – مع عملية صنع قرار أكثر ارتباطا بالمنحى التقني وصاعدة من القاعدة إلى القمة – من كونها صراعية (حيث القرارات أكثر اتساما بالطابع السياسي ومتخذة بوجه عام على مستوى القمة) أو إجماعية، حيث القرارات أقل اتساما بالطابع السياسي ويندر اتخاذها على مستوى القمة(7).

ولقد انطوت بنى الاتحاد الأوروبي، بما هي كذلك، على تأثير أكبر في حالة الدول الوحدوية مثل فرنسا وبريطانيا - بتعديلها للتوازن المؤسسي للسلطة فيما بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية من خلال تعزيز استقلال القضاء القومي واستقلالية الهيئات المحلية مع اختزالها لصلاحيات السلطة التشريعية - مقارنة بالدول فيدرالية الطابع. أما في ألمانيا، فلم تكن السلطة التنفيذية مسيطرة بشكل خاص، في وجود استقلال قضائي، واستقلالية محلياتية، وسلطة تشريعية كاملة الصلاحية مكفولة جميعها دستوريا. وفضلا عن ذلك فقد نحت عملية صنع السياسات شبه التعددية إلى فرض أعباء ضبطية أكبر على أشكال الحكم الدولتية مثل فرنسا وبريطانيا - من خلال تحجيم استقلالية الحكومة في صياغة السياسات، واختزال المرونة الإدارية في التنفيذ، والتطلع إلى تعاون أوسع في عملية صنع السياسات الأوروبية - مقارنة بأشكال الحكم المجالسية. أما ألمانيا فلم تتمتع أبدا بالنوع ذاته من الاستقلالية الحكومية، كما اتسم أداؤها التنفيذي المجالسي دائما بالتناغم مع أدائها التنظيمي، كذلك تنسجم ثقافتها الإجماعية الطابع بصورة أفضل مع الثقافة تعاونية الطابع للاتحاد الأوروبي.

والواقع أن عملية المواءمة المؤسسية مع التكامل الأوروبي كانت مرهقة بوجه خاص في حالة فرنسا. فالبنية الوحدوية للبلاد - والتي تميزت الحكومة المركزية فيها دائما بالقوة بينما اتسمت السلطات المحلية بالضعف، وهيمنت فيها السلطة التنفيذية على السلطتين التشريعية والقضائية - تم تحجيمها من قبل البنية شبه الفيدرالية للاتحاد الأوروبي. وفقدت «الدولة» - التي اكتسبت مع مرور الزمن سمات روحية الطابع في عقول الفرنسيين، وأصبحت جزءا مكونا في الثقافة والتاريخ، وفي المؤسسات، وفي الأداء البادي الاستقلالية لصناع القرار(8) - فقدت بعض روحيتها. ولم تعد السلطة المهيمنة تملك القدرة على أن تقرر وحدها وبالأصالة عن نفسها في المسائل المرتبطة بالصالح القومي، فهي تشارك في سلطة صنع القرار مع خمس عشرة دولة عضواً في مجلس وزراء الاتحاد الأوروبي وتجد دوائرها الانتخابية في الوقت ذاته - وفي المقدمة منها مجتمع المال والأعمال والسلطات الأقاليمية - شركاء في جماعات الضغط داخل «المفوضية».

وعلى المستوى القومي، لم تعد السلطة التنفيذية الفرنسية هي السلطة المنفردة ذات الصلاحيات المطلقة. فالسلطة القضائية، ورغم تبعيتها لمحكمة العدل الأوروبية، اكتسبت صلاحية وشرعية متزايدة منذ بداية الثمانينيات. ولم يتعزز ذلك المنحى من خلال القوى الخارجية فقط، وبخاصة صلاحيات المحاكم بوصفها الذراع التنفيذي للاتحاد الأوروبي، بل تعزز أيضا من خلال القوى المحركة الداخلية. ويشمل ذلك الفعالية المتزايدة للقضاة في ملاحقة المخالفات في الدائرتين السياسية والتجارية المالية - وهو ما يشكل مصدر إزعاج للسلطة التنفيذية - والتأثير المتنامي للمجلس الدستوري في تسوية النزاعات بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، أو بين الأغلبية والمعارضة. وفي المقابل نجد أن البرلمان، الذي لم يتمتع أبدا بقدرة كبيرة على المبادرة أو

المراقبة، يمارس فعليا الآن صلاحيات أقل : فقد أصبح - رغم الإصلاحات المترتبة على معاهدة ماستريخت - لا يزيد كثيرا عن كونه مرددا ببغائيا لتوجيهات صادرة من المجلس الأوروبي ومُوافق عليها من قبل السلطة التنفيذية الفرنسية عبر مجلس الوزراء(١٥). ومقارنة بذلك، تعززت وضعية سلطات المحليات من حيث الصلاحيات والاستقلالية، بإفادتها لا من موارد الاتحاد الأوروبي والإمكانات المباشرة للتواصل معه فحسب بل أيضا من الإصلاحات المبطلة للمركزية على الصعيد الداخلي(١١).

كذلك حُجِّمت عملية صنع السياسات الدولتية في البلاد. فالحكومات التي كانت تصوغ عادة سياسات «بطولية» دون وضع البعد المصالحي في الاعتبار ثم مواءمة المصالح الأكثر تأثرا خلال عملية التنفيذ - وإلا خاطرت بالصدام مع هذه المصالح - لم يعد بإمكانها الآن صياغة السياسات في استقلالية، في ضوء الأولوية المعطاة للاتحاد الأوروبي في ميادين يتسع نطاقها باستمرار، كما لم يعد بمقدورها تكييف تلك المصالح من خلال القيام بعمليات استثناء من القواعد.

هذا الفقدان للمرونة الإدارية، والناجم عن الغزوات المتزايدة للنمط التنظيمي، سواء على الصعيد القومي أو المترتبة على اعتبارات أوروبية، كان مؤداه نهاية علاقات الماضي - الوثيقة عادة وغير الرسمية في أغلب الحالات - بين الحكومة ودوائر الأعمال حيث تمتعت الوزارات ودوائر النشاط الصناعي بحرية تنفيذ الأعمال بوجه عام فيما بينها، متجاهلة القواعد في قسم كبير من الحالات. ولقد عوّض هذا الفقدان لإمكانية تكييف المصالح على صعيد تنفيذ السياسات، القدرة الأكبر على الدخول إلى مجال وضع السياسات على الصعيد المتعدى للقومية. غير أنه ونتيجة للطبيعة المغلقة بوجه عام لعملية وضع السياسات في فرنسا (حيث يعد نشاط «جماعات الضغط» شيئا غير مشروع وحيث يمارس النفوذ على نحو أكثر اتساما بالطابع الشخصي، وأيضا بسبب ثقافتها الصراعية في مجال صنع السياسات، والتي تميل إلى الاتسام بالطابع السياسي وبتراتبية القمة - القاعدة) فإن الأطراف الفاعلة في القطاع الخاص الفرنسي تتسم بفاعلية أقل في عملية الضغط الأكثر تقنية والمتجهة من القاعدة إلى القمة، في حين تتسم الأطراف الفاعلة في القطاع العام بخبرة أكبر في مجال عملية صنع القرار الأوروبية اليومية الأكثر تعاونية وانفتاحا(١٢).

ولقد اعتبرت المخاطر التي تهدد السيادة القومية، واستقلالية الإرادة الحكومية، والمرونة التنفيذية شيئا يمكن قبوله لدى الفرنسيين فقط في حدود أن البلاد ستكون لها الغلبة داخل الاتحاد الأوروبي، لينخرط الفرنسيون بذلك في ذلك النوع من البطولية على الصعيد المتعدى للقومية الذي لم يعد ممكنا على الصعيد القومي، في ضوء التعديلات الهيكلية في المجال الاقتصادي التي تتطلبها عملية المواءمة أو التكييف المؤسساتي. غير أنه وعلى الرغم من تحقق هذه الغلبة إلى حد كبير حيثما تعلق الأمر بالمسائل الاستراتيجية الكبرى، فإنها لم تتحقق فيما يتعلق بعملية صنع القرار اليومية.

أما فيما يتعلق ببريطانيا، فلم تكن عملية التكييف المؤسساتي على ذلك القدر من الصعوبة كما في حالة فرنسا. فبنيتها الوحدوية تعرضت لتأثيرات أقل من قبل البنى المؤسسية للاتحاد الأوروبي نظراً لوجود حكومة مركزية تتمتع بقوة مكافئة، ولكن في نطاق أضيق، وسلطة تنفيذية كانت دائما أيضا هي السلطة الغالبة، ولكن دون أن تصل سلطتها إلى حد فرض ما تراه على السلطة التشريعية أو القضائية، على الرغم من تمتعها بسلطان أكبر فيما يتعلق بالسلطات دون القومية. ومع ذلك فقد كانت المخاوف من حدوث تعديات مؤسسية أكبر في حالة بريطانيا عنها في فرنسا. ورغم أن بريطانيا لم يكن لها أبدا الارتباط الروحي الطابع نفسه بـ «الدولة» بما هي كذلك - فالكلمة لم تمثل أبدا جزءاً من القاموس الفلسفي السياسي(13) - فإن السيادة القومية تظل في طليعة مخاوف الحكومة القومية إزاء عملية التكامل - إذ ينظر لها بوصفها شيئا يتعين صونه بكل يقظة في المفاوضات على مستوى الاتحاد الأوروبي.

وعلى الرغم من أن السلطة التنفيذية، على المستوى القومي، خسرت جانبا من سلطانها وسلطاتها، فقد خسرت أقل مقارنة بفرنسا. ويرجع السبب الرئيسي لذلك إلى واقع أن السلطة التنفيذية كانت دائما أقل قدرة على فرض ما تراه على البرلمان البريطاني - الذي مارس دائما دوراً أكثر فاعلية على صعيد الرقابة والتعبير عن الهموم العامة - والسلطة القضائية البريطانية، التي تمتعت دوما باستقلالية كبيرة. ومن ثم فإن تزايد استقلال السلطة القضائية القومية، والمرتبط بالاتحاد الأوروبي، نجم عنه إقلاق أقل بالنسبة للسلطة التنفيذية البريطانية مقارنة بالسلطة التنفيذية الفرنسية (وخصوصا بالنظر إلى أنه لم يصاحبه النوع نفسه من الفعالية القضائية)، على الرغم من أن الفعالية القضائية لمحكمة العدل الأوروبية قد أثارت إزعاجا أكثر، نظراً لمساسها بامتيازات مقررة منذ زمن بعيد. وفضلا عن ذلك فقد مثل تآكل السلطات الأوسع للبرلمان مصدر قلق لا لأعضاء البرلمان فحسب بل لمسؤولي السلطة التنفيذية أيضا، الذين اضطروا - نتيجة للطبيعة الأقل انضباطا من الوجهة الحزبية للبرلمان البريطاني والأكثر اتساما بالحدة الصوتية، إن لم نقل المشاكسة والعناد - إلى التركيز أكثر على المصلحة الذاتية القومية في مفاوضات الاتحاد الأوروبي (أو على الأقل إلى إعلان ذلك للرأي العام) بهدف استباق النقد ولضمان تأييد المقاعد الخلفية * في مجلس العموم. وأخيراً فإن السلطات المحلية، والتي فقدت استقلاليتها بل ووجودها ذاته في سنوات حكم تاتشر (ومن أمثلة ذلك حل المجلس الأعلى لمدينة لندن)، مؤهلة لاكتساب قدر كبير من الاستقلالية نتيجة للتكامل الأوروبي في ضوء مبدأ التبعية الذي يوفر حافزا لإعادة إقرار الاستقلالية المحلية وإعادة تفعيل السلطات الأقاليمية.

* المقعد الخلفي Back Bensh مقعد في مجلس العموم البريطاني لا يشغل شاغله (من النواب) منصبا وزاريا.

كذلك حجّمت عملية صنع القرار الدولتية في بريطانيا، ولكن على نحو مغاير لما حدث في فرنسا. فهنا، أيضا، فقدت الحكومات التي اعتادت صياغة سياسات «بطولية» استقلاليتها في ميادين أوسع نطاقا باطراد فضلا عن المرونة الإدارية. على أن المرونة الإدارية بالنسبة للبريطانيين - الذين كانوا دائما أقل صدامية من الفرنسيين، ويبدون احتراما أكبر لسيادة القانون، وأكثر اتساما بروح التراضي في نهجهم في التنفيذ من خلال المواءمة بوجه عام بين مختلف المصالح (باستثناء سنوات حكم تاتشر) - ظلت تعني بوجه عام تفادي إصدار القوانين. وهو ما استتبع ترك الحرية للوزارات ودوائر النشاط الصناعي في معالجة شؤون عملها فيما بينها وبين بعضها البعض دون تقيد بإلزامات القوانين الرسمية. ومن ثم فإن عملية التحرير التنظيمي Deregulation - سواء على المستوى القومي أو في ارتباطها بالاتحاد الأوروبي - قد مورست، فيما يتعلق ببريطانيا، بوصفها عملية إعادة تنظيم (أو إعادة صياغة للقواعد المنظمة Reregulation) باستحداث إجراءات قانونية يتم في إطارها عقد الاتفاقات غير الرسمية، وبإنشاء هيئات منظمة مستقلة، حيث يتخذ الموظفون المدنيون القرارات الإدارية أو تشكل تجمعات أنشطة الأعمال والتجارة مجالس للتنظيم الذاتي. ولقد عوّض هذا الفقدان للمواءمة القومية بالنسبة لبريطانيا - تماما كما في حالة فرنسا - الوصول الأكبر إلى مجال وضع السياسات على الصعيد المتعدى للقومية. غير أن دوائر الأعمال في بريطانيا كانت مجهزة أكثر، نتيجة لواقع أن عملية صياغة السياسات البريطانية أقل انغلاقا مقارنة بفرنسا فيما يتعلق بالمدخلات المصالحية في ضوء التنظيم الجيد لجماعات الضغط داخل البرلمان، للانخراط في نشاط جماعات الضغط داخل الاتحاد الأوروبي. وعلى حين نجد الأطراف الفاعلة في القطاع الخاص البريطاني أكثر تأثيرا من ثمة مقارنة بفرنسا على مستوى الاتحاد الأوروبي، فإن الأطراف الفاعلة في القطاع العام في بريطانيا تتمتع بتأثير أقل، وخصوصا على الصعيد الاستراتيجي الأشمل. ذلك أن البريطانيين، المتسمين بثقافة صراعية فيما يتعلق بعملية صنع القرار والتي تتميز شأنها شأن نظيرتها الفرنسية بطابعها السياسي وبتراتبية القمة-القاعدة، لديهم أيضا أسلوب يقوم على المساومة ويكثر اللجوء إلى سياسة حافة الهاوية وأجندة تركز أكثر على حماية امتيازاتهم. وهم يدفعون الأمور في حالات كثيرة إلى مدى أبعد مما تفعله الدول الأعضاء الأخرى الأقل تأرجحا، كما يشعرون بندم أقل - في مواجهة الهزيمة بعد عملية مساومة طويلة ومجهدة - فيما يتعلق بلمِّ كراتهم ومغادرة الملعب.

وعلى ذلك فقد استشعر البريطانيون - وبدرجة أكبر من الفرنسيين - المخاطر التي تهدد السيادة القومية والاستقلالية الحكومية والمرونة الإدارية كما أبدوا تجاهها مقاومة أنجع، كما يتضح من الامتناع عن الانضمام إلى الفصل الاجتماعي لمعاهدة ماستريخت وللاتحاد النقدي الأوروبي. فبينما تمثل رد فعل فرنسا إزاء تلك المخاطر في البحث عن «بطولية» أكبر على مستوى الاتحاد الأوروبي كبديل لفقدانها على المستوى القومي، فإن رد فعل بريطانيا تمثل في المقاومة «البطولية»

لما تعتبره تعديات أوروبية على سيادتها القومية، واستقلاليتها الحكومية، ومرونتها الإدارية. غير أنه في حين حدَّ الدور الذي رسمته بريطانيا لنفسها، كشريك متقاعس، من قدرتها على امتلاك نفوذ مهم على الصعيد الاستراتيجي الأشمل، فإن هذا الدور وفر لها فعالية أكبر فيما يتعلق بخيارات عدم المشاركة على المستوى القومي وفي الضغط من أجل أجندة أكثر اتساما بالليبرالية الجديدة على مستوى الاتحاد الأوروبي.

أما فيما يتعلق بألمانيا، فقد تميزت عملية التكييف أو المواءمة (المؤسسية) بسهولة أكبر مقارنة بفرنسا أو بريطانيا. فبنيتها الفيدرالية- والتي كانت الحكومة المركزية في إطارها هي الأضعف دائماً، والسلطات الأقاليمية هي الأقوى، وحيث النفوذ المؤسسي متوازن دائما فيما بين كل من السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية - تشابه كثيرا بنية الاتحاد الأوروبي شبه الفيدرالية. ولم يتمتع المسؤولون التنفيذيون الألمان أبدا باستقلالية المسؤولين الفرنسيين أو البريطانيين أو بإمكانية صنع سياسات «بطولية»، في الوقت الذي لم تكن «الدولة» بما هي كذلك، في أي وقت، أكثر من «شبه سيادية»، في ضوء السلطات المكفولة دستوريا لـ «الأقاليم»، والاستقلالية المقررة دستوريا للـ «بوندستاج» والسلطات التفاوضية الجماعية المستقلة قانونا للشركاء الاجتماعيين، والسلطات القضائية المستقلة للمحاكم، وغير ذلك. (الشيء الأقرب إلى أن يكون رمزا بالنسبة للألمان للسيادة القومية هو عملتهم، وهو ما يفسر لماذا لن يصبح التخلي عن المارك الألماني لصالح «اليورو» مقبولا إلا إذا انطوت العملة التي تم إحلالها على القيمة الرمزية نفسها التي تنطوي عليها العملة في ألمانيا، بوصفها ضمانا للاستقرار، فضلا عن تمتعها بالقوة نفسها). ونتيجة لذلك لم يمثل فقدان السيادة القومية، في أي وقت، بالنسبة لألمانيا تلك القضية التي يمثلها بالنسبة لبريطانيا، على الرغم من أن حماية السلطات شبه السيادية لبناها المؤسسية قد مثل شاغلا رئيسيا بالنسبة لها في كل مفاوضاتها على مستوى الاتحاد الأوروبي، وبقدر من الحرص أكبر كثيرا مقارنة بفرنسا وبريطانيا.

وعلى المستوى القومي، تم الحفاظ إلى حد كبير على التوازن بين السلطات الثلاث، التنفيذية والتشريعية والقضائية، وأيضا بين السلطات القومية والمحلية (سلطات الأقاليم). ورغم أن البرلمان قد وجد سلطة المبادرة لديه تتآكل، فإن صلاحياته التشريعية تظل أوسع كثيرا مقارنة بفرنسا وبريطانيا، وكذلك الحال فيما يتعلق بقدرته على ممارسة الرقابة على السلطة التنفيذية. والواقع أن السلطة التنفيذية ليس لديها سوى القليل من السلطة لتفرضها. فالبنية المعقدة لعملية صنع القرار تستلزم، تبعا للقضية موضوع البحث، مساومات تشريعية فيما بين «البوندستاج» ذي الأغلبية المحافظة و«البوندسرات» الذي يسيطر عليه الحزب الاشتراكي الديمقراطي، واتفاقات - مبنية على عمليات تفاوض ومساومة جماعية على المستوى الأقاليمي - بين الاتحادات القومية لأصحاب الأعمال والعمال، واتفاقات منسقة بين الحكومة الفيدرالية وحكومات الأقاليم بشأن السياسات المالية والتنفيذية . وفضلا عن ذلك فإن

السلطة القضائية المستقلة تقليديا لم تجد استقلالها يتعزز فحسب، تماما كما في بريطانيا، بل إن المحكمة العليا في البلاد - والتي أقلقتها أكثر من المحكمة العليا في بريطانيا مسألة التخلي عن حقوقها المقررة منذ زمن طويل - قد رفضت أيضا قبول تبعيتها الكاملة لمحكمة العدل الأوروبية. وأخيرا فقد تمتعت سلطات الأقاليم في ألمانيا (حكومات الأقاليم) - وخلافا لنظيراتها الأقرب في فرنسا، ناهيك عن نظيراتها في بريطانيا (حيث لا وجود أصلا لمناطق حكم ذاتي) - بصلاحيات مهمة واستقلالية عبر تمثيلها المباشر في مجلس الأعيان (البوندسرات) ودورها بوصفها الجهات المنفذة للقوانين الفيدرالية. ورغم فقدانها لبعض سلطاتها قبل معاهدة ماستريخت نتيجة للأهمية المتزايدة لعملية صنع القرار على مستوى الاتحاد الأوروبي، فقد استعادتها منذ ذلك الحين عبر تمثيلها الرسمي في لجان الاتحاد الأوروبي ذات الصلة.

كذلك شهدت عملية صنع السياسات على صعيد الاتحادات والنقابات قدراً محدوداً من التشوش، وخاصة بالمقارنة مع فرنسا أو بريطانيا. وقد نجم ذلك، جزئيا، عن الجهود الواعية للحكومة لكفالة أن تتيح معاهدة ماستريخت لحكومات الأقاليم المشاركة رسميا في عملية وضع السياسات وأن يواصل كل من حكومات الأقاليم والشركاء الاجتماعيين الاحتفاظ بدورهم التقليدي في تنفيذ السياسات. غير أن ذلك ينجم أيضا عن «التوافق» المؤسسي الأفضل بين الاتحاد الأوروبي وألمانيا. ففي كل منهما تتسم عمليات صنع السياسات بالتعقيد، وبالقدر نفسه، وبالانفتاح النسبي، مما يعزز وجود ثقافة مساومة وتوفيق في عملية وضع السياسات وليس في مجال التنفيذ وحده (كما هي الحال في فرنسا وبريطانيا)، سواء اتخذت شكل توخي الإجماع - كما في ألمانيا - حيث تتسم القرارات بطابع سياسي أقل وضوحا وبندرة اتخاذها على مستوى القمة.. أو صيغة التعاون - كما في الاتحاد الأوروبي - حيث القرارات أكثر فنّية ويجري اتخاذها في تسلسل صاعد من القاعدة إلى القمة. وفي مجال عملية تنفيذ السياسات، تبقى المرونة على صعيد الاتحادات والنقابات دون تغير كبير، لسبب رئيسي هو أن سلطات الأقاليم والشركاء الاجتماعيين يشاركون فيها كما شاركوا دائما. وفضلا عن ذلك - ونتيجة لأن ألمانيا لم تحترم القانون دائما فحسب تماما كما يفعل البريطانيون بل وذهبت أبعد من بريطانيا في تصنيفه في مجموعة متناسقة من القوانين - فإن الترسيم القانوني المتزايد القادم من الاتحاد الأوروبي لا يسبب ذلك النوع من الرعب الذي يسببه بالنسبة لبريطانيا، والواقع أنه ليس هناك ما يدعو لذلك بالنظر إلى أنه لم يجلب معه التكاثر نفسه فيما يتعلق بالجهات المسؤولة عن القواعد المنظمة كما حدث في بريطانيا وفرنسا (على الرغم من أن هذا ربما أصبح وشيك الحدوث مع تسارع عملية التحرير التنظيمي).

وفي المقابل، شهدت عملية وضع السياسات بعض التشوش، إذ تضاءلت إمكانية الوصول المباشر إليها بالنسبة للمصالح المنظمة المشاركة فيها عادة - أي دوائر أصحاب العمل والقوى العاملة - من خلال الانتقال إلى مستوى الاتحاد

الأوروبي، حيث إمكانية الوصول متاحة بدرجة كبيرة لدوائر الأعمال لكنها ليست كذلك بالنسبة للقوى العاملة. ففيما يتعلق بدوائر الأعمال أثبتت المشاركة المنظمة لهذه الدوائر في صياغة السياسات على المستوى القومي، جنبا إلى جنب مع ثقافة صنع القرار الإجماعية، أثبتت على الأقل تمرسا ممتازا فيما يتعلق بجهود الضغط داخل الاتحاد الأوروبي. وفضلا عن ذلك فربما جاء أداء الأطراف الفاعلة على صعيد الهيئات والمؤسسات العامة في نفس مستوى أداء الأطراف الفاعلة على صعيد القطاع الخاص عندما يتعلق الأمر بالتفاوض اليومي، يعززها في ذلك اعتيادها تلك العملية المعقدة المركزة على الوصول إلى إجماع. وعلى الرغم من أن الإجماع، حتى في ألمانيا، يتم تحقيقه في أغلب الأحيان عبر الصراع، فإن عملية المساومة تتسم بطابع أقل حدة (أو أقل اقترابا من «حافة الهاوية») مقارنة ببريطانيا ولقد تعلمت الأطراف الفاعلة العامة، والخاصة أيضا، بالضرورة لا كيف تساوم بعناد فحسب من أجل الهدف المراد تحقيقه بل متى تتوقف أيضا وتقبل – خلافا للبريطانيين، الذين يخلفون شعوراً بالمرارة في أوساط الاتحاد الأوروبي عندما يختارون المرة تلو الأخرى رفض الاشتراك بدلا من التفاوض والبحث عن تسوية.

وعلى ذلك فليس لدى ألمانيا سبب لكي تستشعر المخاطر على السيادة القومية والاستقلالية والمرونة الإدارية بتلك الدرجة نفسها من القوة التي تستشعرها فرنسا أو بريطانيا، كما أن بناها المؤسسية وعملية صنع القرار فيها أقل تعرضا لأنواع التغيرات التي فرضها الاتحاد الأوروبي على الدول الأعضاء الأخرى. على أن فقدان ألمانيا، وللسبب ذاته، للاستقلالية والبطولية – والذي يرجع في الأساس لمؤسساتها الفيدرالية وعملياتها التشاركية الطابع فضلا عن ثقافتها الإجماعية – جعل من الصعوبة بمكان بالنسبة لها أن تمارس دورا قياديا حيثما تعلق الأمر بالمسائل الاستراتيجية الكبرى داخل الاتحاد الأوروبي، فهنا ينعقد التفوق لفرنسا – أو تقاوم بقوة المبادرات السياساتية المتعلقة بالأشياء التي لا تحوز قبولها – وهنا تمثل بريطانيا أيضا المتزعم السابق.

وإجمالا يمكن القول إن البلدان الثلاث شهدت تعديلات هيكلية في المجال الاقتصادي وتكييفا مؤسسيا سعيا إلى تحقيق التكامل الأوروبي، وإن حدث ذلك على نطاق أوسع بالنسبة لفرنسا مقارنة بكل من ألمانيا وبريطانيا. وفضلاً عن ذلك فقد كان أصعب على فرنسا كسب قبول جماهيري لمثل ذلك التغير، أساسا بسبب افتقارها إلى خطاب تسويغي متماسك، خلافا لبريطانيا – التي نجحت في بناء خطاب أكثر تماسكا منذ قدوم تاتشر – وألمانيا، التي لم تبدأ تظهر، سوى الآن، بعض الخلل في خطابها لفترة ما بعد الحرب.

بناء خطاب قومي

لا يمكن التقليل من أهمية بلورة خطاب قومي قادر على تسويغ التغيرات الاقتصادية والمؤسسية المرتبطة بالتكامل الأوروبي. فمن دون مثل هذا الخطاب، سوف تواجه بلدان أوروبا احتمال ما أسماه ولفجانج ستريك «وهم

الديمقراطية»، والذي ستزدهر في ظله الانتهازية السياسية والديماجوجيا الشعبوية مع تحير الناخبين والسياسيين أيضا بين «رفض التسليم بواقع أن المظاهر الخارجية هي التي تحكم بشكل متزايد مسائل السياسة القومية، وإلقاء تبعة كل شيء على هذه المظاهر – فمرة يدعون إلى حلول قومية، حيث هذه الحلول لم تعد ممكنة، ومرة أخرى يطالبون بـ «الحلول الأوروبية» في الوقت الذي يرفضون فيه باسم السيادة القومية والتنوع أوروبا الموحدة بوصفها أداة إنقاذهم»(14). وذلك أمر محتوم، في رأي ستريك، في «ديمقراطية في ظل سيادة مجزأة». غير أن ذلك لا يقلل من أهمية تأثير الخطاب السياسي العقلاني وأيضا من إمكانية إنجاز رؤية متماسكة لما يمكن أن يمثله تكامل داخل إطار أوروبا أوسع ولما يجب أن يكون عليه، وهي الرؤية القادرة على إقناع الجمهور العام بأن السعي إلى تحقيق الرفاهة القومية يتوافق مع بناء اقتصاد فوق قومي موحد وأن ذلك أمر يستحق العناء المبذول من أجله حتى لو اقتضى تضحيات قومية في المدى القصير.

على أن أي خطاب من هذا النوع سيكون مختلفا بالضرورة بين دولة أوروبية عضو وأخرى، في ضوء الحقيقة القائلة إن الدول الأعضاء واصلت إدارة شؤونها على نحو مختلف تماما. ويتمثل التحدي الرئيسي بالنسبة لكل بلد، فيما يتعلق ببناء خطاب قومي، في كيفية بلورة وإنجاز رؤية اقتصادية وسياسية مقنعة للبلد المعني، داخل إطار أوروبا موحدة وعالم «متعولم»، تسهم أيضا في تسويغ التعديلات الاقتصادية والتكييفات المؤسسية المرتبطة بـ «الأوربة».

ومن دون مثل هذه الرؤية وذلك الخطاب اللذين يسهمان في وضع عملية الأوربة على نحو متماسك في سياق قومي، فإن المناقشات المتعلقة بالضرورات الأوروبية (والكونية) تصبح مجرد عظات إنشائية لا يتعدى الأساس المنطقي فيها حدود الأعذار أو المبررات للسياسة الحكومية دون أن ينطوي سوى على أثر باق لرسالة أخرى غير الرسالة القائلة إن التعديات الخارجية تسبب التغير في الداخل. وفي أفضل الأحوال، سوف يقبل الجمهور العام – في أوقات الازدهار والرضا عن الأحوال – هذه البلاغة الإنشائية وذلك الأساس المنطقي دون مساءلة كبيرة وسيستجيب للرسالة بوصفها تحد. وفي أسوأ الأحوال، أي في أوقات الكساد والضيق، فسوف يرفض الجمهور كلا من الإنشاء والأساس المنطقي ولا يبقى لديه سوى الرسالة، والتي من المرجح تماما أنها ستغرس الخوف وتتيح مجالا أوسع أمام الانتهازية السياسية والديماجوجية.

ويتعين، كوضع أمثل، ألا يجيء هذا الخطاب – رغم أن من المرجح أن تقوده الحكومة – كنتاج لجهد النخبة الحكومية وحدها بل أن يمثل بالأحرى جزءاً من نقاش أوسع في المجتمع، بمشاركة من قادة الرأي من خارج نطاق الحكومة ومن داخلها أيضا، بما في ذلك الأكاديميون، ووسائل الإعلام، ومديرو الشركات، وأحزاب المعارضة، والقيادات العمالية، وسواهم. وأي احتكار للرأي أو نهج انفرادي سينطوي على إشكاليات يصعب حلها، من حيث إن المواقف النقدية تساعد في أحيان كثيرة على توضيح

القضايا بل وفي تعديل المواقف أيضا(15) وفضلا عن ذلك فإن الافتقار إلى النقد لا يشير بالضرورة إلى الموافقة أو القبول، بل هو يخفي اختلاف الرأي ليس غير ويجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للحكومة أن تكتسب القدرة على تلمس مواضع الخلل. وكلما اتسع نطاق المناقشة، كلما تعززت إمكانية أن يصبح ما بدأ بوصفه رطانة للحكومة وحدها قناعة قومية ذات مقبولية أوسع نطاقا.

فرنسا: في البحث عن خطاب

أخفقت الحكومات الفرنسية إخفاقا ملحوظا في بناء خطاب قومي متماسك قادر على بلورة رؤية للكيفية التي تتناغم بها فرنسا مع أوروبا تكاملية وعالم معولم. ومنذ تحول الاشتراكيون إلى السياسات الاقتصادية الليبرالية في بداية الثمانينيات(16)، متخلين عن خطابهم الاشتراكي، وإخفاق اليمين في تعزيز وترسيخ خطابهم الليبرالي الجديد في أواسط الثمانينيات في مواجهة الهزيمة الانتخابية(17)، تجهد النخب الحكومية الفرنسية في البحث عن خطاب جديد يمكن أن يسهم في تفسير التحول الاقتصادي والمؤسسي للبلاد من زاوية رؤية أكثر اتساعا موضوعها «فرنسا في إطار أوروبا والعالم». وفي غياب هذا الخطاب، تم اللجوء إلى ما لا يزيد كثيراً عن كونه إنشاء لغويا وبلاغيا مناصراً للأوربة ومناهضا للعولمة يطرح كل التغيرات المرتبطة بالتكامل الأوروبي بوصفها خطوة ضرورية لحماية البلاد في مواجهة ضغوط العولمة. أي أن التكامل الأوروبي تم طرحه، بعبارة أخرى، بوصفه درعا سياسيا، واقتصاديا أيضا، يحجب الافتقار إلى أي خطاب قومي حقيقي. لكن على الرغم من أن رطانتهم المناصرة للأوربة والمناهضة للعولمة حققت نجاحا خلال القسم الأكبر من عقد الثمانينيات، فإن قدرتها على حماية الطبقة السياسية تضاءلت مع بداية التسعينيات مع تضاؤل قدرة التكامل الاقتصادي الأوروبي على وقاية فرنسا في مواجهة الكساد الاقتصادي والتعديات المتزايدة في مجال السياسات الاجتماعية.

على أن نقد مجمل مشروع التكامل الأوروبي، والاتحاد النقدي الأوروبي بوجه خاص، ظل يمثل نوعا من «التابو» إلى حد كبير. فقد أحبط «الفكر الأحادي الجانب»، وهو التعبير الذي يطلق على التحذير الموجه ضد انتقاد الاتحاد النقدي الأوروبي من قبل المنشقين، أي نقاش مفتوح وشامل حول المشكلات التي ينطوي عليها. وكانت اللحظة الوحيدة التي شهدت نقاشا مفتوحا في هذا الصدد، قبل الحملة الانتخابية عام 1997، قد تضمنها الجدل واسع النطاق بشأن التصديق على معاهدة ماستريخت، وبعدها سرعان ما أقفل باب النقاش مرة ثانية. وظل البرلمان، وهو المكان الذي يفترض المرء أن يتواصل الجدل حول هذا الموضوع داخله، ملتزما الصمت إلى حد بعيد فيما يتعلق بالمسألة ولم يكن له في كل الأحوال أي دور أو تأثير ذي شأن.

والواقع أن «التابو» ذاته إنما ينجم إلى حد كبير عن واقع أن مواصلة السعي إلى تحقيق التكامل النقدي لم يصبح مصدر فخر فحسب لأغلب سياسيي اليسار واليمين معا – تتضمن تضحيات

السنوات الأخيرة الماضية معاناة نسبة عالية من البطالة ومعدلات فائدة عالية - بل مثل أيضا مصدرا للفخر القومي، في ضوء الدور الاقتصادي القيادي لفرنسا في الاتحاد الأوروبي والذي واكب سعيها المتواصل(18). غير أن هذا التابو إنما يعني أن مجال النقاش قد ضيق عليه الخناق، بحيث لم تعد هناك أية أرضية وسط ما بين القبول بكل جوانب الاتحاد النقدي الأوروبي دون نقاش أو معارضته كليا، وهو ما يغلق الطريق بوجه عام لا أمام الخروج من الاتحاد النقدي الأوروبي بل ومن الاتحاد الأوروبي أيضا. والنتيجة المترتبة على ذلك هي أنه حتى السياسيين القوميين الذين التزموا الصمت التام قبل الحملة الانتخابية - وهم الذين عارضوا الاتحاد النقدي الأوروبي منذ البداية - والاستثناء الوحيد قبيل بدء الحملة الانتخابية هو وزير الداخلية السابق تشارلز باسكو (وعلى النقيض التزم رفيقه في معارضة معاهدة ماستريخت فيليب سيجوين، رئيس الجمعية الوطنية، عدم التعليق أملا في فوز آلان جوبان كرئيس للوزراء). وفضلا عن ذلك فإن العدد المحدود من السياسيين الذين طالبوا بعدم الانضمام للمعاهدة مالوا إلى اتخاذ موقف هامشي أو همِّشوا، كما في حالة جان بيير شيفنمو اليساري، وأيضا وبطبيعة الحال جان ماري لوبان زعيم الجبهة الوطنية واليمين المتطرف، وهو الاتجاه الأكثر جهرا بمعارضته للانضمام. ولقد كان طبيعيا أن يصبح الجمهور العام، وبعد أن أصبح كل ما لديه من سياسييه الكبار ما لا يزيد على مجموعة من العظات والنصائح بمواصلة التضحية وبضعة تعاويذ حول الفوائد المستقبلية للاتحاد النقدي الأوروبي، مهيأ أكثر للتأثر بديماجوجية اليمين المتطرف.

على أن التزام الصمت إزاء الاتحاد النقدي الأوروبي لا يستلزم بالضرورة الصمت إزاء الخسارة المترتبة في القدرة الاقتصادية الاجتماعية. فهنا، جهر سياسيو اليمين غير الحكومي (وخاصة فيليب سيجوين)، وأيضا وبالقدر نفسه السياسيون اليساريون، برأيهم بوضوح متزايد، معربين عن القلق بوجه خاص بشأن المخاطر التي تهدد «التضامن الاجتماعي» والتي تنجم عن الاندفاع الموتو ر الحكومة في السباق نحو الاتحاد النقدي الأوروبي. وقد بلغت هذه العملية ذروتها إبان الحملة الانتخابية عام 1997، عندما رفع «التابو» المفروض على انتقاد الاتحاد الأوروبي. وعلى الرغم من أن الائتلاف الذي يقوده الاشتراكيون بمنحاه اليساري لم يذهب إلى حد التشكيك المبدئي في أهمية وجدوى الاتحاد النقدي، فقد انتقد الطابع التقييدي لمعايير الميزانية وغياب «الحكومة الاقتصادية» التي يمكنها دفع البنك المركزي الأوروبي إلى تحويل ركيزة اهتمامه من خفض العجز إلى النمو الاقتصادي.

والواقع أن المشكلة بالنسبة للنخب الحكومية الفرنسية، سواء من اليسار أو من اليمين، إنما تتمثل في أنه مازال يتعين عليها أن تجد خطابا يمكن أن يسهم في التوفيق بين التزامها المعلن بـ «التضامن الاجتماعي» وتأثيرات اللبرلة الاقتصادية (أو التحرير الاقتصادي). كما أن المواطنين الفرنسيين عندما يرون، من ناحية

أخرى، الضرائب والبطالة تواصل الارتفاع في الوقت الذي تتضاءل فيه الفوائد والخدمات الاجتماعية فإن صبرهم ينفد - لا فيما يتعلق فحسب بالسياسات التي يتضح بجلاء أنها لم تنجح في تحقيق الرخاء والوظائف لفرنسا بل فيما يتعلق أيضا بالعمليات التي تضعهم باستمرار خارج دائرة صنع القرار. وليست مظاهرات 1995 سوى شاهد على نفاد الصبر هذا(19). غير أن مسألة ما إذا كان بإمكان الحكومة الفرنسية الوفاء بتعهد الرئيس شيراك استجابة للمظاهرات - بإجراء المزيد من الحوار والتشاور - تظل احتمالا لم يحسم بعد، وإن كان من المعروف أن الحكومة نادرا ما حققت قدرا ملموسا من الحوار والتشاور في المعترك الاجتماعي مع المواطنين الفرنسيين بل سعت في أغلب الحالات إلى الفرض أو التهدئة (في مواجهة الاحتجاج) لا إلى الإصغاء. وفضلا عن ذلك فحتى لو كانت الحكومة حريصة فعلا على الإصغاء، فإن الهيئات الوسيطة الضرورية فيما يتعلق بالتشاور الاجتماعي هي إما ضعيفة أو مفقودة، خلافا لألمانيا، كما أن البرلمان لم يقم أبدا بدور المعبر عن شواغل المواطن، خلافا لبريطانيا. والأكثر من ذلك أن الوسائل الرئيسية الأخرى للتعبير عن شواغل المواطن - الصحافة والمحاكم - يُنظر لها بشك متنامٍ من قبل النخب الحكومية، مع تزايد الكشف عن فضائح الفساد من قبل الصحافة، وملاحقتها قضائيا من قبل المحاكم.

وعلى ذلك فإن المشكلات المؤسسية لفرنسا هي سبب آخر لا يقل أهمية عن المشكلات الاقتصادية للتوتر الذي تعيشه البلاد. ومما يعزز من تفاقمها واقع أن الاتحاد الأوروبي لا يقدم ملجأً إضافيا كافيا فيما يتعلق بإمكانية مشاركة المواطن في عملية وضع السياسات (مقارنة برجال الأعمال)، فضلا عن أنه يحجِّم فعليا سبل إراحة المواطن في عملية تنفيذ السياسات.

وتترتب على ظهور النموذج أو النمط التنظيمي، والذي لا يسمح بأي استثناء للقاعدة، إمكانية أن يجد المواطنون الفرنسيون - المعزولون أصلا عن عملية وضع السياسات من قبل الحكومة الفرنسية التي تنحو إلى صنع القرارات دون قدر كاف من المشاورة المجتمعية (والتي أصبحت فاقدة الآن للاستقلالية في صنع تلك القرارات) - أن يجدوا أنفسهم وقد فقدوا أيضا ملجأهم التقليدي في مرحلة التنفيذ، في ضوء فقدان الحكومة الفرنسية للمرونة الإدارية. وهذا الفقدان للمرونة في مجال تنفيذ السياسات قد لا يضيف سوى المزيد من الاحتجاجات بالنظر إلى أن المواطنين يتحولون إلى المواجهة في غياب وسائل التخفيف - إلا إذا، أو حتى، تجد النخب الحكومية الفرنسية طرائق جديدة لتنظيم المواطنين الفرنسيين (ونفسها أيضا) من أجل الحوار والتشاور لوضع المواطنين داخل دائرة وضع السياسات، في المجال الاقتصادي الاجتماعي على الأقل.

على أن نجاح أي حوار أو تشاور إنما يتوقف على قدرة النخب الحكومية الفرنسية على طرح خطاب سياسي جديد متماسك لتسويغ التحول إلى اقتصاد كلي أكثر ليبرالية وانفتاحا، وإلى اقتصاد جزئي أكثر اعتمادا على السوق، وإلى اقتصاد اجتماعي أكثر تحددا. ومن دون مثل هذا

الخطاب التسويغي، فإن من المرجح أن تثير الخسارة في القدرة الاقتصادية الاجتماعية في مواجهة التكامل الأوروبي أسئلة انتهازية أو ديماجوجية سياسيا حول صورة فرنسا ضمن أوروبا متكاملة، تاركة المواطنين الفرنسيين للشعور المتزايد بالحصار ومخلفة التزام البلاد بالتكامل الأوروبي أمام خطر الانفجار في وجوه النخب الحكومية. وتتعرض بريطانيا وألمانيا لهذا الخطر بدرجة أقل، وإن يكن لأسباب مختلفة تماما في ضوء خطابيهما السياسيين المغايرين.

بريطانيا: خطاب في حاجة إلى التجديد

كانت الحكومات البريطانية، بداية من حكومة تاتشر، أكثر نجاحا فيما يتعلق ببناء خطاب متماسك يبلور رؤية مقنعة حول صورة بريطانيا سواء داخل أو خارج أوروبا متكاملة وعالم معولم. والواقع أن كلاً من موقفها المؤيد للعولمة - والذي تمتد جذوره إلى التاريخ الاقتصادي الأكثر انفتاحا للبلاد - ولغتها المناهضة للأوربة، والتي مكنتها من تحقيق إحجام عن الانضمام لكل من الفصل الاجتماعي لمعاهدة ماستريخت والاتحاد النقدي الأوروبي، هذان الموقفان يتسقان تماما مع خطابها النيوليبرالي (الليبرالي الجديد) الذي يطرح تحجيم دور الدولة في كل القطاعات، سواء الاقتصادية الاجتماعية أو الاقتصادية الكلية أو الجزئية. والواقع أن الخطاب يسهم من ناحية في تسويغ خسارة بريطانيا في مجال القدرة الاقتصادية الاجتماعية -بإلحاحه منذ حكم تاتشر على الحاجة إلى تفكيك دولة الرفاه - كما يسهم من ناحية أخرى في مقاومة فقدان الاستقلالية على الصعيد الاقتصادي الكلي نتيجة للتكامل النقدي أو في المجال الاقتصادي الجزئي نتيجة لأية إعادة تنظيم على صعيد الاتحاد الأوروبي. على أن الخطاب أصبح في حاجة الآن، في وقت تواجه بريطانيا خيارات كبرى فيما يتعلق بالتزامها بالتكامل الأوروبي عشية الانتخابات القومية، إلى التجديد أيا كان القرار المتخذ إزاء هذا الالتزام.

لقد ارتبط نجاح الخطاب حتى الآن، وإلى حد كبير، بواقع أن المواطنين البريطانيين قد أفادوا - وخلافا للحال في فرنسا - من توافر قدر أكبر من الحوار (وإن لم يكن ذلك يعني بالضرورة قدر أكبر من التشاور) بشأن كل نواحي التكامل الأوروبي. وخلافا لفرنسا، حيث اعتبر انتقاد الاتحاد النقدي الأوروبي بل والاتحاد الأوروبي نوعا من التابو، أصبح مثل هذا الانتقاد شيئا ملازما للحياة السياسية البريطانية، سواء في البرلمان أو في الصحافة. والواقع أن الدفاع عن الاتحاد الأوروبي أصبح توجها أكثر انطواء على المخاطرة - وهو ما اتضح لحزب العمال في الحملة الانتخابية الأخيرة، بحيث تعين عليه تلطيف وتخفيف عباراته المرة تلو المرة فيما يتعلق بالمقابل الذي يتوجب الحصول عليه والوقت الذي يمكن فيه التراجع عن عدم المشاركة (وخصوصا فيما يتعلق بالفصل الاجتماعي).

إن مثل هذا النقاش العام حول الاتحاد الأوروبي إنما يعني أنه في حين تعد بريطانيا، شأنها شأن فرنسا، «دولتية» فيما يتعلق بعملية وضع السياسات، إلا أن شواغل مواطنيها لقيت

على الأقل تعبيرا أوضح عنها. وذلك ما كفله في الأساس برلمان لعب دائما - رغم اتسامه بضعف مماثل لضعف نظيره الفرنسي عندما يتعلق الأمر بالسياسات المؤثرة - دورا رئيسيا كمنبر للنقاش المحتدم للأفكار. وفضلاً عن ذلك فقد دأبت الحكومة نفسها على مقاومة تعديات الاتحاد الأوروبي على ديمقراطية بريطانيا البرلمانية، من خلال تعزيز ودعم الصالح القومي على نحو شبه حصري في عملية صنع القرار الجماعية داخل مجلس الوزراء(20) وكذلك من خلال معارضة القواعد التنظيمية للاتحاد الأوروبي التي تقلل المساحة المتروكة أمام حرية التصرف الإدارية. وقد أضفى كل ذلك النقاش العام على المواطنين البريطانيين، وعلى أقل تقدير، المظهر الخارجي لكون مصالحهم يجرى تمثيلها، حتى ولو كانت إمكانية وصولهم لدائرة صنع القرار هي في تضاؤل. وكفل مثل هذا النقاش، مقترنا بنجاح الإصلاحات الاقتصادية والمؤسسية التي استبقت إلى حد كبير التكامل الأوروبي، أن يكتسب الخطاب الليبرالي الجديد، الذي ظهر بطابع جذري للغاية عندما طرح من قبل تاتشر، ذلك القبول الواسع في كل أنحاء البلاد بحيث لم يكن أمام حزب العمال المعارض سوى تبنّيه، حتى لو لم يكن مناهضا بالقدر نفسه للأوربة في توجهاته المعلنة أو مذهبيا بالقدر نفسه في ليبراليته الجديدة.

ولقد كانت المشكلة بالنسبة لبريطانيا خلال العامين الأخيرين من حكم المحافظين هي أن الحديث المناهض للأوربة يوشك أن يصبح واقعا، بعد أن كان من الصعب المحافظة على تلك الموازنة الدقيقة التي مارستها حكومة المحافظين، من خلال إصدار التصريحات العامة المعارضة لمزيد من التكامل في الوقت الذي تتخذ فيه من الإجراءات ما يحفظ البلاد داخل الاتحاد الأوروبي أكثر منها خارجه. والواقع أن القضية الأساسية بالنسبة لأية حكومة بريطانية - سواء أكانت حكومة محافظين أو عمالية - هي أن نهج الاتحاد النقدي يجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للحكومة البريطانية أن تقرر عدم الانضمام في الوقت الذي تبقى فيه داخل الاتحاد، أي أن تواصل جني فوائد الاتحاد النقدي الأوروبي من دون أن تتخلى عن السيادة النقدية للاتحاد النقدي الأوروبي. ذلك أن الاستقلالية على الصعيد الاقتصادي الكلي تظل تحتل موقعا مركزيا ضمن الشواغل البريطانية فيما يتعلق بالسيادة، ومن المرجح أنها ستمثل العامل الحاسم في إنجاز بريطانيا، أو رجوعها عن، عضويتها في الاتحاد الأوروبي، حتى لو كانت القضايا الاقتصادية الجزئية قد حظيت بنصيب من الاهتمام أخيراً، سواء في ذلك قضية «مرض جنون البقر»، والتي بلغ فيها الحديث المناهض للأوربة ذروته، أو قرار محكمة العدل الأوروبية بوجوب التزام بريطانيا بالقانون المتعلق بعدد ساعات العمل الأسبوعية ومقدارها 48 ساعة، والذي أثار أيضا احتجاجات صاخبة.

إن مصدر الخطورة بالنسبة لبريطانيا هو أنه في الوقت الذي تتصاعد فيه نبرة الحديث المناهض للأوربة، فإن الخطاب العقلاني الذي دأب على وضع التكامل الأوروبي داخل إطار رؤية الليبرالية الجديدة لمستقبل بريطانيا - بوصفها جزءاً من

أوروبا وعالم ترسم الليبرالية الجديدة ملامحهما – كاد أن ينسى، لا من جانب النخبة وبوجه خاص النخبة المالية والتجارية، والتي تعي جيدا الأهمية الحيوية لتواصل التكامل بالنسبة للتنافسية الكونية للبلاد، بل من قبل الجمهور العام لمواطني البلاد، مما يجعل الأمر أكثر عرضة للتضليل الديماجوجي. ولقد وجدت حكومة ميجور أنه سيكون مناسبا أكثر الإشارة إلى مخاطر الأوربة من دون ذكر مزاياها الأخرى، سواء في كسب رضا المتحفظين بشأن الأوربة في البرلمان للاحتفاظ بولائهم أو بالنسبة للـ «يوروقراطيين» في بروكسل للحصول على أفضل صفقة ممكنة. ونتيجة لذلك فقد بدا الخضوع الحكومي الكامل لإلزامات الاتحاد الأوروبي بالنسبة للجمهور العام، وعلى نحو متزايد، شيئا لا تفسير له سوى الاستسلام لقوى خارجية. وبعبارة أخرى فإن الرسالة التي تبقى في أذهان السكان تتسم بسلبية متزايدة فيما يتعلق بالأوربة. وذلك ما يكفل، جنبا إلى جنب مع المبالغات المستمرة لـ «فليت ستريت»* بمانشيتاتها المخادعة التي ترحب بحظر الاتحاد الأوروبي للموز المقوس وزجاجات الجن المربعة – أن يتساءل قسم متزايد من الجمهور البريطاني ما إذا كان الانضواء تحت راية الاتحاد الأوروبي منطويا على أية فائدة على الإطلاق.

وعلى ذلك فلا مناص أمام أية حكومة جديدة من تجديد الخطاب السياسي القومي، معيدة إنتاج رؤية مختلفة للكيفية التي ستكون عليها، أو يجب أن تكون عليها، بريطانيا المأوربة والمعولمة والتي ستوفر الدواعي اللازمة للدخول، أو عدم الدخول، في الاتحاد النقدي الأوروبي. لقد ظلت حكومة المحافظين وبصورة متزايدة أسيرة للرافضين للأوربة، مما جعل مثل هذا التجديد في الخطاب غير مرجح، وكان من المؤكد أن يستمر هذا الموقف المتضارب تجاه الاتحاد الأوروبي لو أنه تم إعادة انتخابها، بما يمكن أن يترتب عليه ذلك من نتائج وخيمة مع اقتراب موعد اتخاذ القرار بشأن الاتحاد النقدي الأوروبي. وفضلا عن ذلك فإن ليبراليتها الجديدة فقدت بريقها وبدأ الناس يتساءلون هل المقصود بأن إنتاجية القطاع العام أقل من إنتاجية القطاع الخاص أن تتأخر القطارات عن مواعيدها وأن لا تتوافر أسرّة في المستشفيات عندما يحتاجون إليها. على أن تجديد الخطاب القومي بالنسبة لحكومة العمال المنتخبة حديثا – والتي جددت خطابها الحزبي الخاص في السنوات الأخيرة من خلال نبذ التأميم و«الاشتراكية» لصالح الليبرالية الجديدة ذات وجه أكثر إنسانية، والتي اتبعت توجها أكثر تأييدا للأوربة مقارنة بالمحافظين – هو أكثر ترجيحا. غير أن الأمر لن يكون سهلا، في ضوء حاجة حزب العمال إلى إقناع جماهير ناخبيه المحتمل انقسامها إلى موقفين متعارضين. ففي حين يرجح أن يوافق المؤيدون المحافظون الجدد لـ «حزب العمال الجديد» دون أن يوافقوا على الفصل الاجتماعي لماستريخت، فإن من المؤكد أن يرحب مؤيدوه الأقدم بالفصل الاجتماعي مع احتمال معارضة الاتحاد النقدي إذا ما نظر إليه على أنه يستلزم

* شارع الصحافة في وسط العاصمة لندن.

تضحيات بريطانية أكبر من زاوية التقشف المالي والتخفيضات الاقتصادية الاجتماعية، وكما كانت الحال في بلدان القارة. وبعبارة أخرى يمكن القول إنه سيتعين على حزب العمال الجديد الآن، وقد جدد خطابه الحزبي من أجل كسب الانتخابات مع ترك التفاصيل فيما يتعلق بسياساته الأوروبية غير محددة المعالم، أن يجدد الخطاب القومي في الوقت الذي يقرر فيه ما إذا كان سيجعل بريطانيا جزءاً كامل الانتماء من أوروبا المتكاملة أم لا.

فإذا ما كان الخيار لصالح أوروبا، فسوف يعتمد الخطاب المجدد من أجل نجاحه على قدرته على التوفيق بين المزيد من فقدان السيادة القومية - وخصوصاً على صعيد الاقتصاد الكلي - والفوائد الأكبر للمشاركة الكاملة في كل جوانب الاتحاد الأوروبي، بما في ذلك التأثير البريطاني الأكبر في القضايا الاستراتيجية الرئيسية على المستوى الأوروبي.

ألمانيا: خطاب في حاجة إلى إعادة تشكيل

نجحت الحكومات الألمانية أيضا في تعزيز خطاب قومي متماسك يطرح رؤية مقنعة لألمانيا مستكنة بأمان داخل أوروبا متكاملة وعالم معولم. غير أن هذه الرؤية ظلت محصورة داخل إطار الخطاب الاشتراكي الديمقراطي الليبرالي للفترة التالية للحرب والذي تدنى أداؤه بصورة متزايدة نتيجة للمشكلات الاقتصادية المرتبطة بتوحيد ألمانيا والضغوط المتنامية الناجمة عن العولمة. لقد كان من السهل بالنسبة للحكومات الألمانية، مادام الاقتصاد الألماني مزدهرا وألمانيا ناجحة في السيطرة على السياسات الاقتصادية الكلية لأوروبا وفي إرجاء تعديل السياسات الاقتصادية الجزئية القومية، كان من السهل نسبيا بالنسبة لها التوفيق بين موقفها المؤيد للأوربة والعولمة وخطاب اشتراكي ديمقراطي مشرب بأفكار ومفاهيم السوق الليبرالية والذي أسهم في تسويغ مفهوم اقتصاد «السوق الاشتراكية». لكنهم يجدون الآن - وقد أصبحوا يواجهون فقدان القدرة في الميدان الاقتصادي الاجتماعي، والتحرير التنظيمي المتزايد في الميدان الاقتصادي الجزئي، وصعوبات عدة في تلبية المعايير الصارمة لماستريخت والتي أصروا عليها هم أنفسهم - صعوبة أكبر في الحفاظ على خطاب اشتراكي ديمقراطي يبدو مناقضا أكثر فأكثر للسياسات الليبرالية الجديدة التي تعززها الأوربة والعولمة. على أن ذلك يعد ظاهرة حديثة، ومازال الوقت مبكرا لتحديد ما إذا كان بإمكان النخب الحكومية إعادة تشكيل الخطاب ليتناغم مع الحقائق المتغيرة أم أنه سيتعين عليها، مثلما هي الحال بالنسبة لفرنسا، البحث عن خطاب جديد.

ولقد ارتبط نجاح الخطاب في ألمانيا حتى وقت قريب بواقع أن المواطنين الألمان، وخلافا للفرنسيين، أفادوا لا من المساحة الأوسع المتاحة للحوار فحسب - كما هي الحال بالنسبة للبريطانيين - بل أفادوا أيضا من كل جوانب التكامل الأوروبي. والواقع أن ميل المواطنين الألمان إلى توسيع إمكانية وصولهم لدائرة وضع السياسات لا يرجع فحسب إلى طبيعة النظام الفيدرالي التي تكفل لسلطات الأقاليم دورا فاعلا

في مجال صنع القرار على الصعيد فوق القومي، بل يرجع أيضا إلى عملية التشاور الاجتماعي، التي تكفل قدرا أكبر من وصول المواطنين المنظمين في نقابات واتحادات، لدائرة صنع القرار فوق القومي كطرف مساو للإدارة والحكومة (رغم أن جماعات أخرى ربما شعرت بأنها لاتزال بعيدة عن هذه الدائرة، ومنها على سبيل المثال المستهلكين، والنساء، والمهاجرين، والعاطلين عن العمل). على أن النقد الموجة للاتحاد الأوروبي أو الاتحاد النقدي الأوروبي كانت مساحته أضيق، رغم ذلك كله، في ألمانيا عنها في فرنسا، على الرغم من أن هناك «تابو» أقل، بالنظر إلى أن أغلب الألمان شعروا بأن البلاد كان لها قدر ملموس من السيطرة على عملية لم يترتب عليها حتى الآن سوى نتائج اقتصادية ومؤسسية محدودة. وقبل يونيو 1997 والتداعيات السلبية الناجمة عن الانتخابات الفرنسية ومحاولة وزير المالية ثيو فايجل استخدام إعادة تقييم احتياطيات الذهب لمساعدة ألمانيا على مواجهة تلبية معايير معاهدة ماستريخت، لم يكن هناك سوى سياسي بارز واحد – وإن كان زعيم المعارضة والمتحدي الأبرز لكوك في الانتخابات القادمة* – امتلك الجرأة اللازمة لوضع الاتحاد النقدي الأوروبي موضع التساؤل.

على أن نوعا من التابو يفرض نفسه في الواقع فيما يتعلق بالتوحيد** عندما يتعلق الأمر بإلقاء تبعة الإجراءات التقشفية الضرورية والتعديلات الاقتصادية. فعلى الرغم من التسليم الضمني بتأثير التوحيد على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الألمانية إلا أن أحدا من بين السياسيين الكبار ليس مستعدا للتساؤل بصورة علنية عما إذا كانت تلك الأخطاء قد ارتكبت في عملية التوحيد، وخصوصا فيما يتعلق بسعر صرف المارك. ومن الواضح أنه ليست هناك أرضية وسط ما بين القبول بالتوحيد دون مساءلة ومعارضته صراحة، في ضوء واقع أن هذه الأخيرة أمر غير قابل للتصور بالنسبة لأي أحد اللهم فيما عدا الشيوعيين السابقين الذين بقوا على مواقفهم أو اليمين الموغل في التطرف. فقد ثار جدل، على سبيل المثال، بشأن من يتعين عليه تحمل التكاليف واضطرت الحكومة الفيدرالية إلى تحمل العبء الأكبر استجابة لاحتجاج بعض حكومات الأقاليم حول قضايا التضامن المالي (أي التشارك في العائدات بين الولايات الأغنى والولايات الأفقر)، كما أثيرت مخاوف بشأن المعدلات العالية للبطالة والتكاليف الاجتماعية الباهظة في الشرق الألماني.. غير أن أحدا لم يمض إلى الخطوة التالية ويلقي بتبعة الأزمة الاقتصادية الراهنة على التوحيد. وبدلا من ذلك، تركزت كل المناقشات حول المشكلات التي تواجه ألمانيا اليوم على العولمة. غير أن ذلك لا يعني القول إن الموقف التقليدي المؤيد للعولمة قد تحول إلى موقف مناهض، وإنما يعني فقط أن موضوع العولمة يتم استخدامه الآن في ألمانيا على النحو نفسه الذي استخدم به موضوع الأوربة في فرنسا، أي بوصفه حافزا إلى التغير ومسوغا له.

* كتب هذا المقال قبل الانتخابات الأخيرة في ألمانيا، والتي فاز فيها شرويدر على كول.

** أي توحيد شطري ألمانيا.

ومن خلال استخدام قضية العولمة كسبب للتغيير، نجحت ألمانيا في تفادي بعض أسوأ المشكلات التي واجهت فرنسا، بحديثها المناصر للأوربة، ومشكلات بريطانيا، بحديثها المناهض للأوربة، بالنظر إلى أن كلا الحديثين يعرض للخطر التزام بلاده بالمزيد من التكامل. ويتمثل الخطر في حالة ألمانيا في أن العولمة قد لا تكفي وحدها لإقناع الجمهور العام بالحاجة إلى إجراءات التقشف الليبرالية الجديدة وفي أنها قد يُنظر إليها أكثر على أنها خطر خارجي تتعين مقاومته وليس مجموعة من القوى - قوى داخلية مرتبطة بالتوحيد والديمغرافية المتغيرة وقوى خارجية مرتبطة بالأوربة أيضا - تستلزم إصلاح الأمن الاجتماعي ونظام الوظائف إذا ما أرادت البلاد أن تظل قادرة على المنافسة.

على أن نيل القبول العام بتلك الإصلاحات ليس بالأمر السهل، بالنظر إلى أنه يتطلب إعادة تشكيل الخطاب. ذلك أن خطاب فترة «ما بعد الحرب»، الاشتراكي الديمقراطي الليبرالي كما يتبدى، الآن لا يمكنه الإسهام في تسويغ تغيرات تؤكد على الليبرالي على حساب الاشتراكي في اقتصاد السوق الاشتراكي. كما أنه في حالة ألمانيا، حيث لا يمكن تأسيس الخطاب من القمة إلى القاعدة، كما تبدو عليه الحال أحيانا في فرنسا، فإن أي تغيير يتطلب موافقة إجماعية من كل الأطراف الرئيسية. وقد حدث هذا بالفعل في صفوف السياسيين الأكثر تأثيرا، وبمستوى مدهش من التطابق في التحليل عبر مختلف ألوان الطيف السياسي. فأعضاء أحزاب المعارضة وأيضا أعضاء ائتلاف الأغلبية يقولون جميعا الشيء نفسه فيما يتعلق بالحاجة لإصلاح نظام المعاشات والضرائب، على الرغم من أنهم يختلفون إلى حد ما حول تفاصيل الإصلاح. على أن مثل هذا النوع من الإجماع أصبح صفقة أكثر إجهادا بالنسبة للشركاء الاجتماعيين.

لقد ذهب عالم الأعمال في ألمانيا إلى مدى أبعد كثيرا، في أغلب الحالات، من أغلب السياسيين فيما يتعلق بتقبل الحاجة إلى الإصلاح، وشارك بالفعل بقدر أكبر في التهيئة للتوجه الليبرالي الجديد من أي تيار سياسي باستثناء أعضاء حزب واحد صغير هو الحزب الديمقراطي الحر. لقد كان أصحاب العمل أكثر رغبة في الدفع من أجل تغييرات بدا أنها تتعارض مع الترتيبات التقليدية، سواء فيما يتعلق بالعلاقات بين العمال والإدارة، حيث أيد كثيرون القانون الذي يخفض معاش الإجازة المرضية ليتراجعوا عن تأييدهم بعد رد الفعل القوي من قبل النقابات، أو في مجال العلاقات داخل عالم الأعمال، حيث شن البعض هجمات استيلاء شرائي (شراء شركة كروب لشركة تيسين في مارس 1997 على سبيل المثال) خضوعا فحسب للضغوط السياسية من أجل الاندماج بدلا من ذلك. بل إن بعض أصحاب العمل تركوا اتحاداتهم، غضباً من الإلحاح على عمليات المساومة على الأجور على اتساع القطاع والتي تنتهي بصفقات بالغة الكرم (في رأيهم).

وكان رد فعل العمال الألمان هو المشاركة في أنشطة الوظائف وفي الإضرابات في الوقت الذي وافقوا فيه على عدد معين من التنازلات، مع تركيز

الاهتمام على الوظائف بدلا من الأجور الأعلى. وعلى الرغم من أن المساومة أصبحت الآن أكثر صراعية، فإنها تظل تؤدي إلى تسويات وسطية تترك كلا من الطرفين راضيا بدرجة أكثر أو أقل. ولقد مثل الجدل حول معاش الإجازة المرضية مثالا نموذجيا: فالنقابات والسياسيون الديمقراطيون الاشتراكيون نسبوا لأنفسهم نصراً رمزيا، من حيث إن أحداً من أصحاب العمل لم يستخدم في النهاية القانون في عملية المساومة الجماعية. لكن ما إن تراجعت «ديلمر بنز» في مواجهة الإضرابات حتى اعتبر أصحاب العمل والسياسيون الليبراليون الديمقراطيون التعديل الذي تم نجاحا من حيث إن أغلب الشركات قد أعادت حساب المعادلة فيما يتعلق بمعاش الإجازة المرضية بحيث أصبح العمال الآن يحصلون على ما يزيد على 80 في المئة مما كان يحصلون عليه قبل ذلك من خلال حصولهم على 100 في المئة من الراتب الأساسي، ودون احتساب الأجر الإضافي.

ويشير ذلك إلى أن الضغط النيوليبرالي الأكبر الذي حشده أصحاب العمل قد مثل حتى الآن وسيلة مثمرة لتخطي المأزق، مهيئا السبيل أمامهم لدفع الدولة التنافسية قدما تماما، مثلما ساعدت المخاطر الاشتراكية للعمل في الماضي على تعزيز دولة الرفاه. والواقع أن العديد من الناس ينظرون إلى الليبرالية الجديدة بوصفها أداة مفيدة لا فيما يتعلق بتقويض مجموعة العلاقات التشاركية وإنما بالأحرى في دفع ألمانيا قدما باتجاه مجموعة جديدة أكثر اتساما بالليبرالية الجديدة وإن ظلت تشاركية مع ذلك - أو بعبارة أخرى بوصفها نداء تحذيريا بأنه إذا لم يحدث التغيير من الداخل، فسوف يفرض من الخارج وعندها لن يكون بالإمكان إدارته إجماعيا في الحدود ذاتها. ويتمثل الخطر الوحيد هنا في أنه مع تزايد تفاقم حالة المواجهة بين الإدارة والعمل، فإن الخلافات التي تم حلها بنجاح حتى الآن عبر التسوية سوف تعجل في المرة القادمة بحدوث تصدع في الإجماع تتلوه فترة مطولة من الاضطراب العمالي. غير أنه حتى لو لم يحدث ذلك، فإن المعدل العالي للبطالة يظل مصدراً للقلق، بالنظر إلى أن الاتفاق الجماعي بين أصحاب العمل والعمال، والذي يحافظ على الثبات التقريبي للأجور والإعانات بالنسبة لأصحاب الوظائف، يخلّف عددا كبيرا من الناس خارج نطاق العمل، وبأمل ضعيف في العودة إليه. وتلك هي المنطقة التي يصبح فيها القلق أوسع نطاقا ويتحول خطر نمو التطرف اليميني إلى حقيقة واقعة.

وعلى ذلك فإن المشكلة مزدوجة بالنسبة لألمانيا. فمن ناحية، هل يستمر الاتفاق الجماعي؟ الواقع أن ذلك ليس بالقضية الخطيرة بالنسبة لأغلب السياسيين الألمان. فهم يصرون على أن الشراكة الاجتماعية الألمانية والأسلوب الجماعي لعملية صنع القرار - وأيا كانت المشكلات والقلق الراهن - سوف يستمران، وذلك لأن كل شيء - المؤسسات والقوانين والثقافة، والسياسة - يتضافر لجعل الأمر كذلك(21). ومن جهة ثانية لو أن الاتفاق الجماعي استمر، فهل سيمكّن البلاد من إنجاز التعديلات الاقتصادية الضرورية بالسرعة الكافية، أم أن الحفاظ على الشراكة الاجتماعية سيعني مجرد إدارة الانحدار جماعيا؟ إن أغلب

السياسيين الكبار يتفقون على أن ذلك أمر منطو على الخطر غير أنهم واثقون مع ذلك من أن البلاد ستكون قادرة على الاستجابة في الوقت المناسب، كابحة الهبوط في الاستثمار والابتكار مع زيادة الإنتاجية ومرونة الأجور. على أن البلاد تحتاج، من أجل تحقيق ذلك، لا إلى تعويض تأخرها في إنجاز التعديل الاقتصادي والتكييف المؤسسي بل هي في حاجة أيضا إلى إعادة تشكيل الخطاب من أجل تسويغ التحول الليبرالي الأبعد في الاقتصاد والمؤسسات، والذي يؤكد على الليبرالي ويهمش الاشتراكي في خطابها الاشتراكي الديمقراطي الليبرالي. ولن يكون أيّ من ذلك سهلا.

خلاصة

من بين الدول الثلاث الأكبر في الاتحاد الأوروبي، تعد فرنسا الدولة الأكثر تعديلا لاقتصادها، بانتقالها من اقتصاد موجه إلى حد كبير من قبل الدولة إلى اقتصاد أكثر اعتماداً على السوق، وحماسها للتكامل الأوروبي بوصفه إطار حماية في مواجهة قوى العولمة. أما ألمانيا وبريطانيا فقد أنجزتا تعديلا اقتصاديا محدودا - مقارنة بفرنسا - في استجابتهما لمقتضيات التكامل: فألمانيا استطاعت أن تتقبل كلا من العولمة والأوربة من دون الحاجات نفسها فيما يتعلق بالحماية، لكون اقتصادها هو الذي قاد أوروبا والعالم حتى فترة قريبة، في حين فضلت بريطانيا العولمة على الأوربة كإطار حماية، ومن ثم فقد حجّمت التزامها لمقتضيات وضرورات التكامل الأوروبي سواء على الصعيد الاقتصادي الكلي أو الجزئي، على الرغم من أنها أنجزت مع ذلك تغييرات أكبر مقارنة بألمانيا نتيجة لإصلاحات «اللبرلة» * المرتبطة بدوافع قومية.

كذلك كانت فرنسا الدولة التي شهدت التكييف المؤسسي الأعمق تأثيرا، مقارنة بألمانيا وبريطانيا، وتعرضت بنيتها وحدوية الطابع للضعف بفعل الخسارة الحاصلة على صعيد سلطتها التنفيذية والتشريعية والمكسب الناتج فيما يتعلق بالاستقلال القضائي والسلطات المحلية، وضعفت فاعلية عملية صنع القرار الدولتية فيها نتيجة لتضاؤل الاستقلالية الحكومية في الصياغة وتضاؤل المرونة في التنفيذ، وتضرر نفوذها في عملية صنع القرار على مستوى الاتحاد الأوروبي نتيجة لطابع ثقافتها الأكثر صراعية. ومرة أخرى يمكن القول إن ألمانيا وبريطانيا شهدتا بالمقارنة درجة أقل من التكييف المؤسسي المتطلب أوروبيا. فالبنية الفيدرالية لألمانيا تميزت دائما بسلطة تنفيذية ضعيفة، وسلطة تشريعية قوية، وسلطة قضائية وسلطات أقاليمية مستقلة، ولم تتسم عملية صنع القرار التشاركية فيها في أي وقت سابق بقدر أكبر من الاستقلالية الحكومية كما احتفظت بالقدر الأكبر من مرونتها، كذلك تناغمت ثقافتها الإجماعية فيما يتعلق بعملية صنع القرار بدرجة أكبر مع نظيرتها الأوروبية.

أما بريطانيا فقد كانت بنيتها الوحدوية أضعف دائما مقارنة بالبنية الفرنسية وذلك نتيجة لوجود سلطة تنفيذية أكثر محدودية، وسلطة تشريعية أقوى، وسلطة قضائية أكثر استقلالية، وتميزت

* Libralizing Reforms

عملية صنع القرار الدولتية فيها بدرجة أقل من الاستقلالية الحكومية ومن ثم فقد خسرت أقل في هذا الصدد، على الرغم من فقدانها قدرا مساويا فيما يتعلق بالمرونة الإدارية، غير أن ثقافتها الصراعية فيما يتعلق بصنع القرار تحقق درجة إجماع أكبر مقارنة بفرنسا.

وأخيرا يمكن القول إن فرنسا تواجه الصعوبة الفكرية الأكبر في ضوء إخفاقها منذ أواسط الثمانينيات في تطوير خطاب متماسك يتجاوز حدود حديثها المناصر للأوربة، المناهض للعولمة لكي يبلور رؤية موثوقة لفرنسا حديثة في إطار أوروبا والعالم. وهنا أيضا، تواجه كل من ألمانيا وبريطانيا مشكلات أقل فيما يتعلق ببناء الخطاب. أما ألمانيا فنتيجة لأن خطابها «الديمقراطي الاشتراكي» الليبرالي لفترة ما بعد الحرب، والذي ظل مناصراً للأوربة وللعولمة في آن، واصل البقاء دون تغير يذكر حتى ظهور التوترات الحالية الناجمة عن التوحيد والعولمة، وأما بريطانيا فنتيجة لأن خطابها التاتشري الليبرالي الجديد، والذي كان مؤيدا للعولمة من حيث الموقف الفكري وللأوربة من حيث الكلام المعلن، قد نجح حتى الآن في بلورة رؤية موثوقة لبريطانيا داخل وخارج إطار أوروبا من ناحية وفي إطار العالم بصورة كلية من ناحية أخرى.

وفي حالة فرنسا، عجل الإصلاح الناجح في اقتصادها ومؤسساتها، والذي واكبه غياب خطاب موثوق قادر على التوفيق بين التزامها بالتضامن الاجتماعي وإصلاحاتها الليبرالية الجديدة، عجل بالفعل بظهور أزمات. وعلى الرغم من أن ألمانيا وبريطانيا كانتا أكثر نجاحا في الحفاظ على خطاب متماسك في مواجهة التكامل الأوروبي، فإن كلا منهما ستواجه مشكلات في السنوات المقبلة في ضوء الضغوط المتواصلة على الاقتصاد والمؤسسات. وتواجه بريطانيا بالفعل الآن صعوبة أكبر، في مواجهة قرارات تتعلق بتعميق التزامها تجاه الاتحاد الأوروبي بوجه خاص، في إقامة موازنة ناجحة بين موقفها المؤيد للعولمة وحديثها المؤيد للأوربة. أما ألمانيا فإنها تواجه الآن، وحيث لم تعد قادرة على إرجاء أو تجنب التعديلات الاقتصادية الليبرالية الجديدة في ضوء الضغوط الناجمة عن التوحيد والعولمة أو على مواءمة التكييف المؤسسي داخل حدود نظامها الإجماعي لفترة ما بعد الحرب، تواجه مشكلات فيما يتعلق بخطابها التقليدي في مواجهة الإصلاح الاقتصادي الليبرالي الجديد وتقليص نطاق دولة الرفاه.

وعلى ذلك فإن كلا من التعديل الاقتصادي والتكييف المؤسسي لا يعد كافيا لكفالة تقدم مسيرة التكامل الأوروبي. وهناك ضرورة بالمثل لعملية لإعادة بناء مفاهيمية. وهو ما يعني، بالنسبة لألمانيا، إعادة تشكيل الخطاب «الاشتراكي الديمقراطي» الليبرالي بحيث يعكس مزيداً من التأكيد الليبرالي، أما فيما يتعلق ببريطانيا فسوف يستلزم ذلك تجديد خطابها الليبرالي الجديد بحيث يعكس التزاماتها الجديدة، وأخيرا سيتطلب ذلك بالنسبة لفرنسا، بلورة خطاب جديد يناغم ويوائم بين التزاماتها المتعارضة.

الهوامش

[1]See Vivien A. Schmidt, "The New World Order, Incorporated: The Rise of Business and the Decline of the Nation-State," *Dædalus* 124 (2) (Spring 1995): 75–106.

[2]See Vivien Schmidt, *From State to Market? The Transformation of French Business and Government* (New York: Cambridge University Press, 1996).

[3]See Kathleen R. McNamara, "Consensus and Constraint: The Politics of Monetary Cooperation in Europe," Ph.D. dissertation, Columbia University, 1995, chap. 6.

[4]Josef Esser, "Germany: The Old Policy Style," in Jack Hayward, ed., *Industrial Enterprise and European Integration: From National to International Champions in Western Europe* (Oxford: Oxford University Press, 1995).

[5]Wynn Grant, "Great Britain: The Spectator State," in Hayward, ed., *Industrial Enterprise and European Integration.*

[6]On multi-level governance, see Gary Marks, Liesbeth Hooghe, and Kermit Blank, "European Integration since the 1980s: State-Centric versus Multi-Level Governance," *Journal of Common Market Studies* 34 (3) (1996); on governance networks, see Beate Kohler-Koch, "Catching up with Change: The Transformation of Governance in the European Union," *Journal of European Public Policy* 3 (3) (September 1996).

[7]See Vivien Schmidt, "European Integration and Democracy: The Differences among Member States," *Journal of European Public Policy* 4 (1) (March 1997).

[8]See Georges Burdeau, *L'Etat* (Paris: Seuil, 1970); Kenneth J. F. Dyson, *The State Tradition in Western Europe* (New York: Oxford University Press, 1980); and the discussion in Schmidt, *From State to Market?*, 20–21, 337.

[9]See Alec Stone, *The Birth of Judicial Politics: The Constitutional Council in Comparative Perspective* (New York: Oxford University Press, 1992).

[10]See Robert Ladrech, "Europeanization of Domestic Politics and Institutions: The Case of France," *Journal of Common Market Studies* 32 (1) (March 1994).

[11]See Vivien A. Schmidt, *Democratizing France: The Political and Administrative History of Decentralization* (New York: Cambridge University Press, 1990).

[12] Vivien A. Schmidt, "Loosening the Ties that Bind: The Impact of European Integration on French Government and its Relationship to Business," *Journal of Common Market Studies* 34 (2) (June 1996).

[13] See Dyson, *State Tradition.*

[14] Wolfgang Streeck, "Public Power beyond the Nation-State: The Case of the European Community," in Robert Boyer and Daniel Drache, eds., *States against Markets: The Limits of Globalization* (London and New York: Routledge, 1996), 311–313.

[15] See James G. March and Johan P. Olsen, *Democratic Governance* (New York: Free Press, 1995), 82–83.

[16] For the progressive change in socialist plans and rhetoric from the 1970s to the early 1980s, see Schmidt, *From State to Market?*, 96–106.

[17] See Emmanuel Godin, "Le Néo-Libéralisme à la Française: Une Exception?" *Modern and Contemporary France* NS4 (1) (1996).

[18] See Vivien A. Schmidt, "Economic Policy, Political Discourse, and Democracy in France," *French Politics and Society* 15 (2) (Spring 1997).

[19] Ibid. For an excellent set of discussions of the strikes, see "The 1995 Strikes—Something New or Déjà Vu?" *French Politics and Society* 14 (1) (Winter 1996).

[20] Fiona Hayes-Renshaw and Helen Wallace, "Executive Power in the European Union: The Functions and Limits of the Council of Ministers," *Journal of European Public Policy* 2 (1995).

[21] The general view in interviews with the author of over a dozen top German politicians in January-February 1997.

لعبة الروليت الكونية

هل يمكن أن يخسر الجميع في اقتصاد عالمي متقلب ؟

ترجمة : د. دانيال عبد الله

حينما تعثرت في الفترة الأخيرة الاقتصادات الآسيوية وانهارت فجأة، ازداد الطلب على المتنبئين بالمصير المحتوم بالسرعة نفسها التي ارتفعت بها أسعار الشقق السكنية في هونج كونج. وسرعان ما لجأ المتكهنون سواء كانوا من السماسرة المحللين أم من رجال السياسة إلى ترديد بعض الكلمات السحرية مثل «الثقة»، «النمو» و «فرص الشراء». وهكذا أبقي على مذبحة أسواق النقد والأوراق المالية في مواقعها النائية بعيدة عن الأنظار. وظلت سوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة على تفاؤلها بل وأسهمت في تقوية ودعم هذا التفاعل عندما تجاوز مؤشر داوجونز للأسهم الصناعية 9100 نقطة في أبريل الماضي، واستقرت أسعار الفائدة، وأعلن عن توازن الموازنة الفيدرالية، كما ظل الملياردير الأمريكي بيل جيتس يملك من الثروة ما يزيد على كل ما يملكه 100 مليون أمريكي من الفقراء. كان كل شيء في الولايات المتحدة على ما يرام.

العنوان الأصلي للمقال:

Global Roulette ونشر في مجلة: Harper's Magazine عدد يونيو 1998

ووسط استغراب الأزمة الآسيوية والتساؤلات حول دلالاتها وما إذا كان قد تم تجاوزها أم لا، قامت هاربر مجازين Harper Magazine بدعوة ثلاثة من المراقبين المختصين وهم : تاجر سابق في العملة، وعميد مدرسة إدارة أعمال، وأحد كبار المتشككين لإجراء حوار حول الأزمة.

جرى الحوار في فندق سافوي بمنهاتن وتولى تيد.س فيشمان Ted C. Fishman رئاسة الجلسة. وكان المتحاورون الثلاثة هم :

● تيد.س. فيشمان وهو سمسار سابق وتاجر عملة له كتابات متعددة في المسائل المالية. وكان آخر مقال له في مجلة هاربر بعنوان «مباهج الاستثمارات الدولية» "The Joys of Global Investments" عدد فبراير 1997.

● جيفري. إ. جارتن Geffrey E.Garten – عميد مدرسة ييل للإدارة Yale School of Management ومؤلف «العشرة الكبار : الأسواق الكبيرة البازغة وكيف تسهم في تغيير حياتنا» "The Big Ten : The Big Emerging Markets and How They Will Change Our Lives"

وقد عمل جارتن وكيلا لوزارة التجارة قسم التجارة الدولية كما أمضى ثلاثة عشر عاما في العمل في وول ستريت.

● وليم جريدر William Greider وهو رئيس تحرير مجلة رولينج ستون Rolling Stone وله كتب منشورة في الاقتصاد والسياسة :

– «عالم واحد مستعدون أم لا : One World, Ready of Not» «المنطق السحري للرأسمالية الكونية» – The Magic Logic of Global Capitalislm.

– ومن سيخبر الشعب : «خيانة الديمقراطية الأمريكية».

"Who Will Tell The People : The Betroyal of American Democracy"

– أسرار المعبد : كيف يدير الاحتياطي النقدي البلاد "The Secrets of The Temple : How The Federal Reserve Runs The Country"

أزمة ماضٍ أم أزمة مستقبل

تيد.س فيشمان : بعد انهيار آسيا لم يتحقق ما كان يخشاه الناس من انفراط عقد الأسواق المالية واقتصرت معظم الأضرار على كل من هونج كونج، تايلاند، أندونيسيا وكوريا الجنوبية. وتعرضت الأسعار في الولايات المتحدة لانخفاض حاد ولكن سرعان ما استردت الأسواق عافيتها، ورغم ذلك فثمة أشياء لا تزال تجري. فقد أصبحت اليابان في ورطة عميقة وصار الروبل الروسي مهددا بالانخفاض. ويتواتر الحديث في الصحف عن الكساد والانكماش. وتسعى الأوبك جاهدة للمحافظة على أسعار النفط، بينما استمرت أسعار المواد الأولية الأخرى في الانخفاض، واستقر سعر الفائدة قصيرة الأجل في البرازيل عند 28 في المئة. وظهر أن صندوق النقد الدولي في حاجة إلى جمع 18 مليار دولار من دافعي الضرائب لإنقاذ البلدان الآسيوية من أزمتها. فماذا يحدث ؟ وهل هناك ثمة صلة بين كل هذه الأشياء؟.

وما الذي أصاب أجراس الإنذار ؟. وهل أمكن تجاوز الأزمة ؟.

جيفري إجارتين : ينبغي أن ننطلق في التفكير من البعد التاريخي. فنحن نتحرك نحو اقتصاد كوني حقيقي لا توجد فيه علاقات خطية أو مباشرة. وما يحدث في جزء من العالم يؤثر في كل شيء وإن كان ليس بالطريقة نفسها التي نتوقعها لأن الصلات قد أصبحت أكبر من أن يحاط بها، وعندما يتحول الاقتصاد الآسيوي من معدلات النمو «السوبر» إلى الركود كما هي الحال في أندونيسيا وتايلاند وكوريا الجنوبية واليابان، فمن المؤكد أن نتأثر نحن أيضا في الغرب لأن 30 في المئة من كل صادراتنا يتجه إلى آسيا، كما أن ربع نمونا الاقتصادي يتحقق من التصدير، ولكننا لا نعرف بالتحديد كيف سنتأثر ومتى ؟ فالنظر إلى الاقتصاد في فراغ يعني الفشل في الوصول إلى الحقيقة، فالمسألة ليست مسألة أرقام أو أسعار ومعدلات صرف بل هي في حقيقتها مسألة حيوية وطبيعة المجتمعات التي تمر بالتحولات الصاخبة.

وليم جريدر : نحن في غمار ثورة صناعية تشبه إلى حد كبير الثورة السابقة التي مرت بنا في ثمانينيات القرن التاسع عشر. كما تشبه في بعض جوانبها الثورة الصناعية الإنجليزية التي وقعت قبلها بمئة عام. وما نملكه من نماذج اقتصادية عامة لا يخبرنا بما قد يحدث بعد ذلك لأن ما يدفع الاقتصادات والناس والمشروعات الآن هي دوافع وحوافز مختلفة عما مضى. كانت بداية هذه الثورة كما نعرف هو اكتشاف رقائق أشباه الموصلات وامتلاك القدرة على حفظ كم هائل من المعلومات في مساحة ضئيلة. كانت فترة ثمانينيات القرن التاسع عشر رغم ما يكتنفها من غموض في أذهاننا فترة تغير تكنولوجي. ففي هذه الفترة عرف الإنتاج الضخم في كل شيء من السيارات حتى الهواتف، كما عرفت هذه الفترة انهيارات مؤقتة، وأزمات، وحالات ذعر، وكساد، ووقع الناس وبصفة خاصة الفلاحون بين المطرقة والسندان وأخيرا وفي عام 1929 تلقوا الضربة الساحقة وواجهوا الانهيار المخيف.

وبالنسبة للأزمة الآسيوية فإنني أشعر وكأن السماء تسقط غير أنني لا أعتقد أن كل شيء سيتلاشى ويستنفد. كما أننا لا نعرف إلى أي حد ستمتد هذه الأزمة، فكما قال جيف لا تزال موجات الصدمة السلبية تتحرك في خفية وهي موجودة في أذهان المستثمرين وفي دفاتر أوامر المديرين وهم يتنادون بضرورة إغلاق بعض المصانع حتى لا ينتهوا إلى تراكم مخزون سلعي ضخم بالمخازن.

وما أريد قوله هو إن هذه الأزمة ليست أزمة آسيوية فحسب بل هي أزمة عالمية كونية، هي نتاج تفاعل المال والإنتاج عبر حدود كل من الدول الغنية والفقيرة على السواء. وهي ثورة أمريكية، هي اقتصادنا المعولم الذي سبق لنا تحديد معالمه وتقديمه للعالم. فحتى ستة شهور مضت كان يقال لنا على لسان رجال أعمالنا وسياستنا إن أحدا لا يستطيع أن يعطي ظهره للعولمة لأن رخاءنا في المستقبل يتوقف عليها. ولكن ما أن انفجرت البلدان الآسيوية حتى صارت عقيدتنا الجديدة هي أن مصائر هذه الدول لا تهمنا في شيء. فنحن نملك أفضل الاقتصادات وأكثرها حيوية في العالم. ولن تطولنا الأزمة بأية حال. ثم يفيق قادتنا أخيراً

على حاجتهم إلى مطالبة دافعي الضرائب الأمريكيين بتدبير 18 مليار دولار أمريكي لتمويل صندوق النقد الدولي الذي يتعين عليه كفالة هذه النظم المالية المنهارة ومساعدتها على الخروج من أزمتها. وقد يتعين الاعتراف بأن مصائر هذه البلدان إنما تهمنا في الحقيقة كثيرا جدا. وإنني واثق أنكم ستعتبرون هذه الأزمة أزمة حقيقية وخطيرة. فكثيرون في عالم المال ممن يتابعون أحداث الفترة 1929–1933 يرون أوجهاً كثيرة ومخيفة للشبه بينها وبين الأزمة الحالية.

جارتين : أختلف مع بيل في تصويره أن القيادة ترى أن كل شيء تحت السيطرة، وأن الأمور ليست بهذا القدر من الخطورة. وما من شك أن هذا الرأي هو مجرد وجهة النظر الرسمية. أما تحت السطح– وكلما تحدثت إلى كبار رجال المصارف وقادة منظمات الأعمال أتبين أنهم غير متيقنين تماما مما قد يحدث. ويشعرون بحساسية شديدة تجاه فقداننا القدرة على التنبؤ. وهم يعرفون تماما أن ارتباطاتنا ببقية العالم أكبر من قدرتنا على توثيقها. فقروض السيتي بنك أو مؤسسة مورجان يمكن أن تضار نتيجة معاملة بين بنوك كورية جنوبية أو روسية.

إن كل شخص متورط في كل قرض. فقط نحن لا نحيط بكل الارتباطات وهو ما يثير قدرا من القلق والعصبية. إن خوفنا من الحديث عن ذلك بصراحة إنما مرجعه خوفنا من أن تتحقق النبوءة الذاتية عن حدوث ذعر شديد بين المستثمرين.

إن مصدر التوتر الحقيقي ليس ما حدث في آسيا حتى الآن. فاليابان والصين لم يسقطا بعد، ومن غير الواضح كيفية خروج اليابان من الأزمة. لقد أضر بهما الانكماش الآسيوي بأكثر مما أضر بنا. ولكن ذلك يعني أننا كذلك عرضة للتأثر وذلك لأننا عندما نتحدث عن انفجار مالي داخلي في اليابان أو حتى استمرار الركود الاقتصادي بها نكون كمن يتحدث عن مستقبل الولايات المتحدة. يمكن للكرة أن تقفز كثيرا وبطرق مختلفة كما قال بيل وقد تضرب الكرة روسيا أو قد تضرب الصين.

فيشمان: ارسم لنا سيناريو لليابان.. كيف يحدث انفجار اليابان من الداخل؟.

جارتين : يتعرض مصرفان كبيران لخطر الإفلاس. وينكمش الاقتصاد بالفعل وتتضاعف حالات الإفلاس وتحلق البطالة ونصبح أمام كساد في اليابان ولكن الأنباء السيئة لاتتوقف... إذ تأخذ أسعار الجملة والأرباح والناتج المحلي الإجمالي في الانخفاض، وتبلغ البطالة ذروة غير مسبوقة. وتعجز سلة الحوافز الحكومية عن التأثير في مشاعر المستثمرين. ولا ينبغي أن ننسى أن اليابان هي أكبر ثالث أسواقنا للتصدير.

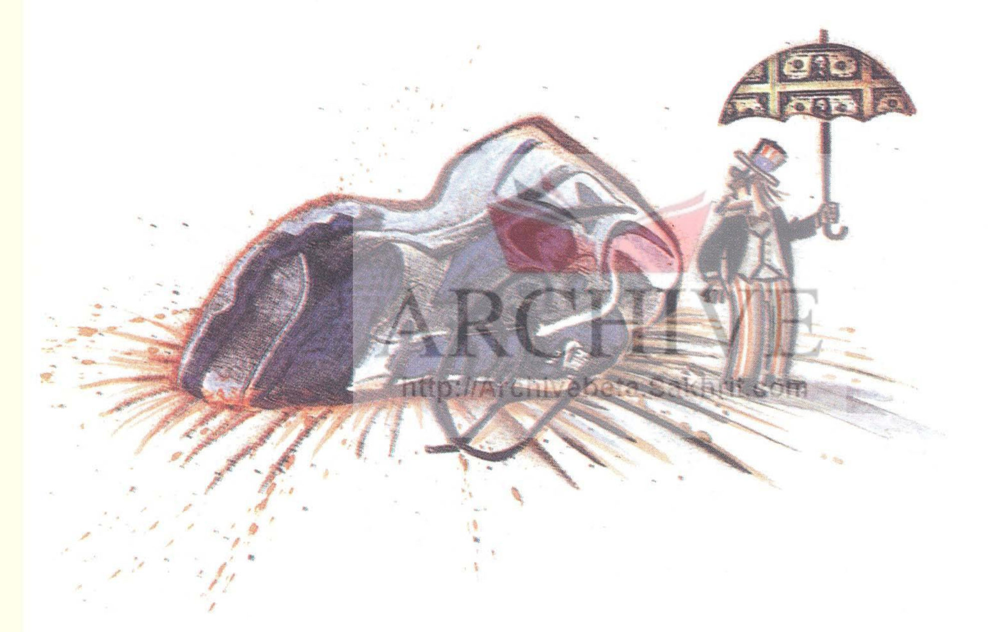
جريدر : يمكن القول إن النظام المصرفي في اليابان يقوم على علاقات وهمية أو مفترضة. فالبنوك هناك تقوم ما تحوزه من أسهم على أساس قيمة الرأسمالية وبذلك تضطر الدولة إلى بذل الكثير من الجهد لحماية أسعار الأسهم والإبقاء عليها مرتفعة. ومن ثم فهي لا تشكل رأسمال حقيقيا بالطريقة نفسها التي تحتسب بها الولايات المتحدة رؤوس أموال بنوكها.

فإذا عجزت الحكومة اليابانية عن المحافظة على هذه القيم المفترضة تظهر أزمة مصرفية على غرار أزمة الثلاثينيات. فعلى حد قول جيف يحدث ذلك نتيجة خليط من الأحداث التي

لا يمكن توقعها. فاللاعبون لا يستطيعون تحديد من المرتبط بمن الذي سيكون له في النهاية التأثير السيكولوجي على الجميع.

فيشمان : ماذا تقصد بكلمة الجميع؟.

جريدر : المقصود جميع المستثمرين والمنتجين والمستهلكين إذ يتوقف الجميع عن الشراء ويقول الناس لأنفسهم حسنا إن السلطات لا تدري ماذا يجري. ومن الأفضل لنا أن نتوقف عن الشراء عند هذا الحد لحماية أنفسنا، ولم تكن مخاوف المستهلكين وحدهم بل المخاوف المشتركة بينهم وبين المصرفيين هي السبب في حدوث هذه الاتجاهات السلبية بصورة تجعل المخاطرة بفقدان السيطرة عليها أمرا محتما. ذلك هو ما حدث في الفترة 1929–1933– كما أن الأزمة يمكن أن تتخذ شكل الهلع المصرفي الذي حدث عام 1907 حين تبين الجميع أن النظام المصرفي قد فقد الاستقرار– وأصبح تدخل الدولة لتنظيمه أمرا لا مفر منه.



جارتين : لقد تم استيعاب الكثير من دروس الثلاثينيات فإذا انفجرت اليابان من داخلها فسيسارع البنك المركزي الأمريكي والبنوك المركزية الأوروبية إلى تخفيف شروط الإقراض وإغراق العالم بالسيولة. وهي لا تستطيع بالطبع القيام بذلك مقدما أو التلويح به سلفا، ولكنهم يعرفون الآن أن الموقف في اليابان قد أصبح خطيراً ويستحيل تتبعه لأن النظام السياسي في اليابان قد أصبح في حالة شلل تام. واليابانيون أنفسهم يدركون كم هم قريبون من الأزمة، ولكن في هذا الوقت بالذات، الذي يحتاجون فيه لاتخاذ القرارات الجريئة، تكون قدرتهم على اتخاذها مشلولة، كما يكون الغرب قد استنفد كل اختياراته، فما من أحد يملك إصلاح النظام الياباني أثناء الازدحام الذي يخنق سير الحركة. ولكن دعوني أحدثكم

عن كم الصلات التي لا أزعم أنني أعرفها جميعا. إن أول ما يقع عند ظهور أزمة عميقة في اليابان هو حدوث مزيد من التدهور في أسعار الين، العملة رقم اثنين في العالم. وها هو العجز مع اليابان يتفاقم منذ الآن، وهم لا يصدرون لنا مواد رخيصة. إن اليابان مع ضعف الين تصدر لنا التكنولوجيا العالية والسيارات وهو ما يشكل تهديدا خطيراً للولايات المتحدة وكذلك لبلدان أوروبية أيضا. وهكذا تقف اليابان بسبب عملتها على مشارف إحداث اضطرابات خطيرة في الاقتصاد الكوني ككل.

ثانيا: إن اليابان هي أكبر مدخر في العالم وهم يمتلكون نسبة كبيرة من سندات الحكومة الأمريكية فإذا حدث انفجار حقيقي في اليابان ستتخلص اليابان من قسم كبير من هذه السندات في الولايات المتحدة. مما قد ينجم عنه اختلالات ضخمة. وتتجه الولايات المتحدة إلى رفع أسعار الفائدة الأمريكية وينتهي الحديث عن انتعاش وول ستريت.

ثالثا: إن ما يحدث في اليابان سيؤثر حتما في بقية آسيا، ويتوقف الكثير على مدى قدرة اليابان في الاستمرار بدور المقرض الأخير والمستورد الرئيسي من آسيا. وقد بدأت اليابان في فقد دورها في هذين المجالين، مما يلقي بالعبء كله على عاتق الولايات المتحدة وينبىء باستمرار الأزمة الآسيوية لعدة سنوات، وكان من الممكن أن يختلف الوضع لو كانت اليابان بالنسبة لآسيا مثل ما كانت الولايات المتحدة تمثله للمكسيك، فلو كان الاقتصاد الياباني لايزال بعافيته لزادت الاستثمارات اليابانية في آسيا كما تزيد وارداتها منها، وبذلك تلعب اليابان دورا هائلا في تقويم الاقتصادات الآسيوية ولكننا نرى أن اليابان الآن ليست جزءا من الحل بل هي جزء من المشكلة.

فيشمان: أشعر ببعض الإحباط بسبب ما يتحلى به النقاش من دماثة، فلماذا لا نعترف أن التقلبات قد تخلق فرصا جيدة للبعض؟. لقد كون بعض الناس ثروات نقدية هائلة بالتعامل قصير الأجل في العملات الآسيوية. فمن الممكن في لحظة من لحظات الأزمة أن نشتري حصة رئيسية في شركة طيران كورية مقابل 165 مليون دولار وهو مالا يتجاوز قيمة طائرة واحدة من طراز بوينج 747، لا داعي لخداع أنفسنا فهناك وجه آخر للمسألة وهناك من يسعدهم ما حدث.

جارتين: من المحتمل أن تؤدي هذه الأزمة إلى المزيد من التكامل الاقتصادي. فهي قد تحدث قدراً أكبر من البطالة وعدم الاستقرار في آسيا من ناحية ولكنها قد تكون بداية قيام إمبراطورية أمريكية تسيطر فيها الشركات الأمريكية على كل شبر من آسيا لأنه أصبح في مقدورها شراء كل الأرض وما عليها.

فيشمان: أتعني بقولك «إمبراطورية أمريكية» أننا سنحقق أكبر اغتصاب نقدي في تاريخ الولايات المتحدة؟.

جارتين: لا ليس هذا هو ما أعنيه، إنني أعني فقط أنه لم يوجد بعد من يتفهم حقيقة طبيعة العولمة.

جريدر: إذا أنصت لما يردده رجال المال الأمريكيون من أنهم سوف يجمعون في النهاية شتات هذه الاقتصادات والنظم المصرفية فستتأكد أن لعاب وول ستريت يسيل لهذا الاحتمال. بل وهذا الاحتمال يدخل منذ الآن في

النقاش الذي يجري في طوكيو على أعلى المستويات فعندما نلتقي مع اليابان لنقول لهم «عليكم أن تحفزوا اقتصادكم وأن تخفضوا ضرائبكم» فإننا نقول لهم في الوقت ذاته : «لا ترجعوا عن تحرير أسواقكم المالية، فلقد أصبح لنا مكتب في طوكيو ونحن راغبون في جذب مقادير كبيرة من مدخراتكم إلى سوق الأوراق المالية في نيويورك.»

جارتين : أود العودة قليلا إلى السيناريو الياباني. لقد افترضنا أن اليابانيين - بسبب قلقهم الشديد على أوضاعهم المالية وتزايد حالات الإفلاس - قد اقتطعوا المزيد من الاستهلاك وبذلك نصبح نحن بصدد دورة نزولية خبيثة، فبقدر ما ينخفض استهلاكهم بقدر ما تنخفض مبيعاتنا لهم، ويتباطأ اقتصادهم وتنخفض عملتهم، ثمة مشكلة هيكلية عميقة هناك، وفي اعتقادي أن قادة الأعمال والساسة يفهمونها ولكنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معها. وهم مستعدون فقط لعمل الشيء الوحيد الممكن وهو فتح محابس النقود.

جريدر : أرجو أن تكون على حق في قولك إن الجميع يقف متعقلا وأصابعهم على أزرار المحابس، لقد نمى إلى علمي أن محافظي الاحتياطي المركزي وغيرهم من كبار المسؤولين المصرفيين سيفعلون ما هو صواب عندما يأزف الوقت. ومع ذلك فإنني أشعر بقدر من التشكك، لقد ظلوا لسنوات طويلة يرددون على أسماعنا أن الآسيويين مدخرون بطبيعتهم وأن أرقامهم سليمة، ولذلك كانت اقتصاداتهم تنمو بمعدل 8 أو 10 في المئة سنويا، ثم يعودون الآن ليقولوا لنا إن اقتصاداتهم كانت تدار وفقا لسياسات قوية، وإنه كان من المحتم سقوطي على الرغم من صحة الأرقام. إن ما يتقرر مصيره هنا ليس إلا النهاية المحتومة لحقبة من الأحداث الاقتصادية التي تحكمها أصولية معينة. وبدأت السلطات تعترف بأنه ثمة حاجة لتوفير بعض الأشكال المعتدلة من التحكم في رأس المال. وأنه قد يكون من الضروري استدعاء كينز من سجنه لحفز الاقتصاد العالمي. بمعنى أنكم تقولون : كما حدث ذلك مرة مع انهيار المكسيك عام 1995، إن الاقتصادات الخمسة أو الستة التي كنتم تصفونها بأنها أكثر اقتصادات العالم حيوية ونجاحا قد أصبحت الآن في حاجة ماسة لأن يقوم دافعو الضرائب بتمويل برامج لتسييرها من جديد. أو بعبارة أخرى تقول لقد أدت بنا السوق إلى هذه الطريق المسدودة وأصبح على الحكومات أن تتقدم لنجدتنا.

جارتين : بل. أعتقد أنك تحاول التوصل إلى نظرية وتطبيق خالصين نقيين لا وجود لهما في الواقع أبدا، وأوافق على أن أصولية ما قد استحوذت على العالم لسببين : الأول هو فشل كل شيء في العقدين الأخيرين. فقد تبين عجز اقتصاد الدولة والشيوعية والاقتصادات المختلطة عن العمل. لقد وقع العالم تحت سيطرة فلسفة الاتجاه إلى السوق. ففي الأرجنتين حيث يعتبر الاقتصاد اشتراكيا يتعايش النظام الاقتصادي مع قدر كبير من البطالة من أجل تحقيق معدلات نمو مرتفعة. وفي ألمانيا التي تبدأ في النمو (بعد توحيد ألمانيا) توجد مستويات مرتفعة من البطالة. والناس في كل مكان مستعدون لتحمل المزيد من الآلام وصولا لطريق ثالث. ولكن لا أحد ينكر الآن الحاجة إلى التدخل الحكومي، ولسوف يواجه هذا النظام سلسلة من الاضطرابات والانقطاعات

والأزمات على غرار تلك التي حدثت في أواخر القرن التاسع عشر. وأنه لا مفر حينئذ من مواجهة هذه الأزمات بالتدخل الحكومي وفقا لظروف كل حالة على حدة إما بتقوية الاقتصاد أو بتوفير الموارد الإضافية له.

فيشمان: ماذا يمكن أن يحدث لو فشلت هذه التدخلات؟.

جارتين: هذا سؤال على جانب كبير من الأهمية، هل يستمر العالم في التوجه أكثر وأكثر نحو السوق، فيزداد نفوذ قوى السوق ويصغر حجم الحكومات ويتناقص دورها باستمرار بأمل أن تكون أكثر فعالية في بعض الجوانب على الأقل؟ هل سنصل إلى نقطة يصبح فيها الاقتصاد العالمي غير قادر على الاستمرار بغير تدخلات وقتية على غرار التدخلات في الاقتصاد المكسيكي: أم أن ورما سرطانيا كبيرا قد أصابه؟ هل يمكن التوصل إلى مجتمع كوني يكون أكثر توجها للسوق ويتمتع بالاستقرار النسبي في الوقت ذاته؟. في ظني أن ذلك ممكن وأستطيع تقديم المزيد من الأدلة على ذلك. وفي اعتقادي أن بيل محق تماما في قوله إن هناك مشكلات كبرى أخرى. فالفيض الكبير في الإنتاج يخلق ضغطا نزوليا على الأجور في كل مكان. وما علينا إلا أن نلتقط هذه الجريدة الصباحية لكي نتبين إلى أي مدى توجد طاقات هائلة فائضة في صناعة السيارات.

هل يسمع الساسة الأمريكيون صوت سقوط حذاء كبير في آسيا؟

فيشمان: إن وجود فائض إنتاج يعني ظهور مصانع مغلقة ونحن لم نتحدث بعد عن ردود فعل رجال السياسة في أمريكا.

جريدر: لقد هيأ القادة الأمريكيون أنفسهم لحركات ارتجاعية عنيفة قد تظهر في السنوات القليلة المقبلة. وحينما يحدث ذلك ويرى الناس وظائفهم وهي تتبخر ومصانعهم وهي تغلق بسبب كفاح الشركات متعددة الجنسية لإنقاذ المصانع التي أقامتها في آسيا أخيراً. ويقال لهم أنتم غير قادرين على المنافسة بعد أن كانوا يسمعون طوال السنوات الخمس الأخيرة- من خلال مؤشر داوجونز- أن بلادهم تستعيد قدراتها التنافسية، فإن الجمهور سيقوم بتحليل هذه الحقائق بطرق مختلفة. فنسبة ضخمة من الأمريكيين - ربما الأغلبية - كانوا كثيري التشكك في النظام منذ سنوات. فهم لا يملكون أية قدرة سياسية في هذا البلد لأن معظمهم من الفئات الدنيا من الطبقة المتوسطة، أو من الطبقة العاملة وربما أفقر ولذلك لن تكون مفاجأة لهم أن تسوء الأحوال، كل ما سيحدث هو تأكيد شكوكهم. وما أشير إليه هنا أننا عندما نصل إلى مرحلة الأزمة خلال العامين أو الأعوام الثلاثة المقبلة، فإن الكثيرين من الأمريكيين سيتجهون إلى الكثير من التفسيرات الخاطئة وربما إلى المعالجات الرجعية. ولسوف أكون متعاطفا معهم لأنهم كانوا يسمعون دائما أنهم قد شاركوا في تحقيق نصر أمريكي ولكننا نعرف أن انتصار بوينج وإنتيل لا يعني بالضرورة انتصار أمريكا.

جارتين: إن حاستي تنبئني بأنكم تهونون من مصير كثير من الأمريكيين ويصدمني بشدة عدم تأكد المسؤولين الأمريكيين مما ينبغي عمله وهو أمر واضح للعيان، لقد ولى الزمن الذي كان الأمريكيون يعتقدون فيه أن

المسؤولين على علم ومعرفة بالكثير. وللأمريكيين الآن شكوكهم الكثيرة في القطاع العام، وهم الآن على درجة من الرغبة في الاعتماد على الذات أكبر مما نتوقعها لديهم. والأكثر دلالة هو ظهور التشكك في أوقات الرخاء الأمريكي وزمن النمو والفرص وظهور الكثير من الوظائف الجديدة. والمشكلة ليست في وجود أو عدم وجود تشكك سياسي، ولكن في كيفية تهدئة إثارة لمساعدة الناس على تحقيق التحول. إنني أوافق على ماقلته يا بيل في بداية حوارنا، إننا بصدد ثورة متأصلة لا نهاية لها، وأن من يضارون منها سوف يتعرضون لمزيد من الأضرار. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن أمريكا تقف على أعتاب فترة رخاء طويلة. فما من بلد في العالم يملك ما تمتلكه من مال ومنظمين وقدرة على خلق الوظائف الجديدة. فضلا عن أن حركتنا لا يشلها شيء من القيود الأوروبية. ومن المحتمل أن اقتصادنا هو الأقوى وأن المستفيدين الأمريكيين منه هم الأوفر عددا من أي اقتصاد آخر. فهل بعد ذلك يمكن أن تبقى جيوب من السخط وعدم الرضى؟.

والإجابة نعم. والحقيقة أن تلك هي القضية الرئيسية في الولايات المتحدة. ولكني لا أتفق مع بيل بأن شخصا ما نتيجة ذلك سوف يسحب كتاب ماركس من الرف ويصيح «ها قد حانت لحظة الثورة».



جريدر: أنا لم أقصد ماركس بل قصدت موسوليني.

جارتين: أيا من كان. فأنا لا أظن ذلك، إن الأمور في الحقيقة تسير في الاتجاه المعاكس.

فيشمان: إنك تقول أن أمامنا ما بين عشرة إلى عشرين عاما. وأيا كان ما يحدث في اليابان أو روسيا أو الصين فإننا محصنون.

جارتين : أنا لم أقل ذلك، وما أعنيه أن هناك فرصة جيدة لاستمرار ثورة السوق وستكون أمريكا مستفيدا صافيا من هذه الثورة وفي أفضل وضع للعمل بنجاح. فإذا انفجرت اليابان وحدثت القلاقل في الصين كحرب أهلية أو تخفيض سعر اليوان (العملة الصينية) فإن الأزمة الآسيوية الحالية ستبدو وكأنها لم تكن شيئا بالمقارنة، وهناك الكثير من الاحتمالات فنحن لم نتحدث عن أوروبا، فإذا طبق اليورو (العملة الأوروبية الموحدة) وتعرض لذبذبات وانهيارات فإن جميع الرهانات ستسقط.

جريدر : دعونا نتحدث عن القوى المضادة التي تنمو في أحشاء نظام السوق العالمي : ولقد أشرت إلى واحدة منها. وهي الطاقات الفائضة، ففي الوقت الذي يقوم فيه أفضل رجال الأعمال ببناء المصانع الكثيرة فإنهم يكبتون زيادة الأجور في جميع البلدان المنتجة والمستهلكة على السواء. ويترتب على ذلك ظهور فجوة بين الإنتاج الممكن والسوق المحتملة لامتصاص هذا الإنتاج. فيحدث الانهيار المالي، ولأن الذين يديرون الشركات ليسوا أغبياء فهم يحصنون أنفسهم ضد المخاطر عن طريق تكوين تحالفات مع منافسهم المفترضين، وبعض ما يحدث الآن في الانهيار الآسيوي هو أن الكثير من الشركات الرئيسية الأمريكية والأوروبية واليابانية يقولون لأنفسهم ما دمنا قد أركعنا كوريا الجنوبية فلماذا لا نستحوذ على شركاتها أو نكون أحلافا معها؟. وإن ذلك يجب أن يستمر حتى تنتهي بستة بنوك فقط وثلاث شركات لصناعة السيارات، وبعدئذ - وقبل فوات الأوان - سيقول الجمهور «أهذا هو المعنى الحقيقي للقيادة عند المنظمين؟!» وكما نعلم تجري عملية التحالفات منذ الآن على قدم وساق، وهي تجري بأسرع ما يكون في مجالات الحاسب الآلي والمعلومات والبنوك. وأقرب مثل على هذا هو الاندماج الهائل بين مجموعة السيتي ومجموعة ترافيللرز التي أعلن عنها في أبريل الماضي.

ولكن لا أعتقد أن التحالفات ستؤدي بالضرورة إلى الاستقرار، فهي قد تمنح التجمعات - فقط - القدرة على التسعير للسوق. فمن يمتلك مع شركائه 80 في المئة من الإنتاج حول العالم يستطيع تحديد الأسعار والتحكم في الإنتاج للسيطرة على الأسعار. كان ذلك هو هدفهم منذ مئة عام مضت منذ أيام روكفلرز وكارنيجن. ولا يعرف أحد كيف سيلعب هذا الهدف دوره الآن. ولكن المؤكد أنه لن يتوقف عندما تبشرنا وتعدنا به الأصولية. ويسعدني أن أسمع الاقتصاديين وهم يتباهون قائلين الآن : «حسنا ألم نقل لكم إنه سيكون هناك أزمات سابقة للركود، وذعر وهلع» كلا هم لم يقولوا لنا ذلك وكل ما أبلغونا به هو «إنكم إذا ما اتجهتم إلى عولمة أسواق المال فسيكون لكم سعر فائدة واحد عالمي على السندات وسعر عالمي واحد على قروض الإسكان، وسعر فائدة عالمي واحد على بطاقات الائتمان».

ومن ثم يؤدي هذا النظام المعلوماتي المنسق على أعلى مستوى إلى توزيع الائتمان بأكثر الطرق رشدا وعقلانية. هنا تظهر رسالة جديدة للاقتصاديين عندما لا يحقق النظام العالمي الاستقرار المنتظر بل ويحدث الانهيار ويضطر دافعو الضرائب للتقدم لإزالة آثاره. وعندئذ تعود الثقة في المعلومات وسلامة السوق، وتتحرك الأسواق لتحقيق كل ما وعدت به القيادة، إن لديكم قوتين متعادلتين هنا، تعزيز الإنتاج أو استخدام الحكومة لإنقاذ الكبار حين

يصبحون في خطر. وفي أية حركة استرجاعية سياسية، لن يكون رد الفعل الوحيد هو رد فعل العاطلين من عمال صناعة السيارات. ففي اعتقادي أن ما سيحدث سيكون أعمق من هذا، وها نحن نرى منذ الآن أن الجمهور يحاول أن يفكر بوضوح لنفسه، وبغير أية مساعدة من النخب الحكومية، ودون أن يكون هناك أي استغلال لأي حرب باردة في تفسير الأمور وأعتقد أن الجمهور يكتشف الآن وبذكاء أن هذا النظام لم يحقق شيئا ما مما وعد به.

جارتين : ولكن ماذا عن عشرات الملايين الذين حقق لهم النظام أكثر مما كانوا يحلمون به ؟

جريدر : دعونا نفترض أن الاحتفاء بالازدهار الذي نمر به الآن في عهد الرئيس كلينتون وارتفاع متوسط مؤشر داوجونز، وانتصار النظام الأمريكي هو أقوى ما يكون بين أقلية من الأمريكيين، ربما بين الثلث الذي يشعر بإمكان العودة إلى هذا الرهان، ولكن آخر ما شاهدت أن دخل الأسرة في الولايات المتحدة لم يصل بعد إلى مستواه في عام 1989، إن متوسط دخل الفرد في صعود، ولكن إذا نظرنا إلى دخل الأسرة– ودون ذكر للأجور– فإن الناس لايزالون يناضلون للوصول إلى ما كانوا عليه قبل الركود الأخير. وإذا سمح الاحتياطي الفيدرالي بنمو الاقتصاد والأجور بأسرع مما يحدث ولبضع سنوات فإن الناس قد يلحقون بما كانوا عليه قبل الركود. إن أعظم ما يقع فيه قادتنا من وهم هو الظن بأن جميع الأمريكيين يقتسمون ثمار هذه الثروة، ولكن صدقوني إذا قلت لكم إن جماعات كثيرة ممن تحدثت إليهم في طول البلاد وعرضها كانت عازفة عن سماع أي شيء لأن ما يجري كان بعيداً كل البعد عن حياتهم. لقد قرأوا عن الازدهار وعرفوا أن الإحصائيات تبدو جيدة ولكن ذلك كله لم يترك أثرا في حياتهم. وإذا لم يتعامل زعماؤنا مع هذه الحقائق فسيتسع الخرق ويزداد صعوبة ويتحول إلى مادة عفنة.

ثورة من دون سفك قطرة دم واحدة

جارتين : إنني لا أتوقع حدوث الحركة الارتجاعية السياسية التي يتحدث عنها بيل، فنحن نتفق على أن هناك الكثيرين ممن لا يكسبون من الاقتصاد المعولم، كما نتفق على أن هذه الحقيقة يجب أن تكون في صدر جدول الأعمال. وما نختلف حوله هو معنى هذا التفاوت. فبيل يدعو إلى تحرير أسواق العمل وتجاهل هؤلاء الذين لا يكسبون ولكنني أعتقد أنه يمكن الجمع بين هذه الأسواق، وتحقيق زيادة ضخمة في برامج التعليم والتدريب على الوظيفة.

جريدر : إن ما أشير إليه هنا هو ضرورة وجود بنيان لحقوق العمل. ولنسميه ما نشاء، حقوق الإنسان إذا أردتم، وهو ما يتطلب من جميع الشركاء الذين سيتعاملون بالبيع في سوقنا ذات الأجور المرتفعة والمؤسسات الديمقراطية المتطورة أن يتفقوا على حد أدنى يتمثل في عدم ضرب الآخرين على رؤوسهم كلما حاولوا إقامة شكل من أشكال اتحادات العمل. وذلك لأن هذا هو الحد الأدنى من الحرية الذي يجب أن يوفره هذا النظام.

جارتين : في اقتصاد كوني أمثل يجب أن يكون هناك بعض المعايير للعمل وحقوق الإنسان وحماية البيئة، ويجب أن يكون ذلك هدفا محوريا في سياسة أمريكا الخارجية. فنحن لا نستطيع مخاطبة العالم بقولنا «إننا لن

نقوم بالاتجار معكم إذا لم يكن لديكم هذا أو ذاك. فهذا الأسلوب لن يفضي إلى أي تقدم على الإطلاق. بل سيفتح الباب للردود الانتقامية وتجاهل مصالحنا التجارية». ولكن تمعنوا فيما جرى لأمريكا اللاتينية لم يكن أحد يجرؤ على القول في الثمانينيات إن هذه النظم العسكرية ستسمح بنوع من الديمقراطية، إذا ما كان أيسر من أن يقال إنها مجرد أضغاث أحلام ولكن حدث في كل أمريكا اللاتينية تقدم هائل. ولم يحدث ذلك بسبب تلاعب أمريكا بالتجارة بل لسبب آخر مناقض، وأصبحت الآن حقوق الإنسان تمثل في طول القارة وعرضها بنداً رئيسياً في جدول الأعمال الوطني، تماماً مثل قضية البطالة، ومسألة حقوق العمال. فالرئيس زيديلو في المكسيك وكاردوسو في البرازيل من أكثر المهتمين بحقوق الإنسان ويلتزمون بالارتقاء بها. فما أن لاحت أمامهم فرصة للتقدم الاقتصادي حتى أمسكوا بها لأن للتقدم الاقتصادي تأثيراً رئيسياً وإيجابياً على النظام السياسي. فهناك علاقات مؤكدة بين النمو الاقتصادي ورغبة الشعوب في الحرية.

جريدر: تقوم الحجة هنا على أن البلد الذي يمارس النمو الاقتصادي يتحقق فيه ارتفاع الأجور، ويحصل على بعض التطور، ويكتشف أن مواطنيه يرغبون فيما هو أكثر من ذلك، فيتجه نحو الديمقراطية بالتدريج. ذلك ما يقوله الناس لأنفسهم وهو شبيه بما قالوه لأنفسهم في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. إننا نحطم اتحادات العمال الآن ولدينا في المناجم ومصانع الصلب أطفال يعملون، ولكننا نؤمن بأنه ما أن نصل إلى مستوى معين من التطور حتى يزول كل هذا. وأجيب على ذلك بأن هذه الممارسات لا تزول من تلقاء ذاتها ولكن بنضال سياسي شرس. فهذه الممارسات تظل تمثل مزايا نسبية حتى يتصدى شخص ما لإيقافها. وهذا ما يؤكده تاريخ الولايات المتحدة وأوروبا. وأعني أنه لا داعي لاستعادة التاريخ الأسود إذا عمل الناس على الحيلولة دونه وعملوا منذ الآن، وسيستغرق ذلك عقوداً طويلة. ولكن القول إن الأسواق سوف تصحح ذلك، وإننا بطبيعة الحال نقف إلى جوار الحقيقة ولكننا لا نملك الإقدام على المزيد من الخطوات خوفا من إثارة الاضطراب في الأسواق، ليس إلا خطأ تاريخيا. ولا يحضرني مثال أفضل من مثل أندونيسيا، فنحن بصدد دولة حققت نموا مرموقا طوال الثلاثين عاما الماضية، ورغم ذلك لاتزال دولة فقيرة، وكان يديرها نظام فاشي ولقد ذابت قوتها العسكرية والسياسية كما ذابت قوة الأعمال، وأجد متعة مشاكسة في تمسك حكومتنا بالمضاربات وبسعيها جاهدة لاستئناس البنوك، ولكن لا أظن أن زمرة سوهارتو ستصحح ذاتها بذاتها. وحتى إن رغبت في ذلك وقامت به فستشكل كتيبة جديدة من الجنرالات للإبقاء على النظام القديم حيا. يجب أن نقول لأندونيسيا «انظري لقد تحملنا السكوت على الكثير من القمع السياسي خلال تلك الأعوام الثلاثين لأننا كنا نشعر أنك تسيرين على الطريق الصحيح، ولكننا لن نحتمل ذلك أكثر من هذا، فإذا أردت بيع بضائعك ومنتجاتك في الولايات المتحدة مرة أخرى، فما عليك إلا تغيير قوانين العمل». ترى ما الذي ستقرره أندونيسيا عندئذ. هل ستمتنع عن بيع البترول لنا بعد ذلك أم تمتنع عن بيع أجزاء البوينج وأحذية النايك؟ وأستطيع أن أرشدكم إلى عشرين طريقة لحملها على ذلك إما بالتعريفات أو اللوائح والقوانين.

جارتين : ليس من الإنصاف أن تتخذ أندونيسيا مثلاً وهي الدولة التي تجمعت فيها جميع الأخطاء في كبسولة واحدة. لتتخذ كوريا الجنوبية مثالا. كانت دكتاتورية عسكرية وأصبح لديهم الآن بعض النقابات القوية، وقد مرت بتقدم هائل ومع ذلك لم يكن من الممكن تجنب بعض التمزقات المأساوية في نسيجها الاجتماعي.

ولدي وجهة نظر أخرى حول امتلاك الحكومة الأمريكية أو غيرها من الحكومات الذكاء الذي يمكنها من تجنب أنواع التقدم الذي لا يتحقق إلا باستخدام العنف أو في ظل قدر من الأزمات. وما دمنا قد صرحنا بذلك فما علينا إلا أن نجرب فبكل بساطة لن تعمل الضوابط. ولنأخذ مثالاً أندونيسيا. ترى ماذا ستفعل أندونيسيا إذا قلنا لها «لن نشتري بترولكم إذا لم تكون لديكم حقوق للعمل والعمال ؟» إن كل ما عليها أن تفعله هو بيع بترولها إلى فرنسا.

جريدر : إن البترول منقول.

جارتين : وكذلك كل شيء. فما الذي نحاول إثباته هنا. فانسحابنا من السوق الأندونيسية مع استمرار الآخرين فيه يعني أننا لم نحقق أي شيء. وسيقول الأندونيسيون «أنتم لن تعلموننا كيف نبني نظامنا الاجتماعي فإذا كنتم غير راغبين في شراء بضائعنا فما عليكم إلا التوقف عن شرائها». ولن يحدث تغيير يذكر في صادراتهم.

جريدر : إن ما أريد قوله لأندونيسيا في بضع عبارات رمزية سريعة هو أن الأعوام الثلاثين الأخيرة قد ولت. ولن نحاول أن نكون خياليين بهذا الصدد. ولكن أمامكم أشياء محددة وواضحة تستطيعون عملها لتظهروا للعالم أنكم مدركون للحاجة إلى التغيير وأنكم تخاطبون فعلا الشركات الدولية العملاقة مثل بوينج، جينرال إليكتريك وهاجز وجنرال موتورز وكل تلك الشركات التي تزعم أن الاقتصاد العالمي الجديد لن يؤدي إلى تغيير سواء في الصين أو أندونيسيا أو أي مكان آخر، إن ذلك أمر صعب للغاية ولكنه لا يختلف عن قولكم إن سحب الأطفال من مناجم الفحم سيؤدي إلى ارتفاع أسعاره.

جارتين : إنني أوافقك على كل ما قلته حول ما هو مرغوب في أندونيسيا: لابد من الإفراج عن زعماء العمال المعتقلين في السجون، وأن يعطى لهم الحق في إجراء المساومات الجماعية، ويجب اجتثاث سوهارتو وأسرته الفاسدة من كل الصناعات التي يملكونها، والسؤال هو كيف نقنعهم بذلك؟. فإذا أردتم أن تقوم الحكومة الأمريكية بإبلاغهم ذلك فأهلا وسهلا. غير أن ذلك لن يحدث أي تغيير. ولكننا إذا قلنا لهم لن تحصلوا على سنتيم واحد من أموال صندوق النقد الدولي فهل سيكون لهذا التهديد أثر ما؟ حسنا ولنتابع هذه النقطة إذا لم تكن في الصندوق أية مساعدات لأندونيسيا، ستندلع الاضطرابات، وسيمارس العنف ضد الأقلية العرقية الصينية وتحدث هجرة جماعية وينتشر اللاجئون السياسيون في جميع جنوب شرق آسيا. إن نبل الهدف شيء ولكن التوصل إلى طريقة مقبولة لتحقيقه هو شيء آخر. وما أعتقده بقوة أنه من الخطأ القول لهم إذا لم تفعلوا هذا أو ذاك فلن نتاجر معكم، إن وقوف الرئيس كلينتون كل ستة شهور للحديث عن حقوق الإنسان لن يجدي.

جريدر : إنني أصبو إلى كتابة سطرين فقط في اتفاقية. أولهما اخرجوا العمال من السجون وهذا ما يتفق مع التاريخ. وثانيهما: إن النظام سينهار آجلا أم عاجلا. لقد مرت الولايات المتحدة بثلاثة أجيال من سفك الدماء والصراع السياسي بين 1880 وخمسينيات القرن العشرين وإذا لم نبدأ في تحريك فهمنا للقيم العليا - أي القيم الأساسية وليست القيم المتوهمة، أو لم نقم بعرضها على النظام العالمي فإن بلدا كأندونيسيا ستخوض حربا أهلية تستمر لأجيال.

العامل الأمريكي المعتمد على ذاته

فيشمان : لقد اعترفنا ببعض نتائج الثورة الاقتصادية الكونية. ومع استمرارها فما هو في اعتقادنا ما يظنه جوبايتشيك المواطن في أمريكا الوسطى في نفسه؟ هل سيظن نفسه مجرد ذرة رمل تذروها الرياح التاريخية العاتية؟

جارتين : سيظن جوبايتشيك أن تحصيله لأقصى ما يستطيع - تحصيله من العلم سيحميه لأن التعليم سيجعله أكثر قدرة على المنافسة. سيقول لنفسه لقد أصبحت حياتي أقل استقرارا. فمن الممكن فصلي من عملي في أي وقت. وكل ما يتبقى لي حينئذ هو موهبتي، ولذلك فبقدر تمسكي بالتكنولوجيا العالية بقدر ما يكون وضعي أفضل.

فيشمان : معنى هذا أن حياته عرضة للمخاطر.

جارتين : إن فرصه أكبر وكذلك مخاطره.

جريدر : كيف تكون فرصه أكبر؟ وأنت قلت منذ لحظات إنه سيستمر في خسارة دخله.

جارتين : لو كنت مكان جوبايتشيك لكان ذلك هو الخط الذي أسير عليه.

جريدر : إنني أختلف كثيرا مع الشعار التعليمي الذي يقول «أنت محاصر ومقيد فعلا، ولكنك إذا حصلت العلم فلن تصبح مقيداً ومحاصراً بهذه القسوة بعد ذلك».

وهذا ما يردده الرئيس باستمرار مع كثيرين غيره. لقد كانت هذه الرسالة تعيش عميقة في طبيعتنا كمفهوم حتى قبل أن يكون لنا محيط عالمي. ولكن هذا المفهوم هو بذاته الخطأ الذي وقعنا فيه في حربنا ضد الفقر منذ ثلاثين عاما. هذا المفهوم الذي يقوم على أن المشكلة ليس في سوق العمل ولكن في الناس، وأننا إذا قمنا بإرشادهم إلى كيفية المشاركة في سوق العمل فإن الفقر سيزول من تلقاء ذاته. لقد رددنا هذا القول حتى في ظل إصلاحات دولة الرفاه.. وكل ما فعلناه هو خلق بضع ملايين من العمال الإضافيين الذين يتنافسون على العمل في أمريكا، ولسوف يتحقق الأثر المتوقع. فعندما يكون لدينا عمل فائض يتنافس على القدر نفسه من الوظائف فإن الأجور تنخفض وقد يقول قائل لو أنني استطعت تشغيل الحاسب الآلي، أو أصبحت محاميا أو كيميائيا أو مهندسا لحررت نفسي من الضغط الذي أشعر به على مستوى معيشتي. وهذا منطق زائف يعشقه الأمريكيون.

فيشمان : هل من الممكن أن يكون العالم في الصين على علم بما يأمل جوبايتشيك في أن يتعلمه - بينما يكون هذا العامل الصيني في وظيفة تستخدم هذه المصارف فعلا، وقادر على الاحتفاظ بها لأنه يتقاضى أجراً لا يتجاوز 15 في المئة من الأجر الذي يقبل به جوبايتشيك.

جريدر : حسنا. ما لم نصبح جميعا من مصممي برامج الحاسب الآلي، فإن بعض الأفراد سيقومون الليلة بمسح أرضية هذا المكان بمجرد تركنا العمل فيه، كما سيظل بعض الناس يرفعون القمامة من الشوارع، ويقوم بعض الناس بجمع البازلاء في كاليفورنيا، وهكذا فالوظائف الدنيا ستظل موجودة بالأسواق الضارة بالعمل. وكل ما فعلناه هو زيادة هذه الأسواق سوءاً. لقد استعدنا الأعمال الكادحة في الولايات المتحدة في الفترة التي كنا نعتقد جميعا أننا نتلقى تعليما أرقى. وفي أوروبا يقال للعمال إن الحكومات لو ألغت نظم الحماية الاجتماعية لاتجهت مستويات الأجور إلى المساواة بطريقة أو أخرى. إنهم بالطبع يتحدثون في الحقيقة عن تحطيم ما يسمى بالوظائف ذات البطاقات الذهبية أي الوظائف الصناعية ذات الأجور المرتفعة والاقتراب بها إلى مستوى نظيرها في الولايات المتحدة، تم العمل بعد ذلك على مضاعفة المستوى الثاني والثالث من أسواق العمل بأقل تكلفة عامة وأقل ضمانات اجتماعية. وأنا لا أشك في أن انتهاج هذا المسلك في ألمانيا قد يؤدي إلى خفض البطالة، ولكنه سيؤدي في الوقت ذاته إلى تخفيض الأجور في كل ألمانيا.

انظروا، إنني مع التعليم بالطبع، وأعتقد أن كون الإنسان متعلما يجب أن يكون غاية في حد ذاته، ولكن فكرة أن صاحب الأجر الأمريكي يمكنه أن يفلت من هذه المشكلة بالتعليم أمر ميؤوس منه. لقد جربنا ذلك سنوات طويلة وكانت النتيجة لاشيء.

جارتين : السؤال هو ماذا يستطيع إنسان بمفرده أن يفعل في ظل هذا الاقتصاد العالمي؟ هو يعرف أن هناك ثمة ميزة يمكن تحقيقها بالتعليم.

جريدر : لستم في حاجة إلى التنقل في كل مكان لتنصحوا الأمريكيين بتحصيل المزيد من التعليم، فالشباب تستحوذ عليه هذه الفكرة بالفعل، وفي الولايات المتحدة هناك خريجو كليات يعملون الآن بالخطوط الأمامية في مصانع تجميع السيارات بعد أن كانت الوظائف الصناعية قاصرة على خريجي التعليم الثانوي.

فيشمان : ربما يعزى ذلك إلى أن مهارات الدرجة الجامعية لم تعد تتجاوز إمكانات التعليم الثانوي.

جريدر : ربما، ولكن رسالتنا هنا هي التأكيد على أن النظام الاقتصادي الجديد متقلب. وعندما يردد الرئيس «أن الأمريكيين سوف يغيرون وظائفهم ست أو سبع مرات خلال حياتهم العملية» فإن ذلك قد يكون مدعاة لسرور البعض، ولكن المؤكد أن الغالبية سوف ترى في ذلك خروجا على الاستقرار المنشود لأن الفكرة هنا تقول «إنك في وضع جيد الآن ولكنك لا تستطيع أن تعتمد على ذلك كثيرا، لتبقى على خوفك كما يجب أن تظل على استعداد لتلقي الضربة التالية». وفي السنوات الخمس الأخيرة استوعب الأمريكيون الرسالة وبصفة خاصة مع الاتجاه إلى تصغير كل شيء، فإذا استمر تحجيم البشر سنة بعد أخرى فإننا نبذر بالفعل بذور سياسات غير رشيدة.

جارتين : لكن ما الاختيارات المتاحة؟ في عالمنا الواقعي لا يوجد إلا اختيار وحيد وهو التعايش مع هذا الواقع. إن نفوسكم قد تهفو

إلى فترة من الفترات التاريخية كان فيها كل رجل وكل امرأة يشعر بكيانه ومكانته. وذلك حينما كانت الشركات تقوم بدورها الأبوي وكان المعاش مضمونا. ولقد ولى هذا كله الآن.

فيشمان: ما النقطة التي يصبح عندها جوبايتشيك مسيسا؟

جريدر: من الصعب تحديد ذلك، ولكن تآكل دور الحكومة النيابية ومنظمات العمل يجري في الولايات المتحدة منذ خمسة وعشرين عاما صعودا وهبوطا غير أن هذه العملية أفضت إلى عكس ما هو متوقع ونشرت أشكالا من عدم التسييس، فقد أقنعت الكثيرين بأن السياسة هي لعبة أشخاص آخرين ومن ثم ألقوا بالسياسة إلى الجحيم.

فيشمان: ومعنى ذلك أن لدينا فسحة من الوقت قبل وقوع الاضطرابات والتوتر الناشئة عن آليات الاقتصاد الدولي.

جريدر: أعتقد أن الأزمة الحالية تتعمق، ولدي سيناريو خاص بسياستنا. إن هذه القضية ستكون من نصيب اليمين بعد عامين أو ثلاثة. وذلك لأن الديمقراطيين يلتزمون الصمت. ولسوف يطرح اليمين عددا من المعالجات المختلفة تماما عما طرحناه هنا. وقد أكون مخطئا، وأرجو أن أكون مخطئا.

فيشمان: جيف، هل تزعجك رؤيا سقوط اليابان؟ وهل يمكن القول إن الأمريكيين هم أكثر شعوب العالم تهيؤاً للعولمة والتقلبات.

جارتين: أعتقد أننا محظوظون إلى حد كبير. ونحن في أفضل الأوضاع للاستفادة من العولمة بقدر أكبر مما قد نتعرض له من خسائر، وكل شيء في نظامنا الاقتصادي يساعد على ذلك. عقليتنا التي تقوم على مبادىء الاعتماد على الذات وروح المنظمين التي تتملكنا، وكل ما تشير إليه أساطيرنا من أننا نستطيع أن نحقق كل شيء وأن ننهض بكل شيء، فلدينا نظام تعليمي ممتاز، وأشياء أخرى تبدو صغيرة ولكنها تضيف لنا الشيء الكثير. كذلك لا يوجد سوق للمال أفضل من سوقنا بما فيها من أموال يمكن استثمارها في أفكار جديدة، كما نملك موقعا يمكننا من التحرك السريع، وأن نكون منظمين أكفأ وأكثر اعتمادا على أنفسنا. وعلى الرغم من كثرة ما نوجهه لحكومتنا من نقد إلا أننا نملك أكثر الحكومات مرونة. ومن الصعب تواجد كل هذا في مكان آخر. وفضلا عن ذلك فإننا أكثر اقتصادات العالم توجها للسوق في عالم يزداد توجهه نحو السوق. كما أن لدينا أضخم المؤسسات وأعرض قاعدة إنتاج على المستوى العالمي. ولا نعاني حاليا من عجز الميزانية، ونستطيع في أسوأ الأوقات أن نشغل اقتصادنا وأن نتدبر في الوقت نفسه أمر أي عجز، ويحاول اليابانيون والألمان والفرنسيون تحقيق التوازن المالي ولكنهم ما زالوا بعيدين عنا في هذا المضمار.

وأخيرا لدينا قوى مادية وعسكرية جبارة كما نتمتع بنفوذ ضخم، والحقيقة أنه لا يمكن تصور دولة أكثر تهيؤا للعولمة من الولايات المتحدة. ولكن ذلك لا يعني أن كل مواطن أمريكي سيستفيد منها. فإنني أتفق مع بيل في أن هناك شرائح كبيرة من السكان لن تحصل على نصيب من هذا كله، ومع ذلك فلدينا كل ما يمكننا من التعامل مع هذه المسألة إذا كنا راغبين حقا في ذلك وكان ذلك في صدارة جدول أعمالنا السياسي.

الجنود الأطفال ... الأطفال الجنود

بقلم : كارل ماير

ترجمة : حسين بيومي

كجماعة صغيرة من جنود جيش، تدور في المكان بغير نظام لتراقب مجموعة متنافرة من أكواخ قشّ تشكل قاعدة المتمرد التي اجتاحوها في اليوم السابق، شرع صبيان يدلّي كلاهما بندقيته فوق كتفه في قذف كل منهما الآخر بالحجارة. وراح قائد الوحدة يوجّه لهما تأنيباً قاسيا بصوت عال شبيه بالنباح، ومع دفعة عنيفة من ذراعه اليمنى أمرهما بالزحف حتى قمة التل التالية. ثمة عربة مدرعة صدئة، تعمل كدليل للوحدة، تتقدم خارجة من غابة نخيل مظللة صغيرة نحو منطقة واسعة منزوعة الأشجار بحجم ثلاثة ملاعب لكرة القدم. يتوقف الجنود الشاردون بلامبالاة من وقت لآخر لاستيعاب الأثر المخدر للشمس المكشوفة والموسيقى غير المألوفة للأرض العشبية - الكورس الرنّان للجراد بالغ الضخامة والزنابير المتثاقلة الحركة والقراد عديم الرحمة المترقب وجبته التالية. رعشة جماعية تسري فجأة في الجميع. وتدور الرؤوس بخفة عصبية. على الحافة الخارجية لتناغم أصوات الحشرات ثمة ضجة غريبة. الانفجارات الأولى لإطلاق المدافع الآلية تدوي من غابة كثيفة على بعد مئتي ياردة إلى الأمام، مرسلة طلقات تهسهس بغضب فوق الرؤوس. يسقط الجميع على الأرض. وحده يظل الملازم أول تنداي جوما واقفا، يتأرجح قليلا من أثر شمس ما بعد الظهيرة الحارقة والشراب المحلّى الكحولي القوي: الكاشاسو، ومتصلباً بفورة غضب سببها الأدرينالين يأمر جنوده بالعودة إلى الوقوف على أقدامهم. المزيد من إطلاقات المدافع ينفجر في دغل آخر إلى اليمين عند الساعة الثانية، وتأتي انفجارات ثالثة من اتجاه الساعة الثالثة.

خط النار يتحرك كالمروحة وكأنه يدور بالحركة البطيئة أمام الشخصية البارزة للملازم أول جوما،

العنوان الأصلي للمقال:
The Universal Soldier بقلم: Karl Maler ونشر في مجلة The Yale Reviewe عدد يونيو 1998

خط النار يتحرك كالمروحة وكأنه يدور بالحركة البطيئة أمام الشخصية البارزة للملازم أول جوما، الغضوب السريع الفهم وذي الزهو الشديد بفوزه بسجل عسكري. والملازم أول جوما، في الأحوال العادية، غير متقيّد بالرسميات، ودود، ذو قدرة خاصة على الدعابة الحافلة بالخشونة، لكنه يصبح موضوعاً آخر بكل معنى الكلمة حين يبدأ شخص ما التصويب عليه. إنه يشير إلى مصدر الهجوم. والرجال الصغار، رغم ملابسهم الرسمية الأكبر من أجسامهم وأحذيتهم غير التقليدية- أكثرها أحذية تنس ممزقة وصنادل مطاطية- يهاجمون بعنف، فيرتمون على بطونهم ويدفعون كلاشنكوفاتهم من طراز AK-47 أمامهم، مطلقين رصاصاتهم بصورة عشوائية اتجاه الأشجار وأحيانا إلى أعلى في الهواء وأحيانا أخرى باتجاه الوحل على بعد ياردات قليلة، لكنهم ينجزون دائما الهدف الرئيسي: الضجة القصوى. يقرر الملازم أول جوما استنزاف كل ما في جعبته. فيصيح «جندي المورتر»، «واجِهْ وركّز»، ويركض إلى الأمام جندي ضئيل الحجم مرتديا قبعته الروسية الشتويّة التي تهتز حوافها في حرارة تبلغ 90 درجة فهرنهايت. «اقتل ذلك الخسيس في الجانب الآخر هناك» يصيح الضابط واثقا من نفسه بتفاخر باتّ لا مناص منه. ويكافح الصبي لإنزال المدفع من فوق ظهره، مدفع له نفس حجمه تقريبا. «اطلق النار، عليه اللعنة، اطلق»، ويضع الشاب القذيفة في أسفل الماسورة ومع إحداث صوت مصّ حاد يتخذ المقذوف مساراً لأعلى على صورة قوس في الأشجار ويهوي برفق وبلا ضرر من خلال الأفرع. ليس ثمة انفجار. ويستدير الجنود يتطلع كل منهم إلى الآخر بوجه يبدي همّا متزايداً. وتشتد النيران القادمة من كل الاتجاهات. وفي الأثناء تدور العربة المدرعة، التي لا تحمل أسلحة نارية تؤدي مهمة قتالية، في دوائر في وسط الميدان، ومن الواضح أن سائقها فقد القدرة على السيطرة. «اطلِق مرة أخرى»، يأمر الضابط جندي المورتر. وتُقذف طلقة أخرى باتجاه العدو. ويتأكد مع مرور اللحظات تأثيرها غير الفّعال مثل سابقتها، وينظر الجنود إلى القائد من خلفهم بانزعاج.

«جندي المورتر» ! يجأر الملازم أول جوما: «دعني أرى هذا الشيء». ويفحص السلاح ويهز رأسه باستياء: «لقد تركت سقاطة الأمان في وضع الإيقاف! الآن اطلق النار وخلّصنا من ذلك الخسيس في الجانب الآخر هناك»، فيرتفع المورتر ويطلق قذائفه، ويرسل مكان حطّه من خلال الأرض رجفة مكبوتة. ويستدير الصبي الصغير مبديا ابتسامة رضا وهو يقول بدهشة صادقة: «إنه يعمل أيها القائد» ويعقب الملازم أول وهو محتدم غضباً: «اطلِق النار من جديد، عليه اللعنة»! فينظر الصبي اتجاه الأرض بخيبة أمل قائلا: «تلك كانت طلقتي الأخيرة». وهو محاصر تقريبا ليس لديه سوى طريق واحد للهرب ينحني الملازم أول جوما للمصير المحتوم ويأمر الجميع بالرجوع إلى حيث أتوا فوق قمة التلّ وبين غطاء الأشجار.

وكما بدأ إطلاق النار على عجل فقد انتهى على عجل. وتسير الفصيلة زمنا مضاعفاً للعودة إلى قاعدة تستعمل كبديل مؤقت أثناء الليل. إن المعسكر محمّي بمئة مقاتل، هم رسميا جنود الحكومة غير أن معظمهم في واقع الأمر أحداث أقل من خمسة عشر عاماً، وبعضهم لا يزال ينتظر بداية البلوغ. والمقاتل المرتزق الوحيد الذي لا يمكن أن يكون عشرة مقاتلين هو الضابط المعاون للملازم أول جوما. فحين يستيقظ المعسكر في الصباح التالي يُكشف تقلّب الشباب. إن اثنين وثلاثين مدافعاً هم الجناح الأيسر بكامله يلتقطون أسلحتهم ويجرون الحمار الوحيد في الفصيلة ويهربون. ويستقل الملازم أول عربته إلى خارج المنطقة وبعد عدة ساعات يتعقبهم حتى قراهم الأصلية. فيهددهم بالإعدام جزاء فرارهم من الجندية.

بعد يومين وفي المنطقة نفسها ترتقي فصيلة عدوانية، بدرجة أكبر كثيراً، عربة مكشوفة مخصصة لنشر الجنود في الداخل. والصبية، الذين يرتدي معظمهم تعاويذ جلب الحظ، يغنون أغاني الحرب ويطلقون الصفّارات وهم يغادرون وكأنهم مجموعة هواة متوجهة إلى مباراة كرة قدم محلية. وعند أول قرية يطوقون منزلاً بمن فيه ويعدون بنادقهم للإطلاق. وسرعان ما يدركون أن أهدافهم المقصودة ما هي إلاّ أفراد في وحدتهم منخرطون في تجهيز بقرة شاردة للعشاء. يتوقفون من جديد عند بيت بلا سقف ومن الطين اللبن لمعاينة الأجساد المتحللة لامرأتين ورجل عجوز. «فعلها المتمردون» يقول الجنود، ويعلن أحدهم : «لقد تركوا الجثث لتخويفنا وليقولوا إن لديهم قوة». وعند مسافة أبعد على امتداد الطريق القذر يحدّدان مواطنين يمشيان في حقل. ويصوب أحد الصبية سلاحه بوقاحة ويلتمس من قائده الإذن بقتلهما قائلاً إنهما ربما يكونان جاسوسين. وحين يرفض القائد يشكل الصبي من يده اليمنى بندقية متخيّلة ويصفر في فورات قصيرة وحادة ناقرا بإصبعه زناد البندقية وهو يهمس «في المرة القادمة».

جرت هذه المشاهد في إقليم إنْهامبين الموزمبيقي الجنوبي أثناء حرب الثمانية عشر عاما الأهلية بين الحكومة وحركة المتمرد رينامو. ويتواصل حدوثها كل يوم تقريبا في أيّ من اثني عشر بلدا حيث يأتي الجنود الصغار ليمثلوا الجندي العصري العامّ، رامبو الرضيع ذو الحجم الضئيل للغاية والذي لا يكل ولا يتعب والذي يقضي سنواته الغضة، أو تقضي سنواتها الغضة، جوال أو جوالة في ميادين القتال الخاصة بالحروب الأهلية في أفريقيا. وزيارة إلى أية جبهة قتال في العالم هذه الأيام كفيلة بتضمن مقابلة مع صبي صغير يحمل سلاحاً بنفس طوله ويرتدي أي شيء من «تي شيرت» كرة السلة الأمريكية إلى مزق زي رسمي عسكري، ويبدي بتباه وجهاً متجهما يمكنه إثارة الرعب والشفقة في وقت واحد في قلوب الجميع فيما عدا القتلة متحجري القلوب.

«معظم هؤلاء الأطفال يبللون فراشهم بانتظام» هذا ما يقوله إسزر جالوما الموظف بمشروع اليونيسيف والذي أمضى أربع سنوات في ليبيريا الدولة الواقعة في غرب أفريقيا، حيث يضخّم الجنود الأطفال جيوش نصف دستة من سادة الحروب.

بالنسبة للآلاف من الصبية تغيّر ظروف خارجة عن إراداتهم بصورة مفاجئة نظراتهم إلى العالم، ويستبدلون بآبائهم وأجدادهم صور رامبو وقطاع الطرق المقنّعة بوصفها «الرئيس» المحلّي و «صاحب السعادة». والأطفال على امتداد القارة يستبدلون، بإراداتهم أو من دونها، أقلامهم وأدواتهم المدرسية بالبنادق والقنابل اليدوية ليصبحوا الممثلين الأساسيين لجيل ضائع. وفي السبعينيات اعتاد القائد الموزمبيقي سامورا ميتشيل أن يصف الأطفال بأنهم «زهور الثورة». وبعد عشرين عاماً تتولى أرملته جراسا ميتشيل دراسة الأمم المتحدة المتعلقة بعدد الزهور التي تفتحت كقتلة مدربين. ورغم أن لا أحد يعرف متى بدأ أول جندي طفل القتال فإن أعدادهم انفجرت في السنوات الأخيرة بفضل جانب من التسليح الحديث، والأسلحة الخفيفة نسبيا، وفي المقام الأول الكلاشنكوف AK-47 وهو بندقية هجومية، هي أسلحة من السهل أن يستعملها الأطفال. وكمسلّحين على هذا النحو يغدون جنودا نموذجيين: منعم عليهم بجلد هائل وبالقدرة على البقاء أحياء بالقليل نسبيا من الطعام والماء، وبقبول للأوامر مصحوب بتساؤلات أقل من تساؤلات نظرائهم البالغين. «الجنود الصبية مثاليون» هذا ما يقوله د.إدوارد ناهيم الطبيب النفساني بسيراليون الدولة الواقعة في غرب أفريقيا ورئيس الهيئة المحلية غير الحكومية الخاصة بالأطفال المنضمين للحرب والتي تساعد الجنود الأطفال السابقين على العودة إلى الحياة المدنية. ويضيف د.ناهيم: «إنهم طيبون عند تلقي الأوامر، وليست لديهم مسؤوليات كثيرة خارج نطاقاتهم، والحرب بالنسبة للكثير منهم تصبح لعبة يستمتعون بها».

حال الأطفال هو واجهة أي مجتمع، وليس هناك رمز أكثر إثارة للمشاعر من ذلك فيما يتعلق باستعداد العسكريين المتطرفين لرهن مستقبل مجتمعاتهم باحتياجات الحاضر. وأي أمل في إنقاذ الأطفال يتطلب أولا اعتراف ضباط الجيش المنظم وسادة الحرب المتمردين باستخدامهم للأطفال ثم يأتي بعدئذ تسريحهم لجنودهم الأطفال. وقد قيل للمشتغلين بالعمل الاجتماعي في سيراليون على لسان قائد وحدة عسكرية مؤيدة للحكومة إنهم إن كانوا راغبين في تسريح الجنود الأطفال الموجودين تحت إمرته فعليهم تقديم «مظاريف بنية» تحوي أوراقاً مالية. وفي ليبيريا المجاورة أنكر تشارلز تايلور قائد الانشقاق، وبعناد، في مقابلة صحفية أن يكون أي أطفال قد قاتلوا معه، وهو الذي ربما تكون حركة انشقاقه الحركة الأكثر تنظيماً في أفريقيا في

استخدام الجنود الأطفال وفي الاحتفاظ بوحدة صغيرة خاصة من الصبية. وحين سُئل عن صبي صغير يرتدي خوذة كرة القدم زرقاء لامعة ويحمل كلاشنكوف AK – 47، كان يحصّن متراساً على الطريق السريع الرئيسي الذي يربط الشمال بالجنوب، سلّم تايلور بوجود بعض الصبية حول المكان، يؤدون وظائف بوصفهم مساعدين عسكريين، وأضاف إن من معهم بنادق من بينهم استعاروها من قادتهم للتباهي بها، وفي رأيه إنهم مجرد صبية «مرحون».

إن ذلك الردّ المتعلق بالمشكلة والمستخفّ بالعقول ردّ شائع. ففي موزمبيق وعقب اتفاق السلام الموقع في أكتوبر 1992 بدأت القوات المسلحة من الجانبين تنشط في مناطق التجميع، حيث كانت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تساعد في تسريح الجنود وفي إنشاء قوات جديدة غير سياسية. وموضوع الجنود الأطفال كان «محرما» فيما بين قادة رينامو، الذين أخضعوا صبيانهم المجندين إلزاميا في قواعد محروسة جيداً في عمق المناطق المسيطر عليها من جانب المتمرد. ومثلهم مثل تايلور كانوا ينكرون وجود الأطفال. والحقيقة المربكة ظهرت في مارس 1994 في قاعدة المتمرد الواقعة في نيفيز بإنهامبين حيث التقى موظفو الأمم المتحدة والصحفيون وقائد قوات رينامو «الفونسو دلاكاما» في احتفال لتسجيل أول تسريح لجنود رينامو الأطفال. فقد أقرّ الشاب المختار كجندي نموذجي لقوات رينامو أمام الضيوف المجتمعين بأنه كان في السادسة عشرة حين ألحق بتلك القوات وأنه حارب ثماني سنوات. واستخدام الجنود الأطفال كان شائعاً للغاية حتى أن القادة المحليين لم يرون الأمر بوصفه كارثة متعلقة بالعلاقات العامة. إن المناظرة أثيرت بفضح دلاكاما المسكون بالأرواح الشريرة، وأفسدت زيارة متوقعة إلى واشنطن، وعند عودته إلى موزمبيق حاول دلاكاما دفن المسألة واصفا استخدام الأطفال بأنه «تقليد خاص بحركات التحرر الأفريقية»، وهذا تعبير صحيح للأسف، وإن كانت الممارسة شائعة أيضا في آسيا وأمريكا اللاتينية. وعقب ذلك التصريح كان قادة رينامو مكرهين على التعاون مع الأمم المتحدة. وقدّموا، على مضض، قائمة بتسع عشرة قاعدة كان يعيش فيها 850 طفلاً، وتم التخلّي عن أكثر من 2000 على الأقل دون إكراه إما بتركهم يعودون إلى منازلهم أو يهاجرون إلى المدن الكبيرة، حيث يدبّرون قوتهم في الشوارع بأساليب بارعة.

مع أن نسبة مئوية صغيرة نسبياً من أطفال أفريقيا هم جنود أطفال إلا أن عسكرة جزء من الشباب يضاعف المخاطر بالنسبة للجميع. وليس هناك جيش يمكنه الادعاء باحترام القوانين الدولية التي تحمي النساء والأطفال في الحرب حين يُسلّح طفل متجول عديم الأهلية. إن كل طفل هو هدف محتمل. وقد لفت عمق المشكلة انتباه العالم في عام 1986 حين سار يويري موسينفيني من حركة المقاومة القومية في شوارع كمبالا في أوغندا

مصحوبا باثني عشر صبيا صغيرا بعضهم أقل من الخامسة وهم يحملون أسلحة. وبعدئذ وثّق بدقة إشراك الجنود الأطفال في أفريقيا في الحروب الأهلية في أنجولا وأثيوبيا وليبيريا وموزمبيق ورواندا وسيراليون والسودان وأوغندا. وفيما بين «وحدات الدفاع الذاتي» المدينية في مناطق تابعة لجنوب أفريقيا.

بحلول عام 1988 كان هناك 200 ألف جندي طفل منتشرين في كل أنحاء العالم، مع أن البروتوكولات المضافة في عام 1977 لاتفاقيات جنيف تحظر تجنيد الأطفال تحت سن الخامسة عشرة كجنود، وهو العمر الذي يعتبره معظم المدافعين عن حقوق الإنسان، وياله من سخف، سن الشباب، وحين سقطت الحكومة الأثيوبية بقيادة هايلي منجستو ميريام في عام 1991 يقال إن نحو15 في المئة من أفراد الجيش كانت أعمارهم أقل من ثمانية عشر عاماً. وقد كانوا أساساً شبانا ملتقطين من الشوارع في حملة عسكرية سيئة السمعة أجبروا فيها على الالتحاق بالجيش كجنود جدد، وتسمى هذه الحملة حملة أفيسا Afesa في أمهارك. في موزمبيق يتراوح عدد الأطفال الذين حاربوا مع متمردي رينامو من 2300 إلى 10 آلاف طفل. وقد كشفت دراسة مستقلة عن أن 28 في المئة من الأطفال المختطفين على يد رينامو دربوا على القتال وأن متوسط أعمارهم في الأقاليم الجنوبية كان أحد عشر عاماً ونصف العام. وتجبر الحكومة أيضا وأحيانا الأطفال المجندين على السير إلى المدارس وتطالب مديريها بوضعهم في قوائم الطلبة الحاضرين أو المتسربين. وفي حالة أعلن عنها في يونيو 1990 أعفي قائد ونائب قائد الميليشيا الشعبية الموزمبيقية في مقاطعة شمالية من منصبيهما بعد أن أطلقا النار من أسلحتهما في الهواء أثناء الاحتفالات باليوم العالمي للطفل وبعد أن كانا قد جندا الصبية للخدمة العسكرية تحت التهديد بالموت رمياً بالرصاص. وأجبر الآلاف من الأطفال في رواندا من جانب البالغين، بدءاً بالآباء والأعمام وانتهاء بقادة وسياسيي الميليشيات، أجبروا على الاشتراك في عملية الإبادة الجماعية التي جرت في عام 1994 ضد الأقلية وهم شعب توتسي. وقد كشفت دراسة للأمم المتحدة أجريت في عام 1995 في أنجولا أن 36 في المئة من الأطفال رافقوا ودعّموا الجنود، وأن 7 في المئة منهم أطلقوا الرصاص على شخص ما. كما أن ألف جندي صبي حارب مع جيش حكومة أنجولا، وأن حركة المتمرد جوناس سافيمبي أنزلت 7 آلاف صبي إلى ميدان القتال. وتقدر اليونيسيف أن ربع المقاتلين في الحرب الأهلية الليبيرية، وهم نحو ألفي جندي، من الأطفال. وفي سيراليون المجاورة يصل أفضل تخمين للعدد الكلي إلى 4 آلاف جندي، نصفهم يحارب دفاعاً عن الحكومة والنصف الآخر يحارب مع المتمردين.

ثمة طرق مختلفة تجلب الأطفال إلى خطوط القتال، البعض يسحب عنوة من جانب الجيوش الحكومية أو سادة الحرب المتمردين المحتاجين

لتعزيز قوة الجند. والبعض الآخر يستخدم لنصرة قضية عن طيب خاطر. وقد يرغبون في الهرب من سأم معسكرات اللاجئين أو في الثأر ممن هاجموا أسرهم وقراهم. وربما لأنهم لا يجدون مكانا آخر يذهبون إليه. قد يكونوا ثملين بالقوة والهيبة الصادرتين عن السلاح أو ربما يكونوا باحثين عن حسّ الانتماء الذي لا يجدونه بعد ذلك في مجتمعاتهم الممزقة بالحروب. يقول سالومون بريما المنسق السيراليوني لخدمات المعونة الكوثوليكية في مدينة بو Bo الجنوبية: «إن كسر الثقافة التقليدية يعتبر مسؤولا عما يجري». وهو يعزو استخدام الجنود الأطفال والآثام الفظيعة في تلك المنطقة إلى الانهيار التدريجي لعبادات الاستهلال عند شعب ميندي، حيث بورو Poro للرجال وساندي Sande للنساء. والاستهلال هو العبور من الطفولة إلى تحمل البالغ للمسؤولية وولائه للمجتمع الأوسع. وبورو من حيث الرمز «شيطان» يخطف الأطفال من منازلهم إلى حيث يحمّلهم الشيوخ الأكبر سنا في المجتمع المسؤولية من خلال تعليم صارم لمأثورات ثقافية وفنون وحرف تقليدية. وقد تلقى المجتمع التقليدي عدداً من الضربات، أولاها القمع الشديد على يد السلطات الاستعمارية البريطانية، وفيما بعد عملية التحضر المرتبط بالاستقلال، ثم انتشار الأسلوب الغربي في التعليم، والآن الحرب. يقول بريما: «إن انتهاك المزارات المقدسة في الريف، وازدياد العلاقات فيما بين النساء الصغيرات، وضياع الكرامة والنفوذ فيما بين شيوخ المجتمع مزقت جميعها النسيج الاجتماعي». إن التدمير الذي لحق بالقيم ملموس. فبعض الأسر الفقيرة في سيراليون تكون مسرورة بالفعل حين يلتحق أطفالها بالجيش لأنهم يستطيعون إحياء الخصوصية المسلوبة في جبهة القتال.

لم يكن الجنود الأطفال يشكلون مشكلة في سيراليون حتى اندلاع الحرب الأهلية في مارس عام 1991. وقد أثير الصدام من جانب زمرة تشارلز تايلور المسلحة القريبة من ليبيريا بسبب دعم سيراليون للمتنازعين المعارضين دفاعاً عن السلطة. وكان تايلور متضايقاً، على الأخص، حين سمحت السلطات في فريتاون باستخدام سيراليون كمنطقة تجمع لعمليات قوة التدخل العسكري لغرب أفريقيا في ليبيريا. ورداً على الشر بمثله اتبع تايلور سياسة تذكرنا بتصرفات روديسيا ضد موزمبيق. فسلح وأمدّ حركة حرب عصابات للضرب بخفة على التحرر من الوهم واسع الانتشار بين النخبة بالغة الصغر في فريتاون، العاصمة المتداعية للسقوط والتي تتخذ اسمها من أيام في القرن التاسع عشر اعترضت فيها سفينة بريطانية مزودة بالمدافع سفناً محملة بالعبيد كانت متوجهة إلى الأمريكتين وأنزلت حمولتها البشرية فوق الشواطىء المحلية. وفي خلال عام عاد ضباط الجيش من الجبهة ليعلنوا أن الرئيس جوزيف موموه Momoh يرشو بشكل مبتذل كل أعضاء الكونجرس، فالحكومة تدفع لهم وتطعمهم وتشبع رغباتهم بانتظام. وفرّ موموه

من البلاد وأسس الضباط الصغار المجلس القومي المؤقت للحكم لتسيير أمور البلاد والحرب. وأصبح النقيب فالنتين ستراسر رئيسا للدولة وهو في سن السابعة والعشرين الغضّ، وبصوره ذات الوجه الشاب، وياللأسف، المعلقة في مكاتب دواوين الحكومة والفنادق والمحلات على امتداد فريتاون، بصوره هذه كان يشبه إلى حد ما دكتاتورا طفلا. وطوال السنوات القليلة التالية جَنّد الأطفال، وبهمة، كل من الحكام العسكريين وحركة التحرر المعروفة باسم الجبهة الثورية المتحدة. وكما في موزمبيق، خرجت الحرب بعيدا عن حدود السيطرة، وكانت الضريبة فادحة. مات نحو عشرة آلاف وفرّ نصف مليون من البلاد.

الجنود الأطفال هم بشائر نظرية «الفوضى القادمة» التي أصبحت موضة بين بعض الكتاب الغربيين المؤثرين. ويقال إن سيراليون أضحت المثال الكامل على ما ينتظر غرب أفريقيا والبلدان الأفقر في العالم النامي. وسوف تتضافر الزيادة السكانية مع التدهور البيئي والصدام المسلح حول الموارد المتضائلة وانتشار الأمراض المميتة لدفع سيراليون وعدد لا حصر له من الشعوب الأفريقية من فوق حافة الهاوية إلى الهيولىّ، أو هكذا يمضي التنبؤ. من المستحيل أن نتحدث عن الزيادة السكانية في إقليم كبير مثل اسكوتلندا أو ولاية نيويورك التي يقطنها 4,5 مليون نسمة، فالبيئة لا تبدي أية علامات على التدهور، في حين تعاني سيراليون حرمانا شديدا من الموارد، وهي التي عرفت فيما مضى باسم «أرض الحديد والماس»، وأنعم عليها برواسب ضخمة من الماس وخام الحديد والروتيل والبوكسيت والذهب. ومع كل هذا فحقيقي أن سيراليون تصنّف الآن كواحدة من أكثر بلدان العالم إفقاراً. والتفاوت الواسع في توزيع الثروة هو المشكلة وهو الكامن وراء القول الشائع: «ليس لدى سيراليون سبب لتكون فقيرة».

الخطأ الحاسم في حجة «الفوضى القادمة» صدى معاصر للرأي الاستعماري الذي أعتقد أنه قبل وصول السلطات الأوروبية كانت أفريقيا لوح أردواز أبيض - لم يكن ثمة مجتمع مدني يمكن التحدث عنه. ومن جديد يغفل العامل الإنساني في التحليل. إن مئات السيراليونيين المتفانين لا يستخفون بالمشاكل العسيرة للوطن بل يضعون الأساس من أجل مستقبل أفضل. قد يخسرون معركة إيقاف مستقبل الهيولى والصدام، لكن لو أنهم فعلوا هذا فهو لن يحدث دون كفاح. كيف، وبطريقة أخرى، تفسر الانتخابات الديمقراطية التي أجريت في سيراليون في مارس 1996 حين واجه الناخبون، رغم كل التكهنات المعاكسة، التهديدات والرمي العشوائي بالرصاص والعداء الفعلي من الجانبين، جيش الحكومة ومتمردي الجبهة الثورية المتحدة، لاقتسام أوراق اقتراعهم. حين عقد الساسة الأكبر سنا اجتماعاً قبل تاريخ التصويت بالضبط، لتقرير ما إذا كان مناخ العنف يفرض تأجيل الموعد، قوبلوا بحشد صاخب من المجتمعين المؤيدين للديمقراطية تقوده زينب

بانجورا، وهي عقلية كبيرة في حركة المرأة. ووافق السياسيون وبتردد على إكمال عملية التصويت، وسار الاقتراع كما كان متوقعاً بهدوء ملحوظ. وبعد ذلك بأسابيع سلمت الحكومة العسكرية السلطة إلى حكومة الرئيس تيجان كاباه المنتخبة. إن تضافر اللوبي ذي الصوت العالي مع جماعات المرأة ومنشطي حقوق الإنسان والصحافة والنمو السياسي التلقائي السريع لمجتمع داعم للديمقراطية، أثبت أن المجتمع المدني السيراليوني الذي يُزعم أنه مجروح أخلاقيا لا يزال نابضا بالحياة.

في ميدان القتال كونت الميليشيات الدفاعية جماعات من الصيادين التقليديين عرفت باسم الكاماجورز Kamajors. وقد أنشئت هذه الجماعات على الأخص في جنوب سيراليون إثر هجمات شديدة من جانب متمردي الجبهة الثورية المتحدة أو من جانب جنود الحكومة الموجودين خارج الخدمة، والذين يدعون باسم سوبلز Sobels، وكانت هجمات الجنود تشن أثناء النهار وهجمات المتمردين تشن خلال الليل.

والكاماجورز المسلحون ببنادق قديمة ذات ماسورة واحدة، اعتادوا أن يصطادوا بها الطرائد الصغيرة، سرعان ما تحولوا إلى سلاح فعال ضد متمردي الجبهة الثورية المتحدة مستعينين بمعرفتهم للطرق السرية للأدغال. إن المرتزقة المدربين في جنوب أفريقيا والمستأجرين من جانب الحكومة ربما هم من أبقوا المتمردين عند الخليج حول مناجم الماس، ولكن الكاماجورز المستخدمين بوساطة الجماعات والرؤساء المحليين أحدثوا معظم الخسائر بالقرب من معاقلهم الصحراوية. في ديسمبر عام 1996 اتفق الرئيس كاباه مع الجبهة الثورية المتحدة على شروط السلام. وحين كان قائد الجبهة الثورية المتحدة فودي سانكوه يجر قدميه لإنجاز اتفاقية السلام كان أعضاء حركته قد أزاحوه. وفي مايو عام 1997 صُدمت سيراليون بانقلاب آخر، تحقق هذه المرة على أيدي الجنود الساخطين الذين تعصبوا لأعدائهم السابقين وهي الجبهة الثورية المتحدة. والآن توجد الحكومة المنتخبة في المنفى وتواجه سيراليون عزلة دولية.

المهمة الحاسمة في إعادة بناء الوطن هي إصلاح الأطفال العسكرين قبل التغلب على نقص المدارس وتوفير فرص العمل، ففي حالات كثيرة تدفع الأسر الأطفال لتوظيف مهاراتهم العسكرية في عالم الجريمة. إن بعض الجنود الأطفال ينشأون في عائلات ثرية. غير أن الحالة النموذجية هم الأطفال القادمون من أسر فقيرة وكادحة تعيش في أحياء قذرة مزدحمة بالسكان داخل المدن، والمقيمون في منازل ريفية منعزلة في منطقة الحرب أو في المخيمات البائسة لمن شردهم القتال. ويغذي شعور هائل بالإقصاء الاجتماعي ظاهرة الجنود الأطفال، وهو شعور يستغله القادة المتمردون بمهارة. ففي الأماكن النائية داخل سيراليون وليبيريا تجهز قاعات فيديو تعمل

بمولدات كهربائية لعرض أفلام حركة عنيفة مثل «أول قتل» First Blood لتلقين المحاربين الصغار مبادىء القتال. ورامبو المحارب القديم في فيتنام وغير المتعلم، الذي يلجأ إلى براعته ومكره العسكريين لرد مجتمع اضطهده كمتشرد، هذا الرامبو ذو رنين قوي. وشخصيته تشبه شخصية موسى وو Musa Wo الشاب المخادع الاسطوري في تقاليد قبيلة ميندي في جنوب غرب سيراليون. واستغلال جرأة وتمزق موسى وو يراد بها تذكير الأكبر سنا في قبيلة ميندي بعدم إهمال الشباب واستخدام طاقاتهم لخير المجتمع.

الجنود الأطفال العصريون يحملون رسالة مشابهة. إنهم مصابون بالعنف، والفترة الطويلة التي يقضونها في النظام الفاشستي للحياة العسكرية تجعلهم أقل احتراماً للمدنيين وغير قادرين على اتخاذ قراراتهم الخاصة. «إنهم لا يتقبلون أية أوامر إلا من ضباطهم العسكريين». هذا ما يقوله الأب ميك هيكي القس الإيرلندي الذي يعمل مع الجنود الأطفال المسرحين من الجيوش في سيراليون. ويضيف: «إن لديهم ازدراء تاماً للحياة المدنية». وما لم يستطيعوا العثور على مكان يعيشون فيه فسينتهي بهم الأمر إلى الانحراف – الأولاد يتحولون إلى لصوص مسلحين والفتيات يصبحن مومسات– وتغدو الأعراف الاجتماعية عندهم ذات مغزى تافه، والعنف وسيلة مقبولة للعلاقات الاجتماعية. ووفقا لجالو الموظف باليونيسيف: «يجب تزويد الطفل بشعور الانتماء إلى مكان ما سواء أكان الأسرة أو المجتمع أو أي نظام آخر». ويضيف: «إن عودة الأطفال إلى الوضع السويّ ستكون بطيئة جداً ومؤلمة جداً». لقد ثبت أنه أمر صعب ولكنه ليس مستحيلاً.

محاولة إعادة بناء ثقة الأطفال في المجتمع المدني هي لب مشكلة الأطفال الملحقين بمشروع الحرب في سيراليون. والدكتور ناهيم الطبيب النفساني هو عضو لجنة المشروع والأب هيكي هو الذي يقدم البرنامج. وانطلاقا من بدايات متواضعة أصبح الأطفال الملحقون بالمشروع أحد أعظم الجهود الناجحة في أفريقيا والهادفة إلى لمّ شمل الجنود الأطفال. والشباب البالغون الذين يعملون كمستشارين للمشروع ويقومون بمهمة البدلاء الرمزيين للرجال الأكبر سنا في قبيلة ميندي، المتعاملين مع المخادع المزعج موسى وو، هؤلاء الشبان البالغون يتصرفون كإخوة كبار للأطفال لجعلهم يركزون على إعادة بناء حياتهم. إنهم أناس مثل إيمانويل فويوه، الرجل الطويل الهادىء الذي تومىء تقطيبته الدائمة إلى ألم مخفي. ورغم أن شريكيه في العمل أجناتيوس صامويلز واسماعيل ابراهيم شابان أخف روحاً إلى حد ما، إلا أنه يبدو أن شيئاً ما يزعجهما أيضا. فالمال غير كافٍ وبعض المراهقين الذين ينصحونهم يلمحون إلى أن فويوه وزميليه يسرقون الاعتمادات المالية المخصصة لهم. والمشكلة تنشأ من رسالتهم: تقديم القدوة لقتلة مدربين في الثامنة عشرة، وإن كانوا مراهقين، بالرجوع إلى

مجتمع بو. يقول فويوه: «إنه عمل محفوف بالمخاطر لأقصى درجة». ثم يضيف: «إننا نتعامل مع أطفال رفعوا السلاح، وحينما لا تتحقق أحلامهم فقد يقررون أننا الملومون».

فويوه وصامويلز وابراهيم رجال أذكياء متعلمون في أواخر العشرينيات من أعمارهم. وهم يستطيعون بالتأكيد العثور على أعمال أخرى. فلماذا إذن يعملون مع الجنود الصبية. يقيناً ليس من أجل المال. فرواتبهم الشهرية وهي نحو خمسين دولاراً لا تسدد نفقات المعيشة في مدينة تنقطع عنها التموينات الغذائية لشهور بسبب كمائن الطرق السريعة، فترتفع الأسعار في أسواق العراء.. يقول فويوه إنه كان لاجئا مثل معظم ما يقدر بـ 300 ألف نسمة في بو، وكان مستشاراً لبرنامج الجنود الأطفال في مدينة كويدو الشرقية في قلب منطقة مناجم الماس في كونو حتى اجتاحت الجبهة الثورية المتحدة المنطقة. وأن الخمسة والخمسين جندياً طفلا الذين عادوا بالكاد إلى الحياة المدنية اختفوا تماماً، وربما جند الكثير منهم عنوة في صفوف المتمردين. فشق هو طريقه إلى بو وتطوع على الفور كمستشار. ويقول فويوه: «ماجنيناه هو الحد الأدنى». ويضيف: «ليست هناك علاوة انتقال ولذا يتحتم أن نزور الأطفال سيرا على الأطفال، وهذا أمر صعب أثناء الأمطار الغزيرة. لكن إذا لم يساعد شخص ما هؤلاء الأطفال فسوف تمتلىء البلاد بقطاع الطرق المسلحين. ولن يوجد سلام أبداً في سيراليون».

ويومىء صامويلز وابراهيم بالموافقة. ثم يتساءل صامويلز: «ماذا سيحدث لهؤلاء الأطفال إن لم يكن لديهم ما يفعلونه؟». ويقاطعه فويوه قائلا: «ثمة أشغال قليلة، وكل ما تعلموا أن يفعلوه هو القتال بالأسلحة».

ويضيف: «إن الكثير من الأطفال يعودون إلى الحرب لأنهم لا يستطيعون التكيف مع هذا النمط للحياة المدنية. والمشكلة الحقيقية ستحدث بعد الحرب. إن بلادنا تدرب هؤلاء الأطفال ليصبحوا قطاع طرق، وقد ينتهون إلى ما هو أسوأ من المتمردين. ولذا فإننا نعمل في هذا البرنامج من أجل مستقبل بلادنا. قد لايبدو عملاً يحبه المرء كثيرا، ولكنه إلى حد ما قد يكون الشيء الأكثر أهمية الذي لن نفعل مثله في حياتنا».

إن عدد الـ 370 طفلا الذين أدخلوا أول الأمر في برنامج التسريح الشامل لأرجاء الدولة يتكون من الموالين للجيش والحكومة العسكرية في فريتاون. والكثير منهم كانوا متطوعين. أما الآخرون فقد التقطوا في مكانس عسكرية لكنس الشوارع. ويقول فويوه بمرارة: «لقد استخدم الأطفال ككلاب الصيد». ويضيف «كلما حدثت معركة تراجع الجنود الأكبر سنا، وهم الذين لهم زوجات وأطفال، إلى الخلف تاركين الأطفال في المقدمة». الفرقة العسكرية الأولى من الجنود الأطفال في سيراليون، وأصغر من فيها كان في السابعة، سرحت من الخدمة في يونيو عام 1993، وكان الهدف الأول هو العثور على أسرهم الحالية أو،

على الأقل على أقربائهم المقربين الذين يعيشون في مناطق آمنة نسبياً. وحين استغرقت جهود اللجنة الدولية للصليب الأحمر وقتا أطول مما ينبغي أعد الدكتور ناهيم والأب هيكي فريقا أسرع من السيراليونيين لاقتفاء أثر الأسر. وقد سكّنوا وأطعموا الصبية الذين كان الكثير منهم تعيساً بشدة لتركه الجيش. ويقول الأب هيكي: «لقد كانوا عدوانيين جدا، ومزعجين لدرجة كبيرة، يتعاركون في أغلب الأحيان، كما أنهم لم يناموا كما ينبغي طوال الشهور الأولى». وبعد نحو ستة أشهر بدأ معظمهم يركن إلى الهدوء. وهؤلاء هم من لم يغروا للالتحاق بالجيش من جديد. وإلى حين اكتشاف صلات الأطفال الملحقين بمشروع الحرب بذويهم كان من اللازم العثور على شيء ما بناء بالنسبة لهم مثل حرفة أو مدرسة. ولما كانت معظم أسرهم تواجه مشاكلها الاقتصادية الخاصة فقد قدم لهم المشروع رواتب صغيرة لتشجيعهم.

تعتبر الأسابيع والشهور الأولى التالية بعد ترك الأطفال للجيش وقتا حاسماً في أي مخطط إعادة تأهيل، لأنها حدود الفرصة المتاحة للمستشارين كي يتغلبوا على التدمير الذي أحدثته الحياة العسكرية السابقة ووضع شيء ما جديد مكانه. وفي بعض البلدان، مثل موزمبيق، تحول اهتمام المشتغلين بالعمل الاجتماعي إلى الأشكال الثقافية التقليدية مثل المداوون Curandeiro لإقامة احتفالات تطهير بهدف كسب رضى مجتمع الأطفال المشاكسين. بينما في سيراليون يتكل الأطفال الملحقون بمشروع الحرب على النصح العاطفي من جانب شاب مفوض مثل فويوه لجعل الأولاد والبنات ينهمكون في مدرسة أو في امتهان حرفة.

يتجول فويوه وراء مركز بو للرعاة الروم الكاثوليك المبيّض بالجير بحثا عن دكان نجارة يستعمل كمكان مؤقت لتعلم بعض الجنود الأطفال السابقين حرفة البناء. كانت نشارة الخشب تسقط على الأرض في أكوام كنفايات، وثمة شاب صغير نحيل وقوي اسمه فودي مصطفى، عاري الصدر ويرتدي سروالا مقطوعا، يدفع فأرة النجارة على امتداد لوح خشب. إنه متحمس لعمله، يلتقط المهارات بسرعة ويشير إلى أنه جاد في الطريق إلى «القضاء على الماضي». وإن كان مستقبله لا يزال غامضا. إن فرص العمل نادرة في بو، التي كانت محاطة بالمتمردين وبالعشرات من قطاع الطرق لفترة طويلة. وبعد وصوله إلى بو عاش فودي مع أخ أكبر سنا ملتحق بكلية الكتاب المقدس. لكن لأنه لا يكسب أية نقود كان الطعام بالنسبة له همّا دائما. ومع هذا فقد زوده التدمير الشديد للحرب بالأمل في أن تكون حرفته الجديدة مطلوبة جدا. «هناك دائما عمل للنجار» هذا ما يقوله فودي وهو يضحك. ويضيف: «ليس هناك الكثير من أعمال البناء في سيراليون». وتقدّم فودي حدث بصورة نموذجية للغاية حتى أن فويوه وزميليه عينوه رئيسا لجماعة «الأطفال المعاد استقرارهم». وليس هذا قولنا عن فودي وإنما هو بعبارات

فويوه «ملائم تماماً كرئيس». إنه يقهقه في الغالب أكثر مما ينبغي حتى في الأوقات الحرجة ومن السهل أن تجده شارد الفكر. ويبقى أنه يبدو غلاماً عادياً يمتهن حرفة النجارة حتى هو يشير إلى الندوب الموجودة فوق ساقيه والناجمة عن جروح الشظايا التي أصابته في المعركة.

جُنّد فودي أربع سنوات من أبكر سنوات العمر، وبالضبط عقب بدء حرب متمردي الجبهة الثورية المتحدة. كان في الثالثة عشرة، يعيش مع أسرته في أقصى مدينة بشرقي إقليم بنديمبو، وهو أحد المراكز المبكرة للصوص والمتشردين. «قررت الانضمام إلى الجيش بسبب ما فعله المتمردون بأسرتي. فقد قتلوا أخي الأصغر وزوجة أبي وخالي» هذا ما يقول فودي. ويضيف: «دخل المتمردون المنطقة فحرقوا منازل الأهالي، ولم أكن موافقا على هذا». من بقي من أسرته انتقل إلى معسكر اللاجئين، لكن فودي فرّ إلى ثكنات الجيش في الإقليم الشرقي بالقرب من دارو وتطوع على الفور مع اثني عشر صبياً وصبية آخرين في مثل عمره. وقد استرجع هذه الأيام المبكرة بوصفها زمن الصداقة الحميمة والإثارة بعيدا عن العمل الشاق لحياة الريف ومعسكر اللاجئين. وحاز على كلاشنكوف AK-47 وأصبح مقاتلاً ناضجاً. ويضيف: «التدريب كان شاقا جدا، ولا تستطيع أن تعصي الأوامر، وقد اعتدنا أن نقول: اطع الأوامر».

أحد جوانب الحياة العسكرية التي لم يكن يتوقعها هو التعاطي الشديد للمخدرات، وعلى الأخص قبل القتال. وإساءة استعمال المخدرات متفشية على كلا جانبي الصدام في سيراليون، كما هي الحال في ليبيريا، وأصبحت سمة رئيسية في الحياة العسكرية. إن الجنود الأطفال مستنزفون تماماً بتشكيلة من المخدرات: الكحول، الكوكايين، الماريجوانا والإفيدرين، والأخير مكوّن نشط من مكونات دواء الربّو. بالإضافة إلى ما يجب أن يشكل حلم تاجر السلاح وهو البارود: المادة المساء استخدامها على نحو أكثر شيوعاً. «إما أن تشربه مع الكحول أو تطبخه مع الطعام» هكذا يفسر الأمر د. ناهيم. ويتفق فودي معه في الرأي قائلا: «إنه يجعل الناس متنبهين جدا ويزيل خوفهم. وبعد أن تستهلك البارود لفترة لا تصبح الشخص نفسه». ويضيف «كنا نمنح قدرا من المخدرات لجعلنا أقوياء. مخدرات مثل البارود والكوكايين.. في طعامنا. إنها تجعل قلبك جامداً، وتكسبك حماساً. لقد جعلتني أشعر بأني لست خائفا من أي شيء». ويقول د. ناهيم: «إن المتمردين يتعاطون المخدرات طوال الوقت. فهم يحقنون بالكوكايين وأحيانا بالهروين. وهو جزء من راتبهم يقدمه مهربو الماس».

من مجند جديد متحمس مصمم على الانتقام حُوّل فودي إلى آلة قتل كبيرة، وساخر بالعالم في الرابعة عشرة من عمره مزود بمواد مبدّلة للقدرة العقلية، وهو يراقب أصدقاءه يسقطون صرعى في ميدان القتال. «ذات مرة كنا في موباي وأمرنا

بالهجوم على قاعدة للمتمردين بالقرب من بايما» يتذكر فودي، ويضيف: «ذهبنا إلى هناك، وشن المتمردون هجوما معاكسا. وكان معظم الأطفال في المقدمة، واصطيد الكثير منا بالبنادق ونحن نتقدم». وفي مرة أخرى دخل هو وثلاثة من أصدقائه في كمين وهم سائرون من ثكناتهم في دارو إلى موباي المدينة القريبة. فقتلت قنبلة يدوية أصدقاءه وأصيب هو بجروح. وفي أغلب الأحيان يكون العدو جماعات أخرى من الأطفال المسلحين. «وقد استطعنا رؤيتهم وجها لوجه، وكانوا صغارا مثلنا. وذات مرة كانت بينهم هذه الفتاة، التي لا يمكن أن تزيد على الثلاثة عشر عاماً، وكانت تقاتلنا بشراسة. ولم يتمكن أحد من إيقافها حتى قتلها قائدنا آخر الأمر بطلقة رصاص».

بعد عامين تقريبا أوقعت بهم المخدرات والدماء وفقدان الأصدقاء خسائر جسيمة. «لم أكن أحُسّ بالرضا عن وجودي في الجيش بعد ذلك الوقت، وفي بعض الأحيان كنت مريضا». ويقول د. ناهيم : هذا رد فعلا شائع. «وبمرور الوقت جعلت المخدرات الجنود مهتاجين ومرتبكين، ويبدأون في فقد إحساسهم بالزمان والمكان، ثم يشرعون في رفض تلقي الأوامر ويطلقون النار في الهواء بصورة عشوائية. إنهم يخرجون عن نطاق السيطرة.» سمحت حكومة ستراسر العسكرية لممثل اليونيسيف بزيارة الثكنات الرئيسية على امتداد البلاد وتقديم مخرج للجنود الأطفال. لكن هذا الموظف أعطى وعودا غير واقعية جعلت الأطفال ممرورين. وحين أنهى تعاقده وترك البلاد بعدئذ بسبعة أشهر انسحب اليونيسيف مؤقتا من المشروع تاركا إياه لائتلاف من القساوسة الروم الكاثوليك والسيراليونيين المعنيين بالأمر لجمع ما تبقى وتكوين ما سمي (ائتلاف) الأطفال الملحقين على مشروع الحرب. ويقول فودي «إن الرجل القادم من اليونيسيف قال إن كل أطفالنا في سبيلهم إلى أن يسرحوا من الجيش». ويضيف : «كنا نود أن نكون قادرين على الذهاب إلى المدرسة وتعلم حرفة، نحن أطفال.. كنا موعودين بالنقود والإجازات والدراجات والأحذية والملابس، وبسبب هذا كنا سعداء. لكن تلك الوعود لم تتحقق. وأنا لا أملك حتى المال الكافي لشراء أدواتي الخاصة». وتشتد تقطيبة إيمانويل فويوه وهو يقول : «ذلك هو السبب في أن عملنا محفوف بالمخاطر».

النجم الذي لا جدال فيه لبرنامج لمّ شمل الأطفال في بو يمكن العثور عليه في حجرة إسمنتية شديدة الرطوبة في فندق خلف المستشفى العسكري. يبدو سايو -وهذا اسمه- للوهلة الأولى خجولاً متألماً. ويدّعي أنه يجهل الإنجليزية وأنه على دراية بسيطة فقط بلغة الكريو، وهي لغة مشتركة لشاطىء غرب أفريقيا نشأت من خليط من الإنجليزية والبرتغالية وحشد من اللغات الأفريقية. ويتدخل فويوه ويقنع سايو أنه سيشعر بالحرية في التعبير عن آرائه. وأصبح واضحاً في الحال أن سايو ليس جاهلا بالإنجليزية بل إنه

متمكن منها بامتياز وربما أفضل من لغة مستشاريه. ومضى وجهه بابتسامة مربكة حين أعلن فويوه بفخر أن سايو الذي كان جندياً طفلاً إلى ما قبل عامين هو الآن، وهو في السابعة عشرة، طالب نموذجي على رأس فصله في مدرسة بو الثانوية التجارية. إن صوته الرقيق وجلده الأملس وتواضعه الواضح جعل من الصعب فهم كيف عثر طفل كهذا على طريقه في أحد أقذر الحروب الصغيرة للقارة.

كان سايو يعيش مع أسرته في شمالي سيراليون حين اجتاحت القوات الثورية المتحدة قريته. وفرّ من المنطقة مع والديه وثلاث أخوات وانتهى بهم الأمر في معسكر لاجئين. وفي الرابعة عشرة انضم إلى الجيش. «كان هدفي من الالتحاق بالجيش هو الأخذ بالثأر مما فعله المتمردون بأقاربي» هكذا يقول. ويضيف: «لقد مزقوا أسلوب حياة أهلي. فأخي الأكبر ابراهيم كان عريفا في ذلك الوقت، ولذا فالالتحاق بالجيش بدا أفضل ما يمكن عمله. ووافق والديّ على القرار لأنه ليس لديهما المال لإطعامي أنا وأخواتي الثلاث»، بمباركة والديه وعلاقات ابراهيم شق سايو طريقه نحو الجنوب باتجاه ثكنات دارو حيث جاور فودي وبضع عشرات آخرين من الأطفال. ويضيف: «كنت جنديا عادياً، وكنا نؤمر بالقتال في أي وقت. كانت حياة خشنة جدا، لكنك تعتاد عليها بعد حين، إن وجود أطفال حولي جعلها أهون».

الجنود، الأطفال منهم والبالغون على السواء، لا يتقاضون رواتب تقريبا ويتلقون القليل من الطعام. إنهم يأخذون ما يحتاجونه من المدنيين الذين يلاقونهم في الريف. «لم يكن لدينا نقود نشتري بها أي شيء، ولذا فأثناء المعارك كنا نكنس أي شيء نستطيع العثور عليه في القرى التي نستولي عليها. أنت مضطر لفعل أي شيء تقدر عليه كي تبقى حياً». هذا ما يقوله سايو وهو يدلّي رقبته في خجل واضح.

المستويات القصوى للوحشية وموت الكثير من رفاقه الصغار أقنعا سايو بأن الوقت قد حان لتغيير مسار حياته. وكان شكاكا في البداية. «أتى رجل ليخبرنا بأننا في سبيلنا إلى التسريح من الجيش. وقال لنا رؤساؤنا إن القدرة على ترك الجيش ميزة للحصول على فرصة الدراسة. ولم أكن مقتنعا إلى حد كبير بترك الجيش. فقد كنت معتاداً على الحياة فيه، ولدي بندقية تجعلني أشعر بأنني رجل كبير». لكنه يوافق على الذهاب إلى ملجأ مؤقت في فريتاون يدار بمعرفة «ائتلاف» الجنود الملحقين بمشروع الحرب. ويقرر بعدئذ الانتقال إلى بو ليعيش مع عمه، وهو ما جعله يستطيع الالتحاق بالمدرسة الثانوية المعتبرة إلى حد كبير.

وسايو طالب ممتاز وفصيح للغاية حتى أن المستشارين طلبوا منه الظهور في برنامج إذاعي لحفز جنود أطفال آخرين على التخلّي عن الجندية. «قلت لهم إن كل الجنود الصغار ينبغي أن يعودوا

إلى الحياة المدنية وأن يذهبوا إلى المدرسة، حيث إن الجيش ليس مكاناً للأطفال». هذا ما قاله سايو. وأضاف: «لكن بعد أن تحدثت في الراديو كان بعض الجنود الأكبر سنا في المدينة غاضبين مني. وقالوا إنني غبي لأني لا أعرف عما أتحدث». ورغم الانتقاد فهو مقتنع بأن ما قاله هو الصحيح.

الدعم الأسري القوي يسهل بجلاء طريق العودة إلى الحياة العادية بالنسبة للمحاربين الأطفال. وهذا حقيقي بصفة خاصة بالنسبة للفتيات الصغيرات اللاتي نشأن في صفوف الجيش. في أوغندا، البنات الهاربات يكن في أغلب الحالات «متزوجات» من قادة جيش المقاومة التابع للّورد والمستخدم في حرب عصابات في شمالي أوغندا ضد حكومة الرئيس موسيفيني. ولو أنهن عدن، وحين يعدن، إلى مدنهن وقراهن فسينظر إليهن غالباً كـ «سلع تالفة» وينتهي بهن الأمر كعاهرات. هذا صحيح أيضا في ليبيريا وموزمبيق وسيراليون. إن بعض البنات الصغيرات «جرايات». هذا ما يقوله فويوه بغضب مضيفا: «بمعنى أنهن يشبعن الرغبات الجنسية للضباط. هل تتخيل أن القوات المسلحة السيراليونية لديها بنات صغيرات مسجلات كجنود. وهذا يبين ما أصبح عليه حال هذا البلد!». لا يبدو على أنجيلا توكر أنها «جراية». وقد تطوعت مثل فودي وسايو للخدمة العسكرية وسرحت أخيراً. وتعيش الآن في فريتاون مع جدها المتزمت أندرو توكر. والناظر إليها الآن يجدها فتاة سمينة في السابعة عشرة ترتدي شورت الدراجة القصير وتي شيرت شرطة شيكاغو، وتسترخي في حجرة معيشة مريحة بمنزل جميل من منازل الطبقة الوسطى في ضاحية كيسّي بفريتاون، ومن الصعب تخيل أنجيلا وهي تحمل الكلاشنكوف AK-47 في دغل سيراليوني. إنها تخفي ابتسامة وهي خجلى إلى حد ما من مناقشة المسألة أمام جدها، الذي لم يكن يبتسم وهو يقول هازاً رأسه: «ما الذي يتلبس أطفال سيراليون ويجعلهم يفرون ويلتحقون بالجيش، أنا لن أعرف أبَداً». ويضيف: «أنا لا أفهم البتة هذا الجيل».

هربت أنجيلا من المنزل في يناير عام 1992 حين كانت في الرابعة عشرة. وكان أخوها مويري آنئذ في الخامسة عشرة وعريفا بثكنات دارو العسكرية، وكتب إليها عن الوقت الرائع الذي يعيشه في الجيش. تقول أنجيلا: «كنت ضجرة في فريتاون، من المدرسة ومن والدي الصارم جدا. وأردت أن أفعل شيئاً مثيراً». ثم تضيف: «أخبرني مويري بكيفية سلوك الطريق إلى دارو. وكانت لإحدى صديقاتي واسمها فيكتوريا عمة في الجيش روت لها أيضا كم هو مثير، وعليه فررنا معاً».

شقت أنجيلا وفيكتوريا طريقهما معاً إلى بو، وتطوعتا في الجيش، ورحلتا إلى دارو. وتقول أنجيلا «لقد كان رائعاً، وكنت قادرة على حمل الكلاشنكوف AK-47، وقابلت جماعة من الشباب في مثل سني، ولم نكن خائفتين أبداً». إن الجيش

يبدو وأنت تستمع إلى قصتها معسكراً كبيراً للشباب. والسبب الوحيد الذي جعلها توافق على التسريح من الجيش هو أن معظم أصدقائها، بما فيهم فودي وسايو، فعلوا ذلك. ولكن سرعان ما أصبحت متململة. وحين عادت إلى فريتاون أجبرت والديها على أن تعيش مع جدها. وكان عذرها أن المدارس أفضل في كيسّي، ولكن توكر الجد يعتقد أنها كانت تحاول الهرب من قيود المنزل. «ظنت أنها بالعيش معنا وليس مع والديها ستمتلك مزيدا من الحرية». هذا ما يقوله توكر الجد وهو يميل أحد حاجبيه ناحية حفيدته الشاردة. وتومىء أنجيلا برأسها مسلحة بالحقيقة. ويعلق الجد قائلا: «لكنها رحلت من مقلاة التحمير إلى النار».

ثبت في النهاية أن توكر الجد ليس رقيق الحاشية. فقد حرم أصدقاءها الأشد تمردا من دخول البيت. «كانت مخلوقا صغيراً خطيراً حين عادت من الجيش، ولكني لم أعاقبها لأني شعرت أنها ندمت وعانت بما يكفي. غير أني اضطررت لأكون أكثر صرامة معها كي أجبرها على تصحيح عاداتها، لأنها اعتادت على ترك المنزل دون إذن». سُجلت أنجيلا في مدرسة ريتشارد ألين الثانوية، وعلاماتها المدرسية، في الصف الرابع كانت متوسطة. وفي أول يوم أرسلها إلى المدرسة طلب منها توكر الجد ألا تتحدث مع الطلبة الآخرين عن تجربتها في الجيش. «أخبرتها أن تحاول التلاؤم مثل أية طفلة عادية. وأن تركز تماما على دروسها».

إن طلب الجد توكر من أنجيلا غير قابل للتصديق. وبالنسبة لأنجيلا وجنود أطفال آخرين يعد التلاؤم أمراً صعباً. ففي الجيش لا تطبق القواعد العادية للحياة المدنية. وتمنحهم أسلحتهم سلطة أكبر من أعمارهم بكثير، وأي جدال يمكن إنهاؤه بسونكي البندقية.

عدد ملحوظ من الأطفال يتبدى أنه خرج سالماً من محنة العنف والفظاعات ولم يصب بضرر نسبيا. أما بالنسبة للآخرين فقد يستغرق الأمر شهورا وأحيانا سنوات حتى يتغلبوا على جراحهم.

أحد الذين كانوا متأثرين بشدة من عنائهم في الحرب هو أهاه كونجبانا، ولكنه مثل أنجيلا ساعدته أسرته أثناء أشد الأوقات اضطرابا. فبعد ترك الجيش عانى من الكوابيس المرعبة وخاصة المتعلقة بأصدقائه الموتى. وأهاه أحد الجنود الأطفال الذين سحقوا تحت ضغط العنف وإساءة استعمال المخدرات. فقد هجم ببندقيته على ضابطه الأعلى، وهي حادثة شائعة في ميادين القتال. وحوكم أهاه، وهو في الخامسة عشرة، أمام المجلس العسكري. كان قد نشأ في الإقليم الشرقي لكونو، ولكنه أقصي مع أسرته إلى مدينة كويدو إثر هجوم المتمردين على منزلهم الريفي. «كانت المدارس مقفلة، ولم يكن المدرسون يعلمون، إذن ماذا كان عليّ أن أفعل». التحق بالجيش وبعد فترة تدريب قصيرة تسلم قاذف صواريخ وأرسل إلى الجبهة. ومثل الآخرين استمتع بالحياة في بادىء

الأمر. لكن سرعان ما راح الأصدقاء يموتون وبدأت المخدرات تصيبه بالمرض. وأخيرا جاء التورط في حادثة إطلاق النار على ضابطه. إن أهاه يرفض الكلام عن الحادثة، وتقول عمته نانسي نياند يموه التي يعيش معها في فريتاون: من الأفضل ألا يفعل هذا. «إنه يحتاج للتطلع إلى المستقبل ونسيان الماضي». هذا ما تقوله عمته وهي تربت على كتفه. وتضيف: «لقد انتهى الماضي».

تقول نياند يموه إن أهاه حين وصل كانت هيئته مرعبة من الناحيتين الجسدية والنفسية. والدم يقطر أحيانا من أذنه اليمنى (الصماء من جراء الانفجارات المتكررة لقاذف الصواريخ). فقد كان في أغلب الأوقات مشتركا في المعارك. «لقد ترك لنا مشكلة صغيرة جدا جداً». تقول هذا في كريو وهي تضحك، ثم تضيف: «ولكنه تغير الآن». والحق أن أهاه اجتاز عملية التحول بفضل الرعاية والوسط المستقر اللذين وفرتهما عمته وزوجها، وبفضل النصح المقدم من العاملين في (ائتلاف) الأطفال الملحقين بالحرب في فريتاون. أحس أهاه أنه مستمتع بالمدرسة، وهو مثل سايو على رأس فصله الدراسي. وطموحه هو الفوز بدخول الجامعة ودراسة القانون.

في سيراليون، كانت الروابط الأسرية وتصميم مستشاري الأطفال الملحقين بمشروع الحرب تتضافر تضافرا فعالا بصورة لافتة في إصلاح شباب الحرب. لكن الخبراء في موزمبيق اعتمدوا على طريقة عمل أخرى. فحين أصبحت مشكلة رينامو في استخدام الجنود الأطفال واضحة في منتصف الثمانينيات ذهب إلى هناك سيكولوجيون من الولايات المتحدة وأوروبا لدراسة الظاهرة، وقدموا المشورة النفسية بالأسلوب الغربي لبعض الأحداث الذين أسروا من جانب الجيش أو ذهبوا بأنفسهم إلى المناطق التي تسيطر عليها الحكومة. وقد توصل السيكولوجيون، ولا عجب، إلى أن الجنود الأطفال مجروحون بشكل رهيب بسبب تجاربهم الشخصية وبفعل ممارسات المتمردين في إجبار بعضهم على مشاهدة، أو الاشتراك في الفظائع التي ارتكبت ضد قراهم. وكان هذا جانباً من «عملية مشايعة» المتمردين لإجبار الجنود الأطفال على نسيان ماضيهم وتوطيد ولائهم لرينامو.

ما لم يكن في حسبان الخبراء هو الإرادة الصلبة لكثير من هؤلاء الأطفال. فبمجرد بدء انتقالهم إلى مراكز الترحيل عند نهاية الحرب قدموا صورة مختلفة تماماً. «ما من أحد بالفعل يدرك طبيعة الأطفال»، هذا ما يقوله جيان كلود ليجراند منسق اليونيسيف للطوارئ في موزمبيق. ويضيف: «كانت هناك كمية إشاعات مثل: لقد خطفوا وهم صغار للغاية، إنهم لا يستطيعون تذكر خلفياتهم الاجتماعية، ولكن حين بدأ تسجيل أسمائهم ميزوا جميعهم كل ما يتعلق بأسرهم، وحددوا كأولوية أن يعاد جمعهم

بأسرهم. لقد تأثرت بالأسلوب الذي لم أشتمّ منه أي أثر مرئي لما لحق بهم من أذى».

جلب الأطفال معهم إلى معسكرات الترحيل انضباطهم العسكري. ويقول ليجراند: «كان الأطفال في معسكرات الترحيل منظمين بصورة جيدة جداً». ويضيف: «توجد مراتبية، ولكن هنا أيضا ديمقراطية. وفي كل مرة كان يغادر فيها أحد القادة — من بين الصغار— المكان عائدا إلى بيته ينتخب الباقون في المراكز (رئيساً) جديداً، ويعين الرئيس الجديد على الفور شخصا ما يراقب مواد الطعام. وفي كل مرة كان هناك تغيير، لقد أنجز الأطفال شبكتهم الخاصة للسيطرة». وكان هذا بسبب النظام العسكري الذي عرفوه وبسبب ولائهم الذي لم يهتز أبداً لخاطفيهم السابقين وهم متمردو رينامو. فقد علقت رايات ريناموية صغيرة فوق أفرع الأشجار حول المعسكرات. وبقدر ما كانت الحياة في جيش المتمرد جارحة بقدر ما منحت الجنود الأطفال مذاقا مغريا للسلطة.

وإعادة الأطفال لذويهم أظهرت مشاكل ليس أقلها تعقب الأقارب، الذين تفرقوا بسبب الحرب بمسافات قد تصل إلى مئات الأميال. وحتى حين كانت الأسر مستقرة في أماكنها فإن القرويين كانوا في أغلب الأحوال يعارضون عودة الأطفال الذين قاموا بأعمال قتل. وكان الأطفال بدورهم غير مستعدين للرجوع. موريشيو كومانجو رجل متفائل في الخامسة والثلاثين يعمل طباخاً في أحد معسكرات تسريح الأطفال من الخدمة العسكرية، وقد تذكر ما كان عليه حالهم يوم وصولهم: «كان جميعهم تقريبا جنوداً، وكانوا مرعبين، خشنين وغضوبين جداً. وقد صاح بعض الجيران من القرى المجاورة، من عابري السبيل، بشتائم ضد الأطفال ودعوهم بالقتلة والمجرمين. وقد أزعج هذا بالفعل الأطفال وصاحوا بدورهم قائلين إنهم كانوا مجبرين على القتال. وإنهم لم يكونوا راغبين أبدا في أن يصبحوا جنوداً».

عند هذه المرحلة أصبحت كل الخبرات الدولية والتمويلات في غير محلها. وكان الحل الوحيد هو الاستعانة بالعادات المحلية. ويقول ليجراند: «يقام احتفال بصورة منظمة، وهو في الأساس احتفال تطهير يتضمن كل أنواع الموت والتجدد الروحي الرمزي للأطفال». ثم يضيف: «إنه احتفال لإزاحة الأرواح الشريرة التي ربما تكون قد عادت معهم. وأثناء الاحتفال يغطّى الطفل بالدم محاكاة للموت والميلاد. إنهم يولدون من جديد للجماعة في عملية لمّ شمل».

أثبتت حالات سيراليون وموزمبيق أن جيل أفريقيا الضائع ربما لا يكون ضائعا إلى حد بعيد عند إعطائه الفرصة. إن تحويل الجنود إلى أطفال كان معجزاً في بعض الأحيان. ومفتاح النجاح هو القدرة على إحياء الاحتضان الدافىء من المجتمع وعلى غرس إحساس الفخر بإنجازاتهم في المدرسة والعمل. وليس من المستحيل الاعتقاد بأن بعض هؤلاء الأطفال سوف يصبحون يوما ما قادة مسؤولين بما لهم من حق خاص.

لكن ماذا عن هؤلاء الأطفال الذين شاركوا في الجريمة الأسوأ لجيلهم: الإبادة الجماعية في رواندا؟ لو كان بالإمكان إنقاذهم من الوضع العقلي المتعلق بالإبادة الجماعية فإن أي شخص بالتأكيد يهفو إلى حدوث هذا. وهو أمر بعيد أيضا وعلى وشك أن يعرف. فالوطن الصغير في وسط أفريقيا لا يزال يصارع الجروح النفسية والجسدية الناجمة عن تلك الشهور الثلاث في عام 1994 حين ذبح نصف مليون على الأقل من التوتسي Tutsi الذين يشكلون الأقلية على أيدي قطاعات كبيرة من الهوتوس Hutus الذين يشكلون الأغلبية لكنّ ثمة أسباباً للتفاؤل. فمن قطعة أرض منعزلة على بعد عشرين ميلاً جنوبي شرق العاصمة الرواندية يقع مركز جيتاجاتا لإعادة التربية والإنتاج. والمركز المكون من عنابر نوم مظلمة ورطبة مكتظة بصفوف من أسرة متراكبة فوق بعضها البعض، والمحاط بسور طويل من السلك، هذا المركز هو بمثابة المنزل لعدة مئات من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والثامنة عشرة، وهم من اعتقلوا على يد الحكومة الرواندية بتهمة اشتراكهم في المذبحة الجماعية.

والمعسكر مسترخٍ بصورة لافتة إذا أخذنا بعين الاعتبار الجرائم التي ارتكبت بادعاء على يد النزلاء. والأحوال – في المعسكر– أفضل كثيرا من سجون البالغين حيث يعتقل تسعون ألف متهم بالاشتراك في المذبحة الجماعية تحت ظروف رهيبة، في كل شيء من الإمدادات القليلة على نحو خطير بالماء والطعام إلى الحيز المكاني الضيق. ومنذ وصول الأطفال في يونيو 1995 تم إلحاقهم بفصول المدرسة الابتدائية وإشراكهم في تعلم النجارة والفلاحة ولعب كرة القدم. إن لديهم انضباطاً في كثير من أمورهم اليومية. فهم ينتخبون Kapitas أو رؤساء مواقع لتحمل مسؤولية كل شيء من الطعام إلى الماء إلى غسل ملابسهم إلى حل النزاعات. ويبدأون يومهم في السادسة صباحا بالاغتسال والإفطار المكون من العصيدة عادة ثم يذهبون في الساعة الثامنة إلى المدرسة. وفي الثامنة مساء يعودون إلى عنابرهم. وتعنى وكالات الإغاثة الأجنبية بأسس الطعام وحطب الوقود والماء. ويلتقي الموظفون الحكوميون المشتغلون بالعمل الاجتماعي مع الأطفال لمناقشة أهوال الإبادة الجماعية وإقناعهم بأن شعب هوتو الذي يشكل الأغلبية وشعب توتسي يمكنهما أن يعيشا معاً. ومعظمهم لديه الأمل في حدوث هذا. وفي ظل القانون الرواندي لا يمكن تحميل الأطفال تحت 14 سنة المسؤولية عن جرائمهم كما لا يمكن محاكمتهم أمام المحاكم.

أحد النزلاء وهو طفل صغير يدعى كوبجريمانا يعرف أنه متهم كأحد مقترفي الإبادة الجماعية ولكنه ليس واثقاً مما تعنيه الكلمة بالفعل. ويحاول أن يتجاهل سور السلك والجنود المسلحين الذين يحرسونه. وكل ما يود التحدث عنه هو لعب كرة القدم، وحلمه هو اليوم الذي يعود فيه إلى منزله

في إقليم جيتاراما القريب. وكوبجريمانا في السابعة من عمره، وطوله ثلاثة أقدام ونصف. وحين سُئل عن أعمال القتل أو عما كان يفعل أثناء المذابح الوحشية همهم فقط. لقد مات والداه حين كان صغيراً. وكان يعيش مع جدته في ذلك الوقت. ويقول إنه لم ير أية جثث وبقدر ما كان مهموما فإن كل شيء كان عاديا حتى جاء بعض الجنود إلى منزله ذات يوم وقالوا إنه معتقل.

القصة نفسها مع زميله كلود نزامور نبكاهو البالغ من العمر تسع سنوات، والذي اعتقل في كيجالي. يقول كلود إن والديه لا يزالان في المنزل ولكنهما لا يزورانه أبداً. ويقترح المشتغلون بالعمل الاجتماعي في جيتاجاتا أنهما إماماتا أو اعتقلا أو فرّا من البلاد، وادعاءات المشتغلين بالعمل الاجتماعي بأن الأطفال قد يكونون أكثر أمانا في المعسكر من تجوالهم الحر هي ادعاءات تتضمن مسحة من الحقيقة على أقل تقدير. وكثير من الباقين أحياء بعد الإبادة الجماعية يطالبون بمعاقبة الأطفال أيا كان صغر أعمارهم.

أحد الباقين على قيد الحياة يفكر بطريقة مختلفة. إنه جيان ماري هيجيرو البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، والموظف بوساطة وزارة العدل للاشتغال بالعمل الاجتماعي في المعسكر. لقد قتل جدّا جيان والكثير من أعمامه وأخواله غير أنه يبدي افتقادا غريبا للمرارة. «كثير من الناس لا يفهمون لماذا يعترينا القلق الشديد على هؤلاء الأطفال». هذا ما يقوله جيان.

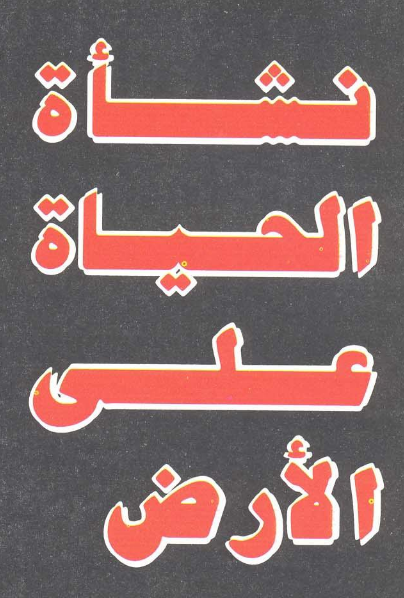
ويضيف: «من الصعب العمل معهم لأني أعرف أنهم وُرطوا في أعمال القتل. لكن من المهم أن نساعد في تغيير الحال في البلاد. إنني حزين بوضوح وببساطة لأن الناس ماتوا بسبب السياسة، لكنني هنا لمساعدة الأطفال على الفهم ولتعليمهم، كي لا يحدث هذا النوع من الأمور ثانية وإلى الأبد. إننا نحتاج لخلق واقع جديد. ولانستطيع أن نفعل ما فعلوه وأن نقتل وبصورة مباشرة هؤلاء الناس لأننا لو فعلنا هذا فسوف توجد دائرة جهنمية، بكل معنى الكلمة، لا تنتهي أبدا. إن الانتقام لا يحل أي شيء.

بقدر ما هو كئيب، مثلما يبدو الحال، فإن هيجيرو الذي وصل إلى المعسكر قبل وصول الأطفال ببضعة أيام يعتقد أنه يمكن عمل الكثير. «إنها في الواقع ليست غلطة الأطفال، لأن أدمغتهم غُسلت على أيدي آبائهم. حيث قال لهم إن التوتسي أشرار. وإذ يسمع طفل صغير والده يتحدث على هذا النحو، ويراه وهو يقتل الناس فمن الطبيعي وحسب أن يرغب في فعل الشيء نفسه. وأي واحد منا سوف يتصرف على المنوال نفسه تماماً. من السهل أن نعلم الأطفال السلوك السيىء، لكن تعليمهم السلوك الطيب هو الأمر الصعب إلى حد كبير جدا. لو استطعنا تغيير أوضاع عقولهم فأعتقد أنه حتى الأطفال الأشد صعوبة يمكنهم «التعاون مع المجتمع». هذا ما يقوله هيجيرو، ثم ينهي حديثه قائلا: «هذا أملنا الوحيد».

نشأة الحياة على الأرض

بقلم : ريتشارد موناسترسكي

ترجمة : د. نادر نجيب



مثل كوكب طاف في الفضاء، تبدو هذه الكرة الضئيلة من الكربون، والتي تحمل قدراً عظيماً من المعاني، مستكينة في تجويف محفور من صخرة عمرها 3,86 بليون سنة (تبدو هنا ملونة للمباينة). قد تكون كرة الكربون هذه أقدم دليل على الحياة على كوكب الأرض. فعلى الرغم من أن هذه العينة التي وجدت بالقرب من جرينلاند قد فقدت كل صفاتها التشريحية إلا أن العلماء يعتقدون أن تركيبها الكيميائي الحيوي مشابه لمثيله في كل أشكال الحياة التي نشأت منذ ذلك الحين.

العنوان الأصلي للمقال:
The Rise of Life on Earth بقلم:
Richard Monastersky ونشر في
مجلة National Geographic عدد
مارس 1998


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مئات من الأقدام أعلى نهر يللوستون Yellowstone River كنت أسير أنا وآنّا - لويز ريزينباخ Anna- Louise Reysenbach بمحاذاة جانب الوادي شديد الانحدار. كانت أقدامنا مغمورة بالثلوج حتى الركبتين وقد خلفنا الشتاء وراءنا في قاع الممر الضيق متقدمين نحو منظر البركان المشبع بالبخار.

اختفت الثلوج وبدأت أشعر بدفء الأرض على الرغم من حذائي العازل وجوربي الصوفي المزدوج - وعلى ضفة النهر كان هناك نحو اثني عشر من الثقوب التي تهس وتصخب منفسة البخار مثل التنانين. وكانت قوافل البخار الكريه الرائحة ترتفع إلى السماء الرمادية متخنة الهواء برائحة البيض الفاسد.

أمسكت ريزينباخ، وهي اختصاصية بعلوم الأحياء الميكروبية في جامعة روتجرز، بمعصمها قائلة «أترى كيف بدأ سواري يفقد بريقه. من هنا علمت أن هناك غاز كبريتيد الهيدوجين في هذا البخار. عندما أعمل هنا طوال اليوم أصاب بصداع شديد».

ومهما كان هذا المكان في منتزه يللوستون الوطني Yellowstone National Park بغيضا بالنسبة للبشر إلا أنه يعتبر بمثابة جنة لبعض الأشكال غير المألوفة من الحياة. غرزت ريزينباخ ملقاطا طويلا في بركة المياه الساخنة لدرجة 190 فهرنهايت وانتزعت بعضا من الوحل الأسود وأسقطته في يدي. كان دافئا ولزجا مثل العلكة الفقاعية الممضوغة جيدا، تؤوي هذه الكرة القاتمة من الوحل كائنات دقيقة تأقلمت على الحياة في درجات الحرارة المفرطة وهي تعرف بالترموفيلات Thermophiles أي الكائنات المحبة للحرارة. وتعتبر هذه الكائنات من الحفريات الحية التي يرجع تاريخها إلى الأيام المبكرة من عمر كوكب الأرض. وقد ساعدت هذه الترموفيلات، مع الاكتشافات الجديدة الأخرى، العلماء على إماطة اللثام عن كيفية نشوء واستقرار الحياة الأولى على كوكبنا.

دائما قائمة بدور المعلمة، استعملت ريزينباخ ملقاطها في رسم شكل تخطيطي على الطين. نقشت ثلاثة خطوط تمثل الأفرع الرئيسية لشجرة الحياة ناشئة كلها من ساق مركزية. أحد الأفرع يمثل الإيوكاريوتات Eukaryotes وهي الكائنات المركبة من خلايا ذات نوى. وينتمي البشر إلى هذا الفرع مع كل الحيوانات والنباتات والفطريات والطحالب. أما الفرع الرئيسي الثاني فيمثل البكتيريا. والفرع الثالث يمثل مجموعة من الكائنات وحيدة الخلية المعروفة بالأركيات (البدائيات) Archaea.

وعلى بعد بضعة أقدام من هذا الرسم التخطيطي وفي هذه البرك الفوارة اكتشفت ريزينباخ وعلماء آخرون أنواعا عديدة من البكتيريا والأركيات المحبة للحرارة المفرطة إذ إنها تنمو فقط في المياه الساخنة إلى درجة قد تسبب حروقا للبشر. وتستهلك هذه المخلوقات وحيدة الخلية

الحديد ومركبات الكبريت ومواد كيميائية معقدة أخرى موجودة في مياه بيئتها المحيطة من المواد السامة.

وعلى الرغم من أن العلم حديث العهد بهذه الكائنات إلا أن هذه الثرموفيلات تعتبر من أكثر الكائنات المعروفة بداءة حتى الآن وهي تشغل الأطراف السفلى من شجرة الحياة بالقرب من مركز الرسم التخطيطي ليس ببعيد عن الكائنات المجهولة التي أنتجت الأفرع الثلاثة الرئيسية.

تقول ريزينباخ: «تعتبر ميكروبات يللوستون من أكثر الأقرباء التي وجدناها حتى الآن دنواً من السلف الأصلي للحياة. والشيء المثير للاهتمام أن كل الأفرع القريبة من هذا السلف الأصلي تحيا في أماكن مرتفعة الحرارة».

أدت هذه الحقيقة ببعض العلماء إلى الاعتقاد بأن الحياة بدأت في بيئة محرقة منذ نحو أربعين بلايين سنة مضت، ربما حول الينابيع البركانية الحارة في قاع المحيط. إذ ربما أنتجت ينابيع أعماق البحر الحارة هذه سوائل فائقة السخونة محملة بالمعادن والمركبات الغنية بالطاقة والتي زودت التفاعلات الكيميائية اللازمة لنشوء الحياة بما يلزمها من طاقة. وطبقا لهذه الفكرة تكون هذه الينابيع الموجودة بقاع البحر مسؤولة عن جيشان المحيط البدائي البكر متسببة في اتحاد المواد الكيميائية مع بعضها البعض بآلاف الطرق لتخليق جزيئات جديدة تماما. وعلى مر آلاف أو ربما ملايين السنين تم طبخ هذه الكيماويات منتجة أعظم طبق تم تحضيره، أي الحياة نفسها.

وترجع هذه الثرموفيلات المجهرية إلى العصر المعروف بما قبل الكامبري The Precambrian ويفضل الجيولوجيون تشبية تاريخ كوكب الأرض بالكتاب الذي يمثل فيه عصر ما قبل الكامبري الشطر الأول والأعظم منه، وهي حقبة تشغل 88 في المئة من الوقت الجيولوجي. وتمتد هذه الفترة الغامضة منذ ميلاد الكوكب – أي منذ 4,5 بليون سنة مضت – إلى النشوء المفاجىء للحياة الحيوانية في الحقبة الكامبرية The Cambrian period منذ نحو نصف بليون سنة مضت.

ويعتبر عصر ما قبل الكامبري حقبة الحياة المجهرية التي سبقت دخول البشر، والديناصورات وحتى القواقع قصة الأرض. وعلى الرغم من أن هذه الحقبة تميزت بضآلة حجم كائناتها – إذ من الممكن تواجد بلايين من هذه الكائنات في قطرة واحدة من الماء – إلا أن هذه الكائنات مهدت الطريق إلى نشوء الكائنات الحية اللاحقة لها. فقد طورت هذه الكائنات الأولى جزيئات الـ DNA والبروتينات، وكليهما من الجزيئات الأساسية لبقاء الخلايا الحية. هذا بالإضافة إلى أن هذه الكائنات ابتكرت وسائل لتسخير ضوء الشمس لإنتاج الغذاء وإنتاج الأكسجين الذي نحتاج إليه لنحيا. هذا إلى جانب استنباطها لوسائل التكاثر الجنسي.

وعلى الرغم من أن تاريخ ما قبل الكامبري منقوش على الأحجار إلا أن التخريب الجيولوجي



تبعثر الغبار النجمي

تسبب ارتطام كتلة من الحديد والنيكل بالأرض منذ 50 ألف عام في هذا الأثر الذي يبلغ عرضه أكثر من ثلاثة أرباع الميل والمعروف بـ «فوهة أريزونا النيزكية» Arizonza's Meteor Crater. هذه الارتطامات نادرة الحدوث الآن، ولكن لمئات الملايين من السنين - وبعد تشكل كوكبنا منذ 4,5 بليون سنة مضت - ارتطمت مثل هذه الأنقاض الفضائية بسطح كوكب الأرض.

ربما تسببت النيازك الضخمة في تبخر المحيطات عند اصطدامها بها. أما النيازك الأصغر حجما فقد بلغت سطح الأرض دون أن تتبدد كاملا جالبة معها مواد عضوية من التي تكونت عند ميلاد النظام الشمسي.

واليوم يوجد وابل مستمر من جزيئات الغبار المجهري البين كوكبي (إلى أعلى) والتي تمدنا بالنوعية نفسها من المركبات التي من المؤكد تقريبا أنها ساهمت في تركيب السحابة الأولية والكائنات الحية التي نشأت منها.



انتزع بعضا من أفضل شواهده. فالأمطار، وهي من أعتى القوى الطبيعية، تسببت في تآكل كل قطعة صغيرة من الصخر يزيد عمرها على 3,5 بليون سنة.

ولإعادة ترتيب بعض الأحداث المفقودة، صاغ ستانلي ميللر نسخة محتملة لكوكب الأرض الناشيء وذلك في معمله في جامعة كاليفورنيا في سان دييجو. وكان نجم ميللر العلمي قد ارتفع منذ نحو 50 عاما مضت بإجراء أول تجربة من تجاربه الفريدة والتي يحاكي فيها الأحوال على الأرض قبل نشوء الحياة. أما الآن فهو شبه متقاعد بعد تاريخ مهني طويل كباحث كيميائي.

اقتادني ميللر، وهو رجل رفيع أصلع الرأس يرتدي نظارة كبيرة وذو سلوك أبوي، إلى شبكة قديمة من القوارير والأنابيب الزجاجية وأضاء الأنوار وأدار جهازا يشبه فرشاة الأسنان الكهربائية فيما عدا أنه يولد 100 ألف فولت عند طرفه المتوهج.

يقول ميللر، ولكن بطريقة غير مقنعة: «على الرغم من أن له فولتية عالية جدا إلا أنه لايصدر منه أي تيار كهربائي حتى أنه يمكنك لمسه بإصبعك» وإذ لم تبدر منه أية حركة لتوضيح ذلك بإصبعه، أبقيت يدي مختفيتين عميقا داخل جيوبي. وعندما لامس ميللر الآلة الطنانة بقطب كهربائي (إلكترود) على إحدى القوارير صدرت صاعقة من البرق الأرجواني تئز بالداخل مستحضرة في الأذهان صورا من رواية «عروس فرانكنشتاين».

وقد حلم ميللر بإجراء مثل هذه التجربة «المكهربة» في عام 1952 ولكي يحاكي ما افترض وجوده في الغلاف الجوي البدائي ملأ ميللر قارورة زجاجية بغازات الميثان (غاز طبيعي) والهيدروجين والأمونيا. وفي قارورة سفلى وضع بركة صغيرة من الماء كبديل للمحيط البدائي. وحاكت الصدمة الكهربائية تأثيرات البرق. وبإحداث شرارة في الغلاف الجوي كان ميللر يأمل بتوليد كيماويات جديدة تمطر على المحيط الضئيل وتتفاعل لتكوين شيء ما مثير للاهتمام.

وقد حصل ميللر على أكثر مما كان يتوقعه. يتذكر ميللر قائلا: «ابتدأت التجربة في إحدى الليالي في الساعة العاشرة مساء وعدت في الصباح التالي وقد تحول لون الماء في القارورة إلى الأصفر. وأدركت أني حصلت على شيء ما».

وكان الذي حصل عليه عبارة عن حساءٍ غني



كشف مذنب هالي - بوب Comet Hale - Bopp الذي كان موضع اهتمام العلماء في العام المنصرم بعضا من تفاصيل محتوياته: ماء وأمونيا وفورمالديهايد وسيانيد الهيدروجين. وهذه يمكنها التفاعل لتكوين الأحماض الأمينية Amino acids وهي وحدات بناء البروتينات الضرورية للحياة.

وعندما اصطدمت مثل هذه المذنبات بالأرض الفتية بزرت مكوناتها على سطح الكوكب. ليس ذلك فحسب بل إنها ربما حثت أيضا على حدوث التفاعلات الحاسمة التي نتج عنها تخليق أول كائن حي. وعلى الرغم من أن الحياة تنوعت على مدى ثلاثة بلايين من السنين إلا أنها ظلت على حالتها المجهرية في حجم البكتيريا المكورة السبحية (قرنفلية اللون) والأركيات (صفراء اللون) الموجودة على طرف هذه الإبرة الملونة هنا لزيادة الإيضاح.

من الأحماض الأمينية التي تستخدمها جميع المخلوقات المعروفة كوحدات بناء للبروتينات. وقد أوضحت تجربة ميللر الكيفية السهلة التي أمكن بوساطتها تخليق هذه المقومات الأولية للحياة، فقد

رائد الكيمياء قبل الحيوية

في تجربة أجريت عام 1952 حاكى ستانلي ميللر، وهو الآن في جامعة كاليفورنيا في سان دييجو - الأحوال على الأرض البدائية، منتجا الأحماض الأمينية. يقول ميللر «بمجرد حصولك على المعدات اللازمة معاً، يمكنك ذلك بسهولة شديدة».

كان كل ما احتاجت إليه وجود محيط وغلاف جوي وقليل من البرق.

إلا أن كثيرا من العلماء الآن يشتبهون بأن الغلاف الجوي الأول كان مختلفا عمّا افترضه ميللر في بادىء الأمر. فهم يعتقدون بتكونه من ثاني أكسيد الكربون والنيتروجين عوضا عن الهيدروجين والميثان والأمونيا.

وكان ذلك بمثابة أنباء سيئة للكيميائيين. فعندما حاولوا إحداث شرارة في ثاني أكسيد الكربون والنيتروجين لم يحصلوا إلا على كمية تافهة من الجزيئات العضوية - ما يعادل إذابة نقطة من صبغات الغذاء في مياه بركة سباحة. ويجد العلماء أنه من الصعوبة التخيل بأن الحياة قد نشأت من مثل هذا الحساء المخفف.

وقد يأتي أحد الحلول لهذه المشكلة من الفضاء الخارجي. فالكويكبات والمذنبات والشهب النيزكية وحتى ذرات الغبار البين كوكبي تحمل مواد عضوية مشتملة على الأحماض الأمينية أو المقومات الضرورية لتكوينها. وربما ساعدت مثل هذه الأجسام الناشئة خارج الأرض في «تتبيل» الحساء الأول لكوكب الأرض بكيماويات كافية إلى درجة حاسمة تسمح بالنشاطات الأولى للحياة.

ولمشاهدة الحياة في طور تكوينها، غادرت مكتب ميللر مستقلا سيارتي في قيادة قصيرة على جرف سان دييجو الساحلي حيث يقع معهد سكريبس للأبحاث. وهناك وفي مختبر معقم أبيض يعج بالدارسين وبالآلات الطنانة، يعكف عالم كيمياحيوي شاب يدعى جيرالد جويس Gerald Joyce على محاولة صناعة الحياة في أنبوبة اختبار. وقبل أن يستعرض جويس تجاربه

أصولنا الميكروبية

ميراث حي

يبدو أن الكثير من التركيبات والعمليات الخلوية المبكرة قد بقيت في مجموعة من خطوط التطور مشتملة لتلك الخاصة بالبشر. والأمثلة المذكورة أسفله تقرن الكائنات وحيدة الخلية مع الصفة البشرية التي ورثت هذه التقنية نفسها.



١ - التكاثر الجنسي

تتزاوج خليتان تناسليتان متخصصتان - والتي تعرف بالأمشاج (الجاميتات) - لطحلب الكلاميدموناس رينهاردتياي (أعلى إلى اليسار) لتكون فردا فريدا يحتوي على خليط من المادة الوراثية لكل من الأبوين. وبأسلوب مماثل بطريقة مدهشة لهذا التزاوج يخصب الحيوان المنوي البشري البويضة.



الأحداث الكبرى في البيولوجيا

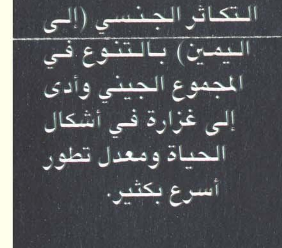
كان نشوء الحياة وتطورها محصوراً تقريبا في الكائنات الدقيقة على مدى ثلاثة أرباع مدة الحياة على كوكب الأرض. إلا أن هذه التغيرات كان لها عواقب ضخمة. فالتطورات المقدمة هنا تبدأ بالـ RNA الأولى (في القاع) وتؤدي في النهاية إلى وجودنا نحن البشر.

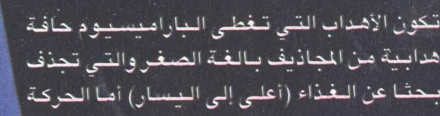
منذ 1,2 بليون سنة مضت

النشوء المتفجر لأشكال الحياة المعقدة

في البدء تطورت الإيوكاريوتات ببطء شديد حيث إنها تكاثرت فقط بالانشطار إلى نسختين متطابقتين، كما تفعل البكتيريا والأركيات اليوم. ثم بدأت الإيوكاريوتات فيما بعد في التكاثر باتحاد المادة الوراثية من الأبوين. وقد جعل هذا التكاثر الجنسي (إلى

الأبوين. وقد جعل هذا التكاثر الجنسي (إلى اليمين) بالتنوع في المجموع الجيني وأدى إلى غزارة في أشكال الحياة ومعدل تطور أسرع بكثير.





2- الأهداب

تكون الأهداب التي تغطي الباراميسيوم حافة هدابية من المجاذيف بالغة الصغر والتي تجذف بحثا عن الغذاء (أعلى إلى اليسار) أما الحركة المجذافية للتركيبات المماثلة لها والتي تبطن القناة التنفسية البشرية بأكملها، خاصة الأنابيب الشعبية، فإنها تجرف خارجا المخاط والمواد الغريبة الملتصقة به.



3- ابتلاع الخلايا الأخرى

تأكل الأميبا بإحاطة وجبتها بقدم كاذب (أعلى إلى اليسار) والذي يتكون عندما يتدفق السيتوبلازم في الاتجاه المطلوب. ولمحاربة العدوى ترسل الخلية البيضاء الشبيهة بالأميبا قدمها الكاذب لتعزل البكتيريا الضارة في عملية تعرف بالبلع الخلوي.

منذ بليوني سنة مضت

الخلايا المعقدة

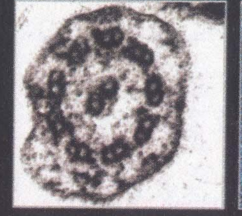
بمرور الوقت تطورت بعض الخلايا إلى مجمعات كبيرة من الأجزاء المتخصصة، ربما عن طريق ابتلاع البروكاريوتات الحرة الطافية (إلى اليمين) وهكذا أصبحت البروكاريوتات التي تتنفس الأكسجين هي الميتوكوندريا - أو بيوت الطاقة للتنفس الهوائي - في الخلايا الجديدة. أما المتحدرون من البروكاريوتات التي تقوم بعملية التخليق الضوئي فهم يقومون بهذه العملية داخل بعض الخلايا الجديدة على هيئة كلوروبلاست. وهذا النوع الجديد من الخلايا التي تحتوي على نواة محملة بالجينات تعرف بالإيوكاريوتات. وتصنع هذه الخلايا كل أشكال الحياة الأخرى، من فطريات (عفن) الوحل إلى البشر.

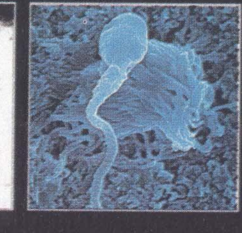
منذ 3,9 بليون سنة مضت



4- الميتوكوندريا

ربما اكتسبت الإيوكاريوتات الأولية الميتوكوندريا بابتلاعها للبكتيريا الأرجوانية. واليوم تحتاج كل الخلايا الإيوكاريوتية تقريبا إلى الميتوكوندريا حتى تبقى على قيد الحياة. وعلى الرغم من أن الجسم الموجود في الريكلينوموناس أميركانا (أعلى إلى اليسار) يبدو مختلفا عن خلية البنكرياس البشرية إلا أنه له الغرض نفسه: أي إحراق الوقود.





5- الأسواط

يحرك ذيل طويل خلية الحيوان المنوي البشرية بسرعة مدهشة (أعلى إلى اليمين). وللخلايا الإيوكاريوتية الأخرى أيضا أسواط ذات تركيب داخلي مماثل. ويوضح المقطع العرضي في سوط الحيوان الأولي المعروف بالريكلينوموناس أميركانا هذا التركيب كزوج واحد من الأنيبيبات الدقيقة محاطا بتسعة آخرين.

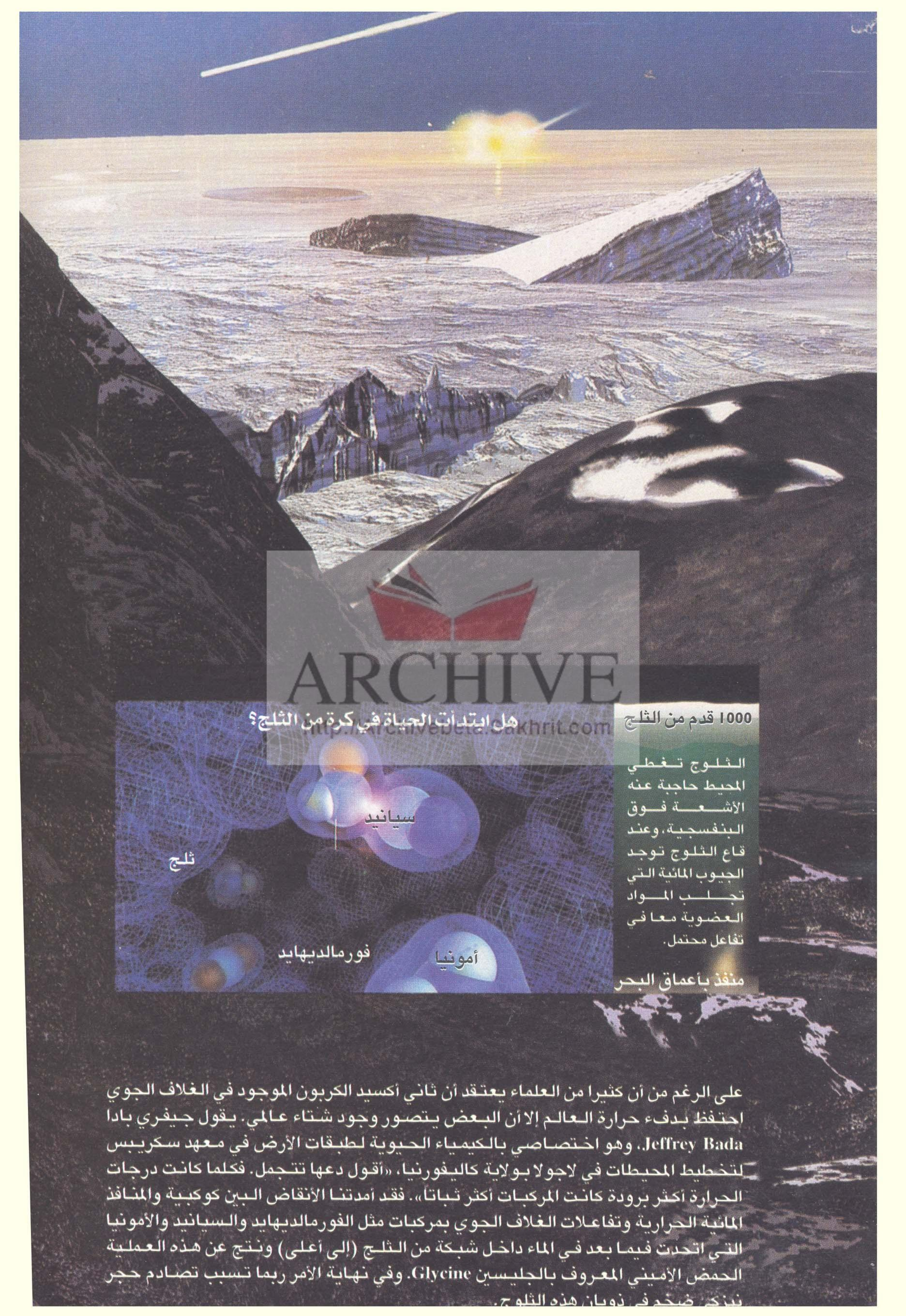


تظل الكيفية التي جاءت بجزيئات الـ RNA إلى الوجود لغزا. وربما بدت أولى الخلايا الحقيقية مثل البروكاريوتات المعاصرة - أي البكتيريا والأركيات المصنفة حديثا والتي توجد عادة في أحوال مفرطة. ولا تحتوي البروكاريوتات، العتيقة والحديثة منها، على نواة بل على مادة وراثية وريبوسومات في سيتوبلازم شبيه بالهلام. وقد تطورت البروكاريوتات من بداياتها المماثلة لشكل حبة الدواء (إلى اليمين) إلى عدة أشكال متنوعة.

منذ 4 بلايين سنة مضت

الـ RNA الأولى

تشكلت جزيئات الـ RNA (إلى اليمين) من الجزيئات العضوية عندما أصبحت تلك الأخيرة أكثر تعقيدا. ويعتقد العلماء أن جزيئات الـ RNA المبكرة كانت قادرة على مضاعفة نفسها وعلى التطفر وعلى حدوث انتقاء طبيعي لها. أما في الخلايا الحديثة فقد تخلت جزيئات الـ RNA عن دورها القيادي في نقل المعلومات الوراثية إلى جزيئات الـ DNA، وإن ظلت جزيئات الـ RNA تلعب دورا حيويا في نقل المعلومات إلى الريبوسومات حيث تنتج الخلايا بروتيناتها.

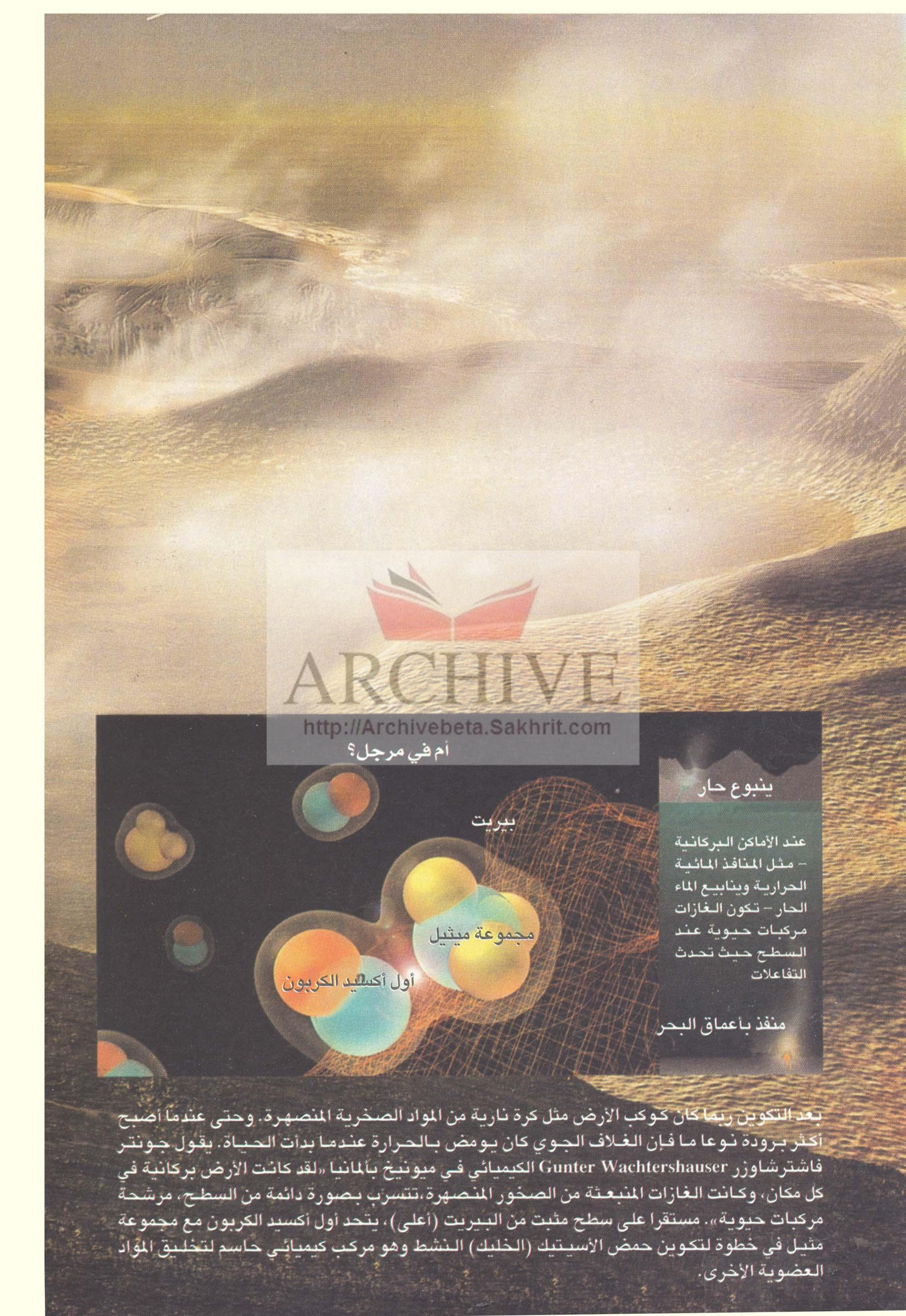


على الرغم من أن كثيرا من العلماء يعتقد أن ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الجوي احتفظ بدفء حرارة العالم إلا أن البعض يتصور وجود شتاء عالمي. يقول جيفري بادا Jeffrey Bada، وهو اختصاصي بالكيمياء الحيوية لطبقات الأرض في معهد سكريبس لتخطيط المحيطات في لاجولا بولاية كاليفورنيا، «أقول دعها تتجمل. فكلما كانت درجات الحرارة أكثر برودة كانت المركبات أكثر ثباتاً». فقد أمدتنا الأنقاض البين كوكبية والمنافذ المائية الحرارية وتفاعلات الغلاف الجوي بمركبات مثل الفورمالديهايد والسيانيد والأمونيا التي اتحدت فيما بعد في الماء داخل شبكة من الثلج (إلى أعلى) ونتج عن هذه العملية الحمض الأميني المعروف بالجليسين Glycine. وفي نهاية الأمر ربما تسبب تصادم حجر نيزكي ضخم في ذوبان هذه الثلوج.



تقوم الأنهار الجليدية والبراكين وينابيع الماء الحار والأنقاض البين كوكبية بإمداد المياه التي تتجمع في البرك والأحواض الضحلة بالمركبات.

تخيل تشارلز داروين ومعاصروه نشوء الحياة في كمية صغيرة من المياه، ربما في بركة مياه، وهي فكرة مازالت حية حتى يومنا هذا. يقول جوستاف آرينيوس **Gustaf Arrhenius** وهو اختصاصي بكيمياء طبقات الأرض في معهد سكريبس لتخطيط المحيطات «التجمعات الصغيرة من مياه الأمطار الجارية فوق سطح الأرض هي الوسيلة الأكثر احتمالا للحصول على التركيز الضروري من المكونات». وفضلاً عن ذلك ربما تحوي البركة مركبات مركزة على الأسطح الداخلية للأملاح المتواجدة في صورة ألواح والتي تجتذب جزيئات معينة وتعمل كمحفز في التفاعلات اللاحقة. وهكذا تم الاتحاد بين اثنين من جزيئات فوسفات الألديهايد (إلى أعلى) لتكوين فوسفات السكر وهو مركب تمهيدي محتمل لجزيء الـ **RNA**.



بعد التكوين ربما كان كوكب الأرض مثل كرة نارية من المواد الصخرية المنصهرة. وحتى عندما أصبح أكثر برودة نوعا ما فإن الغلاف الجوي كان يومض بالحرارة عندما بدأت الحياة. يقول جونتر فاشترشاوزر Gunter Wachtershauser الكيميائي في ميونيخ بألمانيا «لقد كانت الأرض بركانية في كل مكان، وكانت الغازات المنبعثة من الصخور المنصهرة،تتسرب بصورة دائمة من السطح، مرشحة مركبات حيوية». مستقرا على سطح مثبت من البيريت (أعلى)، يتحد أول أكسيد الكربون مع مجموعة مثيل في خطوة لتكوين حمض الأسيتيك (الخليك) النشط وهو مركب كيميائي حاسم لتخليق المواد العضوية الأخرى.

ما نوع المكان الذي كانت عليه

الأرض البدائية؟



منذ أربعة بلايين سنة مضت بزغت الشمس الفتية بقوة تقدر بـ70 في المئة فقط من قوتها الحالية. وكان الغلاف الجوي لا يحتوي على أي أكسجين حر. وكات هناك بضعة أصوات خلف الرياح مثل هسيس الحمم المصطدمة بالمياه أو دوي النيازك. لم تكن هناك أية نباتات أو حيوانات أو بكتيريا أو فيروسات. ومن نقطة البداية هذه اختلفت الآراء العلمية بشدة. إذ لا يعرف أحد على وجه اليقين الحال التي كانت عليها الأرض عندما بدأت الحياة. فقد تشوهت الصخور الدالة على ذلك منذ أمد طويل بفعل تحركات القشرة الأرضية. والصفحات التالية تقدم ثلاثة احتمالات لنشوء الحياة وهي تعكس وجهات النظر الحديثة لعلماء بارزين. ومهما كانت الظروف إلا أنها أدت جميعها إلى سلسلة مهمة جدا من الأحداث المتعاقبة. يقول ستانلي ميللر «نظمت المركبات العضوية نفسها إلى شيء ما له القدرة على التكاثر الذاتي. وبمجرد حدوث هذا فإننا نكون قد ذهبنا بعيدا إذ حصلنا بذلك على التطور الدارويني».

سألته سؤالا كان يزعجني «ماذا يعني أن تكون حيا؟»، يحاول جويس، الذي يرتدي ملابس كاكية غير رسمية ولا يبدو أكبر عمرا من طلابه، الإجابة «لايمكنك تقديم تعريف علمي كامل للحياة، فهذا المصطلح في واقع الأمر له معنى شائع بين عامة الناس فقط».

فعلى الرغم من أن العلماء قدموا تعاريف كثيرة للحياة إلا أنها جميعها قاصرة عند مستوى ما. فبعضها واسع حتى أنه يشمل الكائنات غير الحية مثل النار وبللورات الأملاح. وبعضها الآخر من الضيق حتى أنه يجرد البغال العقيمة من أهليتها، ويفضل جويس تعريف الحياة بأنها «نظام كيميائي ذاتي البقاء قادر على التطور الدارويني».

وهذا العنصر الأخير – أي التطور الدارويني – هو موجز لعملية ذات ثلاث خطوات. الأولى، يتوجب على مجموعة من الأفراد امتلاك القدرة على التكاثر وذلك بصنع نسخ لأنفسهم. والثانية، يتحتم أن تحتوي هذه النسخ على نقائص قابلة لأن تورث أو تغيرات تدخل التنوع في الأفراد. والأخيرة، يجب أن يكون هناك نظام من الانتقاء الطبيعي الذي يحابي بقاء بعض الأفراد على حساب الآخرين.

ولما كان التطور الدارويني من التعقيد كما هو يبدو، تدبر جويس وعلماء آخرون أمورهم لمحاكاة التطور الدارويني في المختبر. قادني جويس عبر باب شبيه بالسرداب إلى غرفة قائظة الحرارة تحتفظ بحرارتها عند درجة 98,6 فهرنهايت، وهي درجة حرارة الجسم البشري نفسها، والتقط أنبوبة اختبار دقيقة تحمل نقطة من سائل رائق، داخل هذه النقطة يوجد تريليون من جزيئات الـ RNA.

جزيء الـ DNA هو نجم تخزين المعلومات الوراثية المتألق في الخلايا الحديثة. أما جزيء الـ RNA فيلعب دوراً مدعما: إذ ينسخ التعليمات من الـ DNA وينقلها إلى المصانع الكيميائية التي تنتج البروتينات، وهي العناصر الفاعلة في الخلية.

إلا أن جزيئات الـ RNA التي يحملها جويس لها طبيعة خاصة إذ إنها نشأت بين يديه. وعندما تتكاثر هذه الجزيئات وتتغير ويحدث لها انتقاء طبيعي تكون بذلك الأقرب من الجزيئات التي أوجدها العلماء لتخليق الحياة في المختبر.

فجزيئات الـ RNA هذه ليست في واقع الأمر حية لأنها لا تتحكم بالكامل في تكاثرها. إلا أنه في يوم قريب يأمل جويس وزملاؤه بعثورهم على قطعة من الـ RNA تستطيع استنساخ نفسها دون أية مساعدة.

ويقضي علماء الأحياء الجزيئية وقتا طويلا في دراسة جزيئات الـ RNA حيث إنهم يعتقدون أن أصولها الأولى ترجع إلى فجر الحياة. يقول جويس «إذا نظرت إلى ما تفعله الـ RNA في يومنا هذا ستجد أنها تستخدم في عمليات أساسية عتيقة في الخلية».

فقبل نشوء الـ DNA والبروتينات وقبل ظهور حتى أبسط أنواع البكتيريا، ربما تكون الحياة قد تألفت من جزيئات الـ RNA المجردة الطافية في البحر والتي تتكاثر وتتغير ويحدث لها انتقاء طبيعي ذاتيا. وبنشوء الـ DNA والبروتينات أخذت هذه الجزيئات الأكثر تخصصا على عاتقها أغلب المهام الحرجة من جزيئات الـ RNA. وعند نقطة مجهولة من الحياة وجدت الحياة لها مستقرا داخل غشاء واق، مشكّلة بذلك الخلايا الأولى على وجه الإطلاق والتي نشأت منها الأفرع الثلاثة

الرئيسية للحياة ألا وهي البكتيريا والأركيات والإيوكاريوتات.

ومثل معظم أوجه تاريخ كوكب الأرض المبكر، يبقى توقيت حدوث هذه الوقائع محاطا بالغموض. فلسنوات عديدة اعتقد العلماء أن الحياة لا يمكن أن تكون قد تطورت إلا بعد توقف المذنبات الضخمة والشهب النيزكية عن الارتطام بكوكب الأرض منذ 3,8 بليون سنة مضت. وقبل ذلك الحين كان يظن أن الأحوال كانت شديدة الاضطراب بما لا يسمح بنشوء خلايا هشة.

إلا أن بعض العلماء يعتقد الآن أن الحياة لم تنتظر حتى الانتهاء من تكون القشرة الأرضية. فطبقا لـ «ستيفن ج. موجزسيس Stephen J. Mojzsis» من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس تحتوي أقدم صخور الأرض الرسوبية، في جنوب غرب جرينلاند، على بصمات كيميائية لخلايا معقدة يبلغ عمرها 3,86 بليون سنة - على أقل تقدير. ولو كان الأمر كذلك، فلابد أن يكون أول تسارع للحياة قد حدث منذ ملايين السنين قبل ذلك، ربما بين انفجارات الوابل الكوني.

وفي واقع الأمر ربما لعبت هذه القذائف الفضائية دورا مركزيا في نشأة الحياة. إذ يشتبه قلة من العلماء بنشوء خلايا شبيهة بالبكتيريا على سطح كوكب آخر والتي ما لبثت أن قامت برحلتها على متن إحدى الكويكبات إلى كوكب الأرض.

ويكمن الدليل المدعم لهذه النظرية الفضائية (الخارج أرضية) في داخل نيزك في حجم ثمرة البطاطس يعرف باسم ALH 84001. إذ يحتوي هذه النيزك على علامات محتملة للحياة على كوكب المريخ. وقد أبحرت هذه الصخرة النيزكية في رحلة غير مباشرة عبر النظام الشمسي الداخلي حتى هبطت في أنتاركتيكا (القارة القطبية الجنوبية) منذ 13 ألف سنة مضت.

وعندما فحص خبراء النيازك النيزك ALH 84001 وجدوا عصويات دقيقة تشبه في الشكل البكتيريا الأحفورية، مما بعث على الاعتقاد أن الميكروبات ربما ازدهرت يوما ما عميقا في داخل القشرة المريخية. إلا أن الجدل حول هذه الحفريات المريخية المحتملة سوف يحتدم إلى أن تبعث وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) مجسا إلى هذا الكوكب الأحمر لجلب عينات من القشرة المريخية وهي مهمة مخطط لها في العام2005. ولو تمكن العلماء من إثبات أن الميكروبات سكنت يوما ما في كوكب المريخ فإنه من المحتمل تصور أن الحياة نشأت هناك وسافرت بطريقة غير متعمدة على متن قطع طائرة من الأنقاض إلى كوكب الأرض.

سواء كانت الحياة قد بدأت على الأرض أم المريخ أم حتى في مكان آخر أكثر بعدا فإن من المحتمل أنها كانت منتشرة عبر كوكبنا في زمن صخور جرينلاند. ومع ذلك فإن العلماء لن يعرفوا أبدا الشكل الذي كانت عليه هذه الكائنات المبكرة حيث إن أقدم الصخور الرسوبية لا تحمل أية حفريات يمكن التعرف عليها.

فرواسب جرينلاند والرواسب الأخرى المشابهة لها في القدم مبهمة بصورة مثيرة للإحباط. فقد تحطمت هذه الرواسب بفعل القارات المتصادمة ودفنت في أعماق ما تحت سطح الأرض حيث أتلفها الضغط والحرارة الشديدان. وقد أطلق علماء البدائيات على هذه الصخور مصطلح Fubaritic وهو مصطلح يعني أنها «فسدت بما لايسمح بالتعرف عليها» Fouled up beyond all Recognition كما يقول ج. وليام سكوبف J. William Schopf عالم البدائيات في يوكلا.

وقد قضى سكوبف، وهو رجل يرتدي نظارة ولا يفارق الغليون فمه، الكثير من حياته يبحث عن حفريات ما قبل الكامبري. وفي عام1992 أماط سكوبف اللثام عن أحد أهم اكتشافاته تأثيرا: حفريات مجهرية عمرها 3,46 بليون سنة في صخور آبكس الصوانية، وهي تكوينات صخرية بعيدة تقع إلى الشمال في غرب استراليا. يصف سكوبف حالة هذه الحفريات المتردية وهو يسحب أنفاس غليونه بهدوء قائلا: «كانت هذه المادة من أصعب المواد التي عملت فيها على الإطلاق. كانت الحفريات على درجة من القدم حتى أنها تفحمت إلى كسرات وقطع سوداء».

وللعثور على هذه الحفريات المجهرية، أنفق سكوبف أربعة شهور محدقا في مجهره فاحصا الصخور لمدة 10 ساعات يوميا ليجد جسماً واحدا فقط يمكن تقديره بأنه حفرية. وبسبب معدل النجاح المنخفض هذا أصبح سكوبف على علاقة حميمة بهذه الحفريات حتى أنه أطلق أسماء تحببية على كل حفرية منها.

يقول سكوبف «هذه حقيقة حفرية جميلة» مشيرا إلى شعيرة تشبه الدودة الحلقية فيما عدا أنها أصغر منها بـ 20 ألف مرة. ويردف قائلا: «بسبب صغرها المتناهي أسميتها ويللي Willie مشبها إياها بالجوكي ويللي شوميكر».

ويبدو بعض من حفريات آبكس كصورة طبق الأصل من البكتيريا الزرقاء Cyanobacteria وهو نوع من البكتيريا يعيش في



الحياة تبدأ في تركيب نفسها

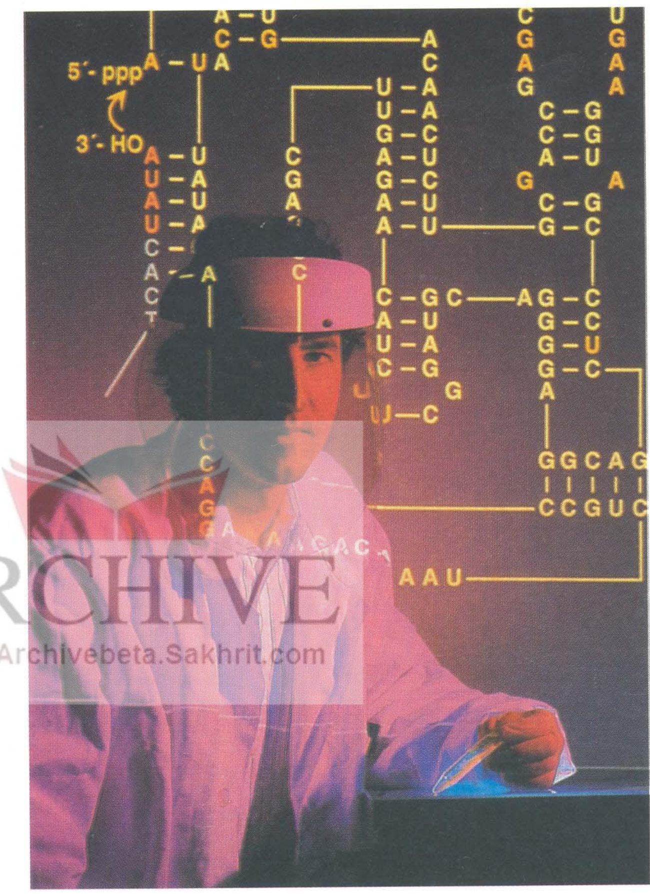
تبدو هنا جزيئات الـ RNA متكاثرة في خلية حديثة ملونة آخذة شكل العروق في ورقة نبات، متبعة في ذلك الخطة الوراثية التي أمدها بها الحبل المركزي من الـ DNA. ومع ذلك فإن الحياة البدائية كانت على الأرجح لا تمتلك جزيئات الـ DNA. إذ اعتمدت عوضا عنه على جزيئات الـ RNA وفقا لخطة وراثية مكنتها من العيش والتكاثر ذاتيا.

زبد البرك وكان يعرف سابقا بالطحالب الزرقاء – الخضراء Blue - green algae والبكتيريا الزرقاء أحد أكثر أشكال الحياة صلابة في يومنا هذا إذ تستطيع العيش في بيئات لا تألفها الكائنات الأخرى: فمن أكثر الصحارى جفافا إلى ثلوج القارة القطبية الجنوبية وحتى صهاريج التبريد في المفاعلات النووية.

وتتميز البكتيريا الزرقاء بخاصية مميزة ألا وهي قدرتها على استخدام ضوء الشمس لتحويل ثاني أكسيد الكربون إلى سكريات غنية بالطاقة، مولدة الأكسجين كناتج ثانوي. وهكذا تثبت هذه البكتيريا القائمة بعملية التخليق الضوئي سلسلة الغذاء وتمد الكائنات العليا بأسباب العيش.

ولأن عملية التخليق الضوئي عملية معقدة فقد دهش سكوبف لوجود دليل على امتلاك البكتيريا الزرقاء، وهي أقدم الميكروبات المعروفة، هذه القدرة المتطورة. يقول سكوبف «قبل هذا الاكتشاف كان من المعتقد أن الحياة ابتدأت وتقدمت ببطء على مر الدهور قبل تطور الأشكال الأكثر تعقيدا. إلا أن هذه الرواسب تخبرنا أن الحياة قد تطورت مبكراً جداً منذ زمن بعيد وبسرعة كبيرة».

وفي زمن حفريات آبكس منذ 3,46 بليون سنة مضت، كان من غير الممكن بالمرة التعرف على كوكب الأرض كما يبدو لنا الآن. كان الكوكب يدور بسرعة أكبر حتى أن اليوم الواحد كان يدوم أقل من 18 ساعة. وكانت الشمس الفتية الشاحبة معلقة في السماء ووهجها أكثر



ولفهم كيف أدت جزيئات الـ RNA وظيفتها هذه، يحاول جيرالد جويس من معهد سكريبس للأبحاث تخليق سلالة من الـ RNA شبيهة بتلك التي كانت موجودة فيما مضى. وتحت معروضة لتركيبها من النيوكليوتيدات، تتوهج هذه الدفعة من الـ RNA الناشىء في أشعة الضوء فوق البنفسجة وهي علامة على استعدادها للدخول في المرحلة التالية من التجربة. يقول جويس «هدفنا هو إنتاج حياة في أنبوبة اختبار، نوع من الحياة الجزيئية التي لا يسهل سحقها».

ضعفاً من النجم البالغ الذي نراه اليوم. لم تكن هناك قارات، فقط أرخبيلات من الصخور البركانية الناتئة فوق الأمواج. ولم تكن هناك حشرات تطن أو أوراق نباتات تحف، فقط أصوات البراكين المقعقعة والرياح الصارخة فوق القمم القاحلة. وكانت هناك أجسام ذات أشكال غريبة - بعضها في كبر حجم السيارات - مبعثرة فوق الشواطىء والمياه الضحلة. وتعرف هذه الأجسام بالستروماتولايت Stromatolite وهي أجسام ساكنة يظن للوهلة الأولى أنها من الجلمودات العادية وإن كانت في واقع الأمر زاخرة بالميكروبات، وقد كانت هذه الأجسام أكثر أشكال الحياة وفرة أثناء عصر ما قبل الكامبري.

ومازالت أجسام الستروماتولايت تحيا في البيئات الشحيحة الغذاء مثل بحيرة كليفتون Lake Clifton بمحاذاة الساحل الجنوبي الغربي لاستراليا. وذات يوم غائم من الصيف السابق سافرت إلى هذه البحيرة بصحبة ليندا مور Linda Moore عالمة الأحياء الاسترالية لمعاينة آثار ما قبل الكامبري هذه عن قرب. كانت هناك ثمة رائحة عاصفة رعدية معلقة في الهواء في الوقت الذي كانت مور تغوص في المياه الدافئة محاولة ألا يلتصق حذاء التنس الذي ترتديه بقاع البحيرة الموحل. وعادت بستروماتولايت صغير في يدها. وكنت أتوقعه في صلابة الحجر إلا أن سطحه الخارجي ذا اللون البني المخضر كان ذا ملمس لين (سهل سحقه أو هرسه). تقول مور: «إنه ميت من الداخل، فالجزء الحي الوحيد منه هو السطح الخارجي».

وبتركيبها نصف الميت ونصف الحي تمثل أجسام الستروماتولايت مشاركة بين الكائنات

الخلايا تتشكل

يقول ديفيد ديمر **David Deamer** وهو اختصاصي بالفيزياء الحيوية في جامعة كاليفورنيا في سانتا كروز «أنا أتخيل أن الحياة قد بدأت بداية هشة متطلبة بيئة معتدلة، بركة عادية من المياه الجارية مثلاً». هناك، وبطريقة مشابهة لاختلاط الماء بجزيئات الدهون المعروفة بالليبيدات **Lipids** والتي تخلق أنابيب ملتوية في المختبر (إلى الأعلى)، قد تكون الأمواج تسببت في اختلاط الماء بمركبات عضوية شبيهة بالليبيدات لتكون أنواعا من الفقاعات في حجم الخلية على الشاطىء.

وقد وجد ديمر أن المواد العضوية الناتجة من النيازك تتربل في الأحوال المماثلة لبرك المياه الجارية آخذة شكل كبسولات. وربما كونت مواد مشابهة الخلايا الأولى بتغطية جزيئات متكاثرة ذاتيا داخل أغشية.

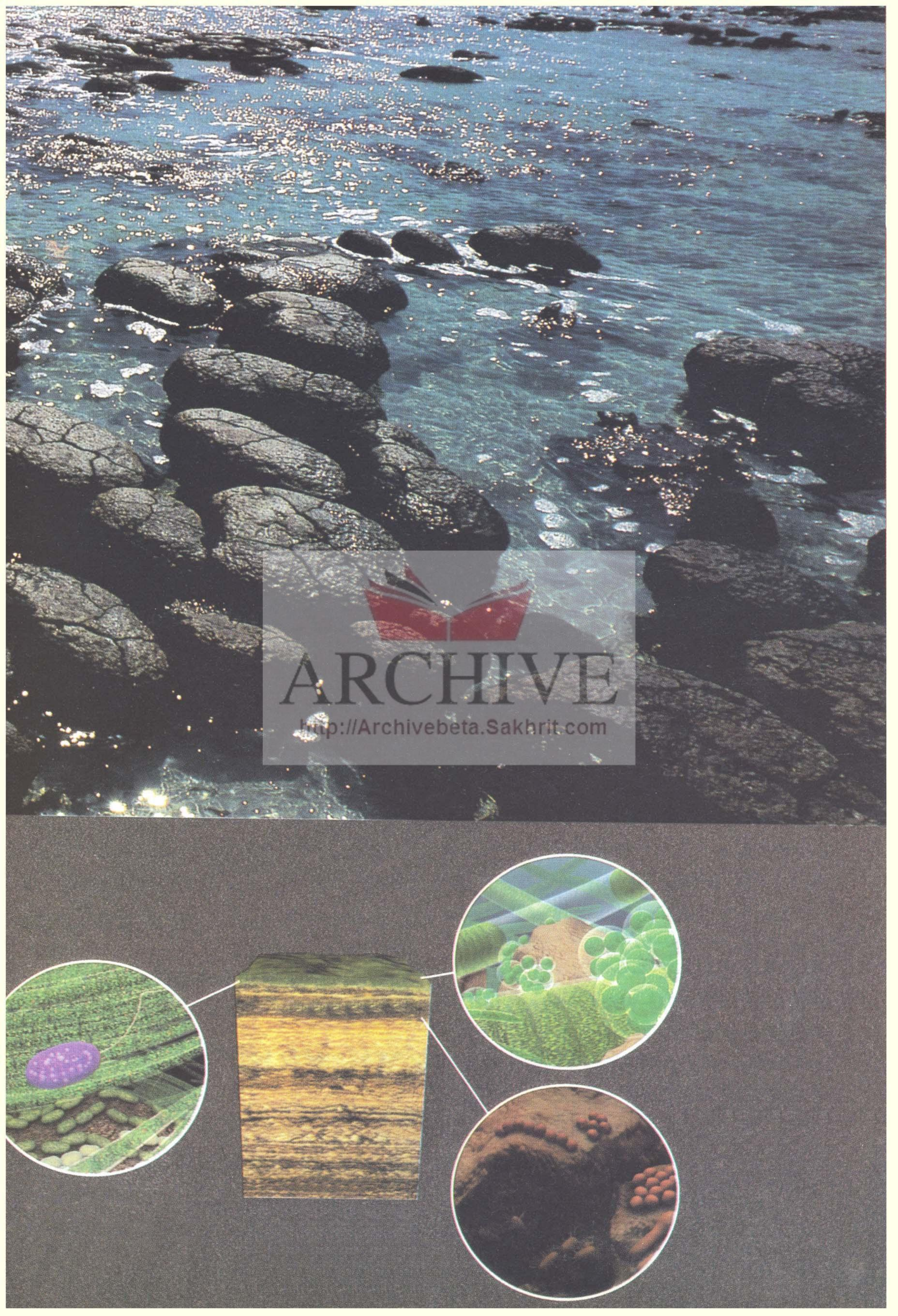


المجهرية الدقيقة والصخر. فالغطاء الأسفنجي مكون من شعيرات البكتيريا الزرقاء التي تفرز مخاطا لزجا يوقع في شركه حبيبات ترسيبية تلتصق ببعضها البعض مكونة قشرة صخرية. وعندما تنمو الشعيرات في الطول تأسر حبيبات أخرى، مضيفة طبقة جديدة إلى الخارج. أما ما تبقى في الداخل فهو من الصخر الميت.

ووسط القباب، رحت أتطلع إلى آلاف من الستروماتولايت المبعثرة كالبثور على الشاطىء. تقول مور برنة من الحنين إلى أيام ذروة الستروماتولايت «الوقوف هنا يمثل عودة بنا إلى الماضي. لقد تعودت الستروماتولايت أن تسود، أما الآن فهي غير شائعة، فقد أنهى تطور الكائنات الأعلى عهدها».

وعندما ظهرت الطحالب والعشب البحري منذ أكثر من بليون سنة مضت سادت هذه الكائنات، الأسرع نموا من أجسام الستروماتولايت الساكنة، على البحار الضحلة. وبعد نحو500 مليون سنة رعت الحيوانات الأولى على الشعيرات البكتيرية في أجسام الستروماتولايت، مقررة بذلك مصير هذه الأجسام.

واليوم يتكرر هذا الاعتداء على الستروماتولايت في بحيرة كليفتون. فمع زيادة التطور في جنوب غرب استراليا تصب مياه البواليع ومياه الزراعة الجارية مواد غذائية في البحيرة. تقول مور التي تشترك في حملة لإنقاذ الستروماتولايت «الآن تهدد الطحالب العدوانية بالقضاء على الستروماتولايت. وبمجرد ضياعها لن يكون بالإمكان استعادتها مرة أخرى. يبدو





مازالت سلاسل صخور الستروماتولايت السطحية - وهي كل ما تبقى على قيد الحياة من أولى المجتمعات الحية - مزدهرة في شارك باي Shark Bay، استراليا مثلما ازدهرت في كل مكان من العالم منذ 3,5 بليون سنة مضت. تنمو حشية مخملية من الميكروبات في طبقات رفيعة محتلة بضع بوصات من سطح الستروماتولايت. وتشمل هذه الطبقات في الأعلى البكتيريا الزرقاء التي تقوم بعملية التخليق الضوئي وتنتج الأكسجين، وفي القسم الأوسط البكتيريا التي تستطيع تحمل بعض من الأكسجين وضوء الشمس، وفي القاع البكتيريا التي تنمو فقط في غياب الأكسجين وضوء الشمس. والرواسب التي تُأسر في هذه الحشية تتحد مع كربونات الكالسيوم من المياه بانية باستمرار الأساس الصخري الصلب للستروماتولايت. وتتحرك الميكروبات إلى أعلى خلال هذه الرواسب لتجد طريقها إلى ضوء الشمس ولتتجنب التصاقها بالطبقة الإسمنتية.

وهذه المجتمعات نادرة الآن. فهي تعيش في شارك باي ربما بسبب الماء شديد الملوحة الذي يبعد الكائنات الضارية عنها.

حرب غازات شاملة

وقد نشأت البكتيريا الأولى التي قامت بعملية التخليق الضوئي في غلاف جوي خال من الأكسجين لذا فقد استهلكت وأنتجت غازات أخرى. ثم بدأت الذرية الطافرة في إنتاج الأكسجين، مسممة بذلك البكتيريا الأصلية. وعندما أصبح الهواء أكثر غنى بالأكسجين شغلت الذرية السطح بينما تراجعت الأصول.

الأمر كما لو أننا نرى تناقصها الذي حدث في نهاية ما قبل الكامبري مرة أخرى».

وعلى الرغم من أن أجسام الستروماتولايت تصارع اليوم من أجل البقاء إلا أن هذه المكورات القاسية دفعت أندادها من الكائنات الدقيقة جانبا إبان حقبة ما قبل الكامبري وسادت عليها وذلك بتسميمها المحيط بغاز الأكسجين، وهو غاز شديد السمية للبكتيريا الأخرى والأركيات. وفي البداية لم يكن على هذه الأشكال من الحياة أن تتعامل مع هذا السم بسبب خلو الغلاف الجوي والمحيط تقريبا من أي أكسجين حر. إلا أنه بنشوء البكتيريا الزرقاء بدأت هذه الأخيرة بشن أول حرب غازات في تاريخ العالم. فالأكسجين الذي أنتجته من عملية التخليق الضوئي أعاق نمو الميكروبات الأخرى وبذلك تمكن الوافدون الجدد من الفوز بالأماكن المختارة في المياه الضحلة التي تتعرض بصورة أفضل للشمس.

وفي نهاية الأمر بدأت البكتيريا الزرقاء في ملء الغلاف الجوي بالأكسجين مورثة إيانا تراثا جعل حياتنا ممكنة في يومنا هذا. تقول لين مارجوليس Lynn Margulis عالمة الأحياء في جامعة ماساتشوستس في أمهيرست «إن الغاز الذي أنتجته البكتيريا الزرقاء قد غيّر العالم».

وربما تتعاطف مارجوليس، وهي العالمة الدؤوبة المقاتلة، مع البكتيريا الزرقاء التي عاشت إبان عصر ما قبل الكامبري. فمثل هذه الكائنات العتيقة، قلبت مارجوليس، بلارحمة، الأوضاع السائدة. فقد طرحت جانبا أفكار التطور القياسية (المتعارف عليها) وأرغمت علماء الأحياء على تغيير نظرتهم لتاريخ الحياة.

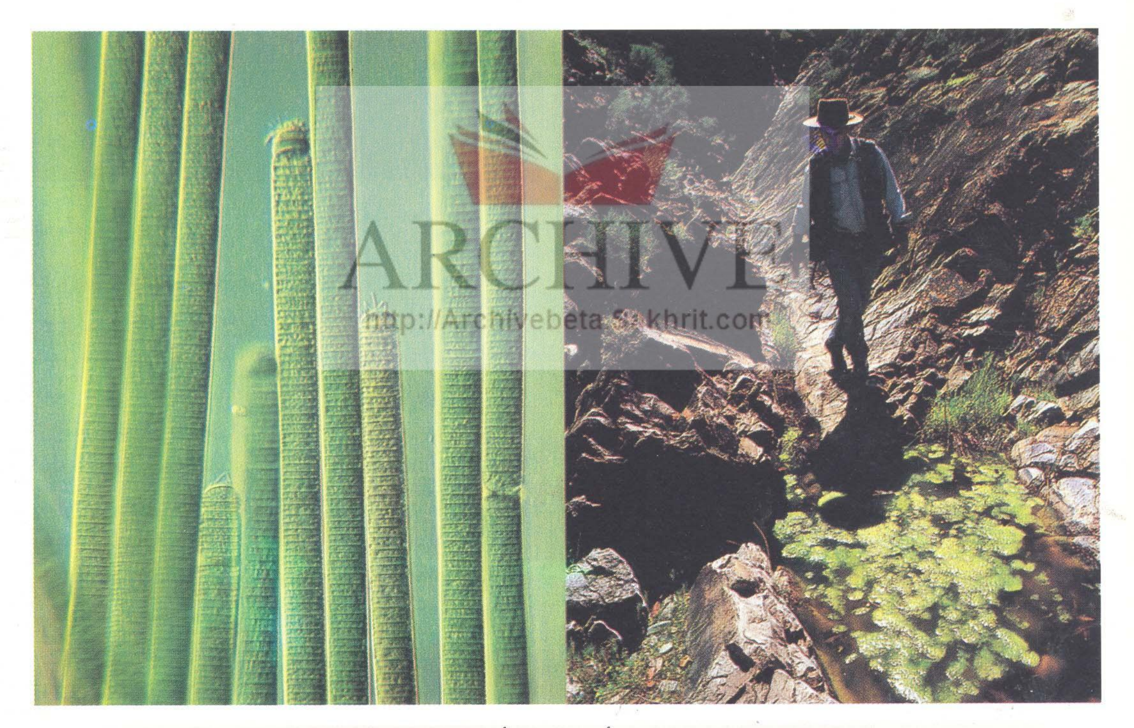
فمنذ أن عينت نفسها سفيرة لعالم الميكروبات،



عملت مارجوليس بلا كلل على تحسين فهمنا لأشكال الحياة المجهرية والتي ربما تشكل نصف المادة الحية على كوكب الأرض. تقول مارجوليس «مفهوم معظم الناس للطبيعة يماثل مفهوم أميّ لها. فمن الواضح أن هناك نباتات، ومن الواضح أيضا أن هناك حيوانات وباستثناء ذلك فإن كل شيء آخر هو من الميكروبات».

وتجادل مارجوليس بأن الكائنات الدقيقة لا تلقى التأييد الكافي بالنسبة لإنجازاتها. فإبان عصر ما قبل الكامبري ابتكرت البكتيريا عملية التخليق الضوئي وأقامت العالم وحولت الغلاف الجوي بإضافة غاز الأكسجين وبعضها وقع على طريقة للتعامل مع السم الجديد في البيئة وذلك بتسخير قدرة الأكسجين على الإحراق واستعمالها لتكسير الغذاء.

والبكتيريا التي تستعمل الأكسجين تعمل كشاحن توربيني فهي تولد طاقة بكفاءة أكبر كثيرا من جاراتها الكارهة للأكسجين أو اللاهوائيات.



منتجو الأكسجين الأوائل

ملصق من الصور المجهرية (في المقابل) يوضح حفرية عمرها 3,46 بليون عام من استراليا، وهي الأقدم في الحفريات التي وجدت حتى الآن. وعندما كانت حية كان هذا الخيال المتموج يشبه على الأرجح شريطا من البكتيريا الزرقاء القائمة بعملية التخليق الضوئي والمعروفة بالأوسيلاتوريا Oscillatoria (الأسفل إلى اليسار). وربما كانت مستعمرات من هذه الكائنات النامية في أماكن مثل هذه البركة أمام عالم البدائيات الاسترالي جيم جيهلنج Jim Gehling من أوائل الكائنات التي أضافت الأكسجين إلى الهواء.

فبينما تنتج البكتيريا اللاهوائية وحدتين فقط من الطاقة تستعمل البكتيريا الهوائية الأكسجين لإنتاج 36 وحدة من الطاقة من الجزيء نفسه.

وتعتقد مارجوليس أننا نحمل المتحدرين من بكتيريا ما قبل الكامبري داخل أجسادنا. مثلنا في ذلك مثل البطونية والباراميشيا وكل الإيوكاريوتات الأخرى تقريبا. ففي خلايانا توجد مصانع طاقة دقيقة تدعى الميتوكوندريا Mitochondria تقوم بإحراق السكر والأكسجين لتوليد الطاقة. ومنذ 30 سنة مضت أيدت مارجوليس الفكرة القائلة إن الميتوكوندريا ماهي إلا بقايا من البكتيريا التي تتنفس الأكسجين هاجمت الخلايا الإيوكاريوتية ربما منذ نحو بليوني سنة مضت وبقيت فيها منذ ذلك الحين. ولهذا السبب نحتاج إلى الأكسجين. فمع كل نفس نغذي هؤلاء المتحدرين من البكتيريا الموجودة داخل خلايانا.

أما النباتات فهي بالإضافة إلى ذلك تؤوي لاجئا مستخفيا آخر. فمقدرتها على التخليق الضوئي ترجع إلى البكتيريا الزرقاء سابقاً والتي تقيم الآن داخل خلايا النبات كمصانع تعمل بضوء الشمس تسمى الكلوروبلاست Chloroplast.

تقول مارجوليس لي «كل شيء حي اليوم تعود أسلافه إلى البكتيريا الأولى وتمهلت حتى أتبين أصولي المتواضعة» ثم أردفت قائلة «كنا نظن دائما أننا قد أتينا من القرود ولكن في حقيقة الأمر أتت خلايانا من عالم البكتيريا».

وأخذت أبحث عن آثار ميراثي البكتيري بينما أتفحص صورة فصيلية أخذت في منتصف عصر ما قبل الكامبري. وفي هذه الصورة – وهي عبارة عن شريحة مجهرية لشريحة من ستروماتولايت

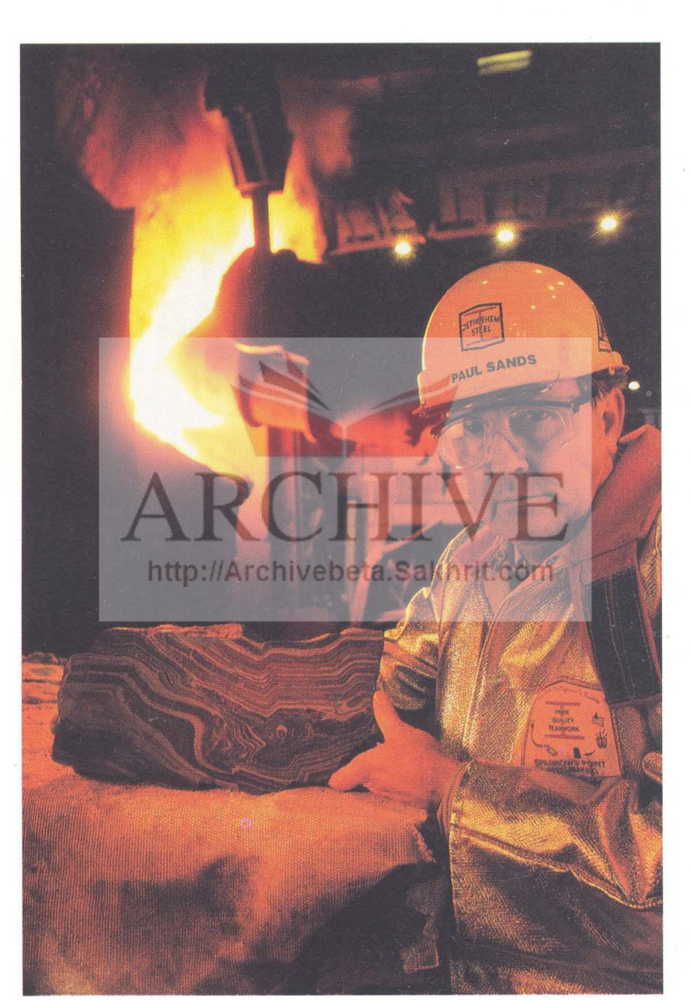


إنتصار الأكسجين

لماذا استغرق بدء تراكم الأكسجين في الغلاف الجوي ما يقرب من بليون سنة؟ أحد الأسباب يكمن في قاع المحيط. إذ احتوى ماء البحر فيما مضى على الحديد المذاب. وعندما عمت البكتيريا الزرقاء المحيط تفاعل الأكسجين الذي تنتجه مع الحديد. مرسبا إياه في صورة صدأ على قاع المحيط. وعلى مر ملايين السنين كون هذا الصدأ طبقات عميقة من الصخر المحزم. وفي الصورة (إلى اليسار) يلقي فرن مصنع ماريلاند للصلب في بيت لحم ضوءه على عينة من هذه الترسيبات عمرها 2,1 بليون سنة. وبمساعدة هذا الفرن يمكن تحويل خام الحديد المماثل لهذه الترسيبات إلى صلب. ومن هذا يتضح أن مواقدنا وجسورنا مصنوعة من مواد مخلقة بوساطة البكتيريا. وفي نهاية الأمر تأكسد كل الحديد في المحيطات وتزايد الأكسجين بحدة في الغلاف الجوي مفيدا الكائنات الأكبر مثل الجريبانيا Grypania والتي تبدو حفريتها اللولبية في صخرة عمرها 2,1 بليون سنة (إلى أعلى).

كندي - استطعت أن أميز شعيرات بكتيريا أحفورية بلون صور الحبار الباهتة. ويبلغ طول كل شعيرة 1/500 من طول شعيرة رمش العين.

كان أندي نول Andy Knoll، عالم الأحياء البدائية في جامعة هارفارد، يحدق عبر إحدى اسطوانتي المجهر. وبينما يعدل نول المجهر تسبح طبقات مختلفة من البكتيريا في البؤرة ثم تختفي. وللحظة قصيرة تبدو هذه الحفريات حية وهي ترقص في ضوء المجهر.



وعلى الرغم من مشاهدته لهذه الشريحة مئات المرات إلا أن نول تعجب قائلا «إنهم يتميزون حقا بالجمال، مازلت أجد أنه من المثير التفكير بأنه منذ بليوني سنة مضت كانت هذه الأشياء حية».

وقد عاش قاطنو هذه الستروماتولايت عند نقطة حرجة: كان الأكسجين قد بدأ يتراكم في الغلاف الجوي والإيوكاريوتات بدأت في ظهورها الأول. وقد خلفت هذه الإيوكاريوتات الأولى وراءها حفريات دقيقة وحيدة الخلية والتي بدت تحت المجهر ككرات شاطىء مدلاة. ولمئات الملايين من السنين بقيت هذه الإيوكاريوتات ككرات ملساء مع ظهور بضعة أنواع جديدة. وقد بدا أن التطور يستمر في حركة بطيئة.

وفيما بين 1,2 بليون و 1 بليون سنة مضت نشطت سرعة التطور فجأة عندما تطور نحو اثني عشر نوعاً جديداً. بعضها كانت له أغطية ذات عقد وبعضها الآخر له أشواك نحيلة أو قرون قوية.

وربما مثَّل نشوء الجنس إحدى شرارات هذه الثورة البيولوجية. فقبل هذه الحقبة كانت الكائنات

• البكتيريا

البكتريا الخضراء الكبريتية

البكتريا الصفراء

البكتريا الهاضمة للسليلوز

البكتريا اللولبية

الأجرو البكتريا

الميتوكوندريا

الإي كولاي

• الإيوكاريا

(الإيوكاريوتات)

السترامينوبيلات ذوو الحويصلات

الأنتاميبات

الطحالب الحمراء

اليوجلينوزووا

• الحيوانات

(مشتملة على البش

الفطريات

النباتات

فطريات (عفن) الأوحال

الميكروسبوريديان

الترايكومونادات

الديبلومونادات

البكتريا موجبة الجرام

البكتريا الخضراء اللاكبريتية

كويفيكالات

أقرب الكائنات للسلف المشترك

الثرموفيلات (الكائنات المحبة للحرارة)

• الأركيات

الأركيات المحبة للملح

الثرموبلازمالات

البكتريا الميثانية

الأركيات المحبة للحمض

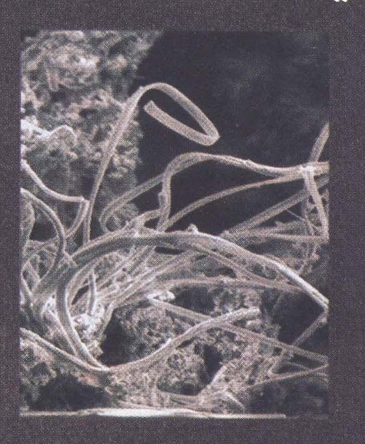
الثرموبروتيالات

أركيات الينابيع الحارة والعينات البحرية (غير المتعهدة بالعناية)

منظور جديد للحياة

مسخنا بنيران قديمة قدم الأرض نفسها، يمد هذا الينبوع الذي تتصاعد منه الأبخرة في منتزه يللوستون الوطني آنا - لويز ريزينباخ عالة الأحياء الميكروبية في جامعة روتجرز بعينة من قاطنيه. تقول ريزينباخ «إنها تبدو كالوحل الآن ولكنها تحت المجهر هي غابة من الكائنات».

وتشمل هذه العينات عادة الأركيات بالإضافة إلى البكتيريا. وعلى الرغم من أنهما شكلان مختلفات جدا من



أشكال الحياة إلا أنهما قد صنفا معا فيما مضى. على أنه ابتداء من منتصف السبعينيات كشف التقدم في التركيب التسلسلي للجينات التنوع الكبير في عالم الميكروبات. ونتيجة لذلك استبدلت الممالك الخمسة للحياة المنصوص عليهم في الكتب الدراسية - وهي النباتات والفطريات والحيوانات في القمة، والإيوكاريوتات وحيدة الخلية في المنتصف، والبروكاريوتات في القاع - بشجرة ذات ثلاثة ممالك (إلى

اليوم

0.5

ظهور أسلافنا الأوائل قبل 4 ملايين سنة، بينما ظهر البشر المعاصرون قبل 100 ألف سنة من الآن.

نشوء الديناصورات وانقراضها منذ 65 مليون سنة مضت، ربما أبيدت بسبب تصادم نيزكي.

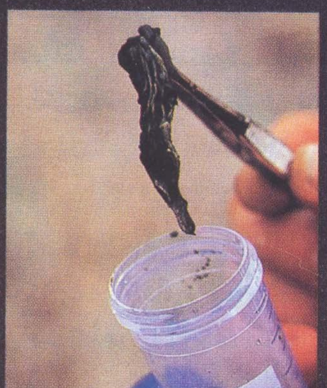
جلب العصر الكامبري وفرة من أشكال الحياة المائية والتي تشمل ثلاثيات الفصوص والبطلينوسات واللافقاريات الأخرى.

ظهور الأسفنجيات والديدان والحيوانات الأخرى المتعددة الخلايا في العصر الفندي، وهو الفترة الأخيرة من ما قبل الكامبري.

أعلى) حيث يدل بعد المسافة من الجذع إلى أي مدى تطور أحد الأنواع وراثيا عن الأسلاف المشتركة.

كما أوضحت المقارنات الوراثية أيضا أن كل أقدم الذريات المعروفة تنمو في الحرارة. ففي عينة أخرى من يللوستون - وهي التي نراها إلى اليمين تحت المجهر الإلكتروني - تعرفت كارين بلانك Carrine Blank خريجة معهد بيركلي، على ما قد يكون أقرب الكائنات التي وجدت حتى الآن إلى السلف المشترك (محاط بدائرة في الرسم التخطيطي إلى أعلى). ويقول بعض العلماء إن هذا يدعم النظرية القائلة إن الحياة قد ابتدأت في عالم ساخن. بينما يتساءل آخرون إذا ماكانت الثرموفيلات هي فقط مجرد ما تبقي على قيد الحياة من تصادمات النيازك الذابلة.

وبغض النظر عن ماهية جذور الحياة، فإن مظلة الحياة الممتدة قد شملت، فقط حديثا، على كائنات مثل البشر.



بلايين من السنين مضت

2

يشير أقدم دليل على الإيوكاريوتات إلى تطور تركيب خلوي يحتوي على نواة.

اختلاط الجينات من خلال التكاثر الجنسي يؤدي إلى تفجر أشكال الحياة في أوساط الإيوكاريوتات.

قابلية الغزاه للعطب

طفيليات الملاريا المتوحشة داخل خلية دم حمراء (أقصى اليسار) تتحفز للقيام بثورة. إذ سيهاجم كل واحد منها خلية أخرى ممتصا هيموجلوبينها ومنتجا جيلا جديدا من الطفيليات المعدية. ومع ذلك، وقبل وقت طويل لبدء قيامها بمهاجمة العوائل ذات الدم الحار، كانت الخلايا السالفة لطفيل الملاريا تحيا كنباتات. واليوم يحتوي كل طفيل منها على أثر تذكاري من هذه الحقبة وهو يعرف بالكلوروبلاست Chloroplast الذي يعتبر مركزا للتخليق الضوئي، مثل ذلك الموضح باللون الأخضر في الخلية الملونة إلى اليسار.

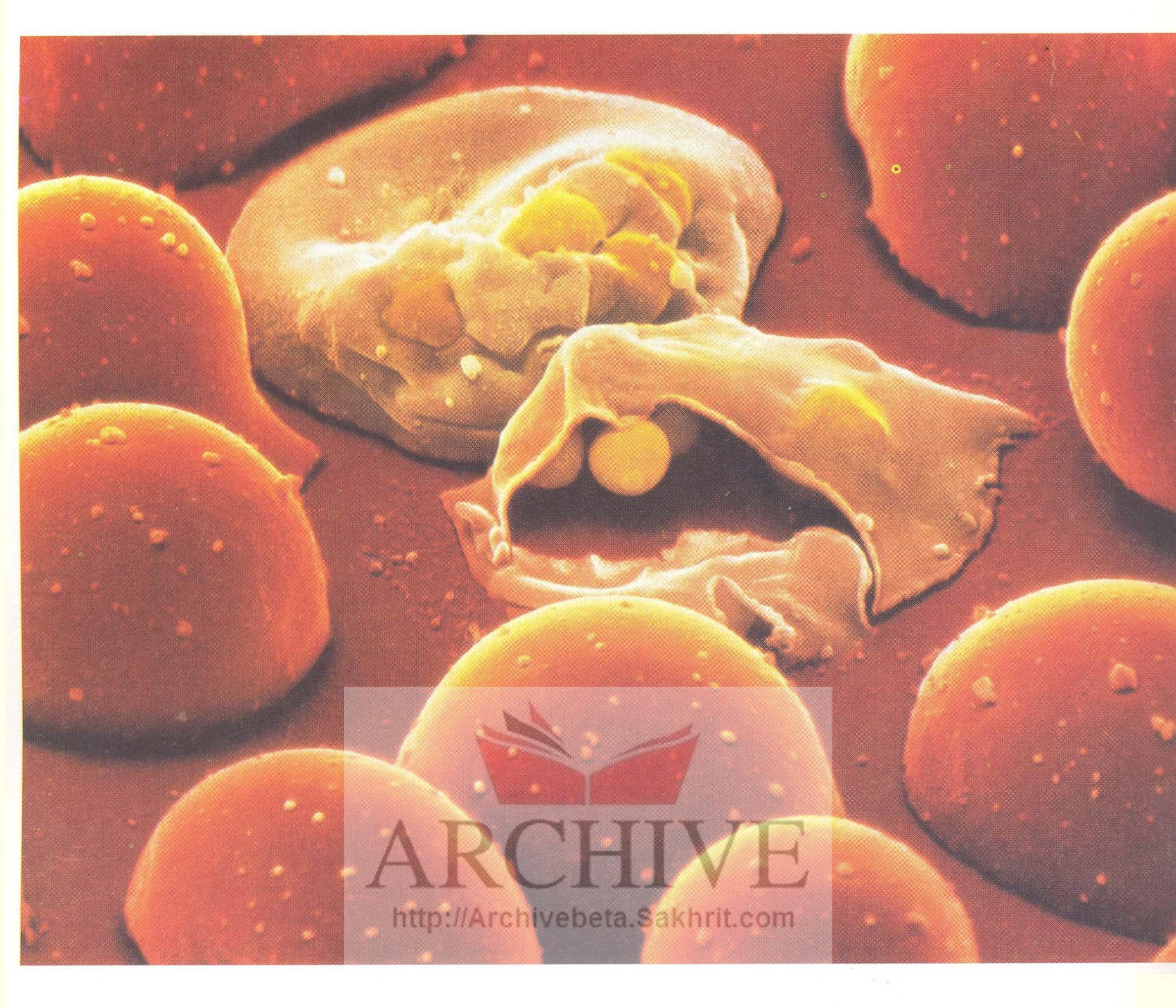
أما ماذا يفعل الكلوروبلاست لطفيليات الملاريا المعاصرة فغير واضح حتى الآن. إذ لايمكن لهذه الطفيليات القيام بعملية التخليق الضوئي في غياب الضوء داخل الجسم البشري. إلا أن العلماء وهم يمعنون الفكر لمحاولة حل معميات هذا اللغز من ألغاز الحياة يعتقدون أن الكلوروبلاست يلعب دورا لاغنى عنه لهذه الطفيليات، وأنه في يوم ما قد يمكن التخلص من واحدة من أكثر بلايا التاريخ قدما بشيء في بساطة مبيدات الأعشاب.

تتكاثر لا جنسيا وذلك بصنع نسخ وراثية مطابقة لها. إلا أن الإيوكاريوتات المتقدمة طورت لنفسها استراتيجية أكثر تعقيدا: إذ يخلط الأبوان جيناتهم بعضهم ببعض أثناء التكاثر الجنسي لإنتاج اتحادات جديدة.

وبحلول هذا التكاثر الجنسي حدث تعاظم مفاجىء لما كان عليه التطور من مسار جليل إلى سرعة أكبر، محثا تطور أنواع جديدة من الكائنات. يقول نول «مع نشوء الجنس حصلنا على الكثير من الاتحادات الجينية وبالتالي على الكثير من احتمالات التغير».

وتبدو تأثيرات تحولات الخلفية الوراثية واضحة عندما أحمل ابني نوح Noah الذي يبلغ عامين من العمر، إذ اكتسب نوح مجموعة كاملة من الملامح من أعضاء كثيرين في عائلته. ففيه أرى أذنيّ الكبيرتين وجبيني المغضن منسوجين معا مع ابتسامة والدته وذقن جده المشقوق وعيون عمته البنية الشبيهة بصحن الفنجان.

في هذه الليلة المنعشة من ليالي أبريل كنا نقف في الخارج لمشاهدة مذنب هالي - بوب الذي يضيء الأفق الشمالي الغربي، باديا كعلامة تعجب سماوية مائلة على أحد جانبيها. منذ ما قبل تكون الأرض ومذنب هالي بوب يجوب الفضاء مخلفا وراءه قافلة من الجزيئات العضوية وكيماويات

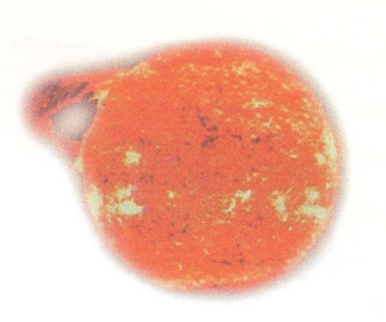


غريبة أخرى. ويذكرنا ذيله الغامض بأن مذنبات مشابهة له ربما تكون قد بزرت الأرض المبكرة بلبنات بناء الحياة.

وتوجد تذكارات أخرى من عصر ما قبل الكامبري يتردد صداها عبر عالم اليوم. فهي داخل أجسامنا وفي كل شيء تقريبا نراه. فأثناء حملي لنوح بدأت ذراعي تكلان وترهقان. ويرجع ذلك لنفاد الأكسجين من الخلايا العضلية في العضلة ذات الرأسين Biceps مما يوجب عليها أن تتحول وقتيا إلى أسلوب الحياة الاختماري، تماما مثل البكتيريا الأولى.

وفي أجزاء أخرى من جسمي تساعد الميتوكوندريا – وهي تنحدر من أسلاف عاشت في عصر ما قبل الكامبري – على توليد الطاقة من طعام العشاء الذي تناولته منذ لحظات. كما تعج خلاياي بجزيئات الـ RNA التي تقتفي أثر أسلافها إلى بعض من أشكال الحياة الأولى. كما يحتوي العشب الذي أطأه بقدمي على بقايا من البكتيريا الزرقاء التي ساعدت على بناء أجسام الستروماتولايت قبل ظهور القارات.

احتضنت نوح وتساءلت هل سيشاهد المتحدرون منا مذنب هالي بوب وهو يندفع بسرعة البرق بعد 2400 عام من الآن، ناثرا السماء بمقومات حياة جديدة؟.



هل الإنسان هو المسؤول الوحيد فعلا عن احترار مناخ الأرض ؟

ترجمة : محمد الدنيا

تطلق النشاطات البشرية (الصناعة، وحركة السيارات....) في الجو كميات متنامية من غازات ظاهرة البيت الزجاجي التي تسبب، بشكل مؤكد، ازدياداً في متوسط حرارة الأرض. ولكن، في الوقت الذي يجتمع ممثلو 150 بلداً في اليابان لمناقشة هذه المشكلات، يقتفي الباحثون أثر عامل آخر يشتبه فيه : الشمس. إذ ربما كانت الشمس تؤثر بطريقتين، إما بإصدار إشعاعات بصور متنامية، وإما بتغيير غطاء أرضنا السحبي. وفي الحالتين، يمكن أن يتأذى مناخ الأرض. وتظل هاتان الفرضيتان، مع ذلك، موضع جدل وتتطلبان التحقق منهما.

العنوان الأصلي للمقال: Le Soleil est-il coupable ? ونشر في مجلة Science & Vie عدد ديسمبر 1997



بقلم : فيليب هينارجوس

يبدو تألق الشمس متزايداً ببطء. والنتيجة أن الأرض تتلقى المزيد من الطاقة، ووفقاً لرأي أحد خبراء المناخ الأمريكيين، فإن ذلك قد يؤدي إلى احترار شامل للكوكب. غير أنه يبقى أن نتحقق من الأمر.

إن احترار الكوكب ليس اسطورة. فهي ظاهرة نلحظ آثارها منذ سنوات عدة. ويبدو منشؤها محدداً تماماً وماثلا في مجمل النشاطات البشرية.

ومنذ القرن الماضي وبداية العصر الصناعي، ما انفك الجو يتلقى غازات ظاهرة البيت الزجاجي بمعدلات متزايدة باستمرار.

ولكن، هل الإنسان هو المسؤول الوحيد فعلا عن هذا الاحترار؟ على الرغم من وضوح الازدياد الثابت في انبعاثات غازات ظاهرة البيت الزجاجي، كغاز ثاني أكسيد الكربون (CO_2) فإنه لا يمكن حتى الآن اعتباره مسؤولا عن الازدياد الخفيف - وإن كان حقيقيا تماماً أيضاً - في حرارة كوكبنا الإجمالية. وهذا ما يتيح المجال أمام نظريات أخرى.

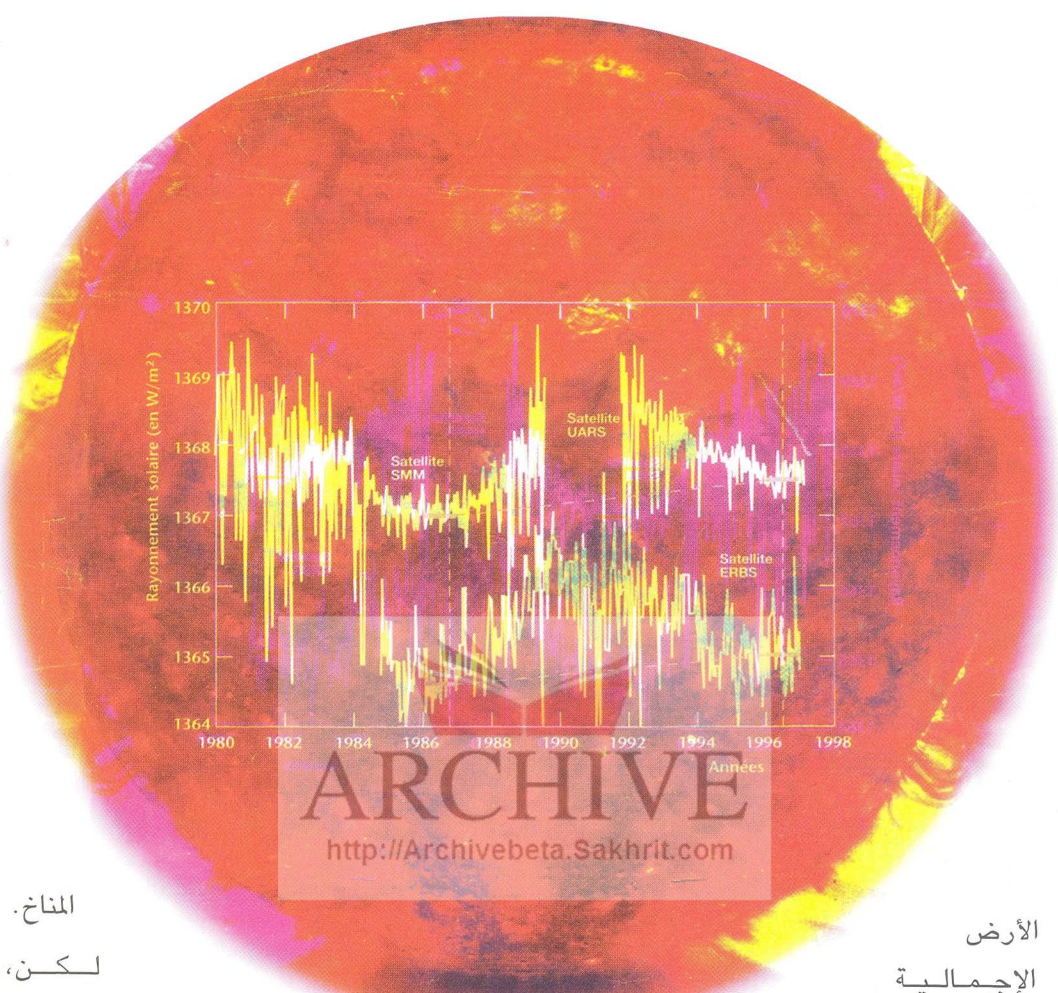
تحتل الشمس موقعاً بارزاً بين العوامل الافتراضية المسؤولة عن تغير المناخ. ففي 26 سبتمبر الماضي، نشر خبير المناخ الأمريكي ريتشارد س. ويلسون Richard C. Wilson، في مجلة SCIENCE، نتائج أعمال تبرر التساؤل حول دور الشمس في هذه الظاهرة.

ويؤكد ويلسون، استناداً إلى معطيات ملتقطة بالأقمار الصناعية منذ عام 1978، أن الدفق الشمسي، أي كمية الضوء الإجمالية المنبعثة من الشمس، قد ازداد بمعدل 0,036 في المئة بين عامي 1986 و1996. ومع افتراض أن هذا الازدياد سيستمر بهذا المعدل، فإن الارتفاع في حرارة

العنوان الأصلي للمقال:
Quand le Soleil brille trop... بقلم: Philippe Henarejos

الأرض الإجمالية سيبلغ من الآن وحتى مئة سنة قادمة 0,4 درجة. أما التقديرات المتشائمة، التي تأخذ بعين الاعتبار انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون، فتتوقع احتراراً يصل إلى درجتين خلال المدة نفسها. وإذا ما كانت استنتاجات «ويلسون» دقيقة، فقد يكون للشمس دور رئيسي في تطور المناخ.

لكن، على أي أساس تستند هذه الاستنتاجات؟



إشعاع الشمس تحت مراقبة الأقمار الصناعية

ازداد تألق الشمس بين الحضيضين الأخيرين (1986 و1996) للدورة الشمسية. هذا ما اكتشفته قياسات ثلاثة أقمار صناعية (المنحنيات في الصورة). وهذا الازدياد ضئيل اليوم، ولكن، في حال استمرار هذا الاتجاه، فإنه سيحدث احترارا في جو الأرض.

تقوم هذه الفرضية على معطيات أربعة أقمار صناعية مجهزة بأربع أدوات متمايزة. فمنذ عام 1978، أعطى القمر الصناعي MIMBUS 7 قياسات للدفق الشمسي، وعمل حتى عام

1992. إلا أن القياسات الأدق جاءت من القمر الصناعي Solar Maximum Mission، الذي أطلق عام 1980 وبقي يعمل فعلياً حتى عام 1991، حين حلت أداة Instrument مشابهة لأداة Solar Maximum Mission على متن (Upper Research Satellite) Uars Atmosphere. وأخيراً، أضاف قمر صناعي آخر هو (Earth Radiation Budget Satellite) Erbs معطيات أخرى.

لقد أمكن من خلال هذه الأقمار الصناعية الأربعة، متابعة الشمس خلال اثنتين من دوراتها التي تبلغ كل منها إحدى عشرة سنة. وفي الواقع، إن علماء الفلك اكتشفوا، بعد عقود طويلة من الرصد، أن نشاط الشمس يتضاءل خلال سبع سنوات، ثم يزداد لمدة أربع سنوات وتتوافق هذه الدورة والتغيرات المتعاقبة لقطبية Polarite حقل الشمس المغناطيسي. وعند بلوغ النشاط الذروة، يكون عدد البُقَع الشمسية مرتفعاً. حينذاك، تكون الانفجارات الشمسية أكثر عدداً أيضاً. وينجم عن ذلك أن تطلق الشمس في الفضاء الكثير من الجسيمات المشحونة (الأيونات Ions التي تشكل «الريح الشمسية»)، التي تصطدم آنذاك بالحقل المغناطيسي للأرض، مما يؤدي بشكل خاص إلى حدوث الشفقين القطبيين*. وبعد سبع سنوات من كل ذروة Maximum، يحدث حضيض. Minimum ** تكون الظروف السائدة خلاله معكوسةً تماماً : قليل من البقع وقليل من الانفجارات Eruptions.

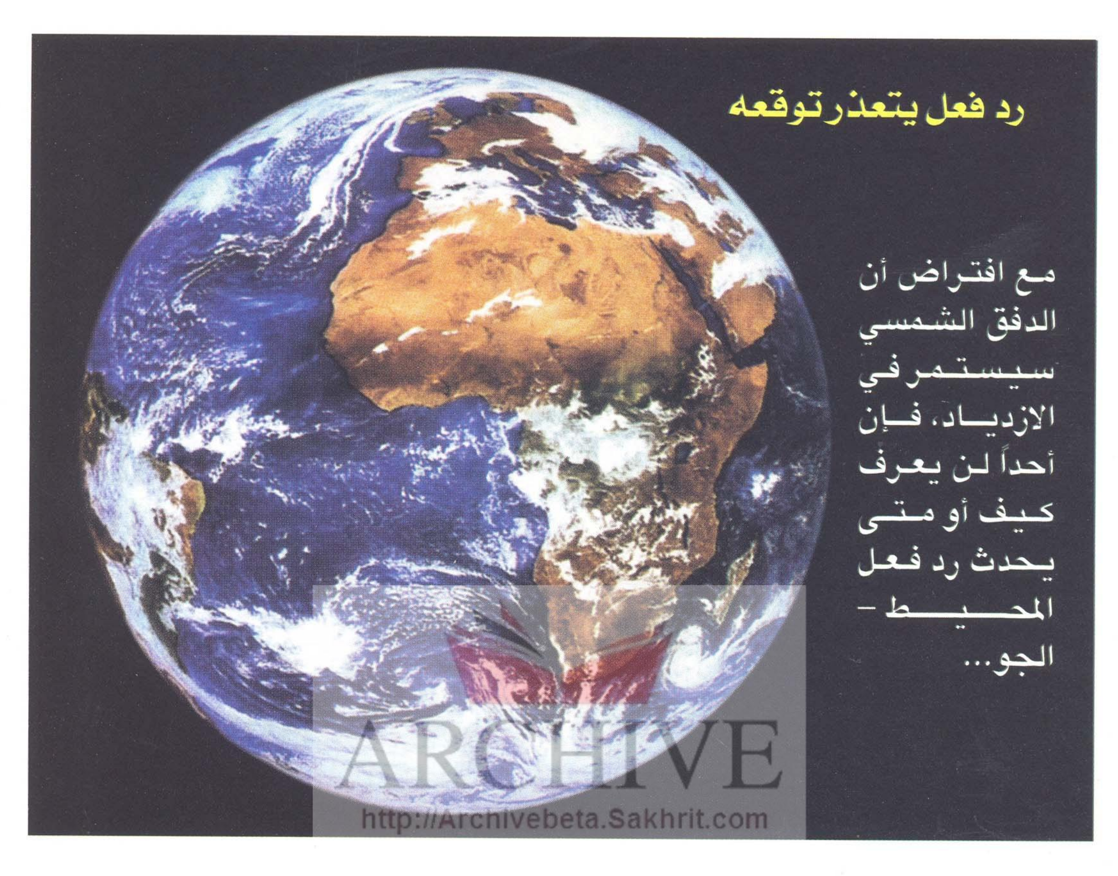
ومع مرور السنوات، يمكن أيضاً قياس «تألق» الشمس، الذي يتوافق و(دفقها الشمسي Flux Solaire). فعندما يكون النشاط في حده الأدنى، يكون الدفق أضعف، وبالعكس، عندما تكون الشمس ناشطة جداً، يكون الدفق أقوى. وعلى الرغم من الترابط بين النشاط والتألق، فإنهما لا يتمتعان بالسعة Amplitude نفسها. إن الإشعاع الكلي أقل تغيراً بكثير من الريح الشمسية، ولا أحد يعرف حدوده القصوى. عدا ذلك، وبغض النظر عن الاختلافات على مدى الإحدى عشرة سنة، فإن قياس الدفق يتشوش يومياً بتأثير ظهور الصياخد Facules***، هذه المناطق الأكثر تألقاً التي تتجه إلى ازدياد الدفق.

إذن، فالدفق متغير باستمرار، بنسب تجعل أي قياس دقيق أمراً مستحيلاً. لذلك، بنى

* الشفق القطبي Aurore Polaire : عرض مدهش للأضواء ممكن الرؤية في الليل قرب قطبي الأرض المغناطيسيين. هذا الظاهرة ناجمة عن تصادم جزيئات الهواء الموجودة في الغلاف الجوي العلوي مع الجسيمات المشحونة الصادرة عن الشمس «المترجم».

** يقصد بالحضيض هنا الفترة ذات النشاط الشمسي الخامد التي لا يرصد خلالها سوى عدد قليل جداً من البقع الشمسية، على عكس الذروة Maximum «المترجم».

*** الصَيْخَد : Facule من الكلمة اللاتينية Faculae (بالجمع) وتعني المشاعل الصغيرة «المترجم».



«ريتشارد س. ويلسون استنتاجاته على عمليات الرصد التي أنجزتها الأقمار الصناعية خلال الحُضُض Minima الشمسية بين عامي 1986 و1996، حين كانت الشمس خالية من البقع ومن الصياخد. ولما تميز الدفق إبان ذلك بالاستقرار نسبياً، فإنه كان أسهل في قابليته للقياس. وهكذا، يبدو أن هذا الدفق بين حضيض عام 1986 وحضيض عام 1996 قد ازداد بنحو 0,5 واط/م2.

إننا يمكن أن نحكم على مثل هذا الاختلاف بأنه تفاضلي وتلك Infinitesimale. وتلك بالمناسبة، هي أولى نقاط الجدل بصدد أعمال «ويلسون». وفضلاً عن ذلك، ووفقاً لمعطيات العديد من الاختصاصيين، يمكن أن يكون استخدام الأدوات المختلفة مصدراً للأخطاء. ففروق المعايرة Calibrage موجودة، في الواقع، من مكشاف إلى آخر. ويمكن أن يتبين أن من الصعب جداً معرفتها بشكل تام.

نقاط جدل

إذا افترضنا أن القياسات صحيحة، فهناك نقاط أخرى مثيرة للجدل، مثلما أشار «Pierre

لانتوس»، مدير البحوث في مرصد «باريس – مودون»: «إن الاستناد إلى اثنين فقط من حُضُض الدورات الشمسية غير كاف لاستخلاص النتائج. فازدياد الدفق خلال الحضيض يمكن أن يستمر لأمد طويل، ولكن لا شيء يتيح بعد تأكيد ذلك. عدا ذلك، لا يوجد، على ما يبدو، أي سبب لأن يؤدي الحضيض الشمسي دوراً راجحاً في تطور المناخ».

إن الدفق الشمسي يمكن أن يتغير قليلاً بين حضيض وآخر، دون أن يزداد مع ذلك بانتظام. وحول هذه النقطة، لن تتوضح الأمور إلا من خلال قياسات جديدة يتم إجراؤها خلال حضض قادمة. ثم، إن تنامي الدفق خلال الحضيض لا يفسر تناميه إبان مجمل الدورة. وإذا كان الحضيض بمفرده يزداد، فلماذا يكون له وحده تأثير على المناخ؟

وهناك سؤال آخر يطرح نفسه: هل يمكن أن تكون هذه الاختلافات الضعيفة (0,036 في المئة) قادرة على إحداث تغيير مناخي في كوكب الأرض؟. من جانبه، يقول جرانت ريسبك، مدير البحوث في المعهد الوطني للبحوث العلمية في باريس: «من المؤكد أن الاختلاف المعلن اختلاف ضئيل، إلا أنه إذا استمر مدة مئة عام فإنه سيحدث بالفعل احتراراً بمقدار 0,5 درجة».

يستخدم علماء الفلك معطيات حول النشاط الشمسي منذ أن أصبح من الممكن رصده بالأدوات البصرية، أي منذ بداية القرن السابع عشر. وقد تبين لهم أنه لم يكن هنالك وجود للبقع الشمسية عملياً بين عامي 1650 و1700.

هذا الانخفاض العام في نشاط كوكبنا تؤكده كميات البريليوم 10 * (Beryllium10) الموجودة في الجليديات القطبية، ويشرح جرانت ريسبك ذلك بقوله: «عندما يكون النشاط قوياً، تعيق جسيمات الريح الشمسية الأشعة الكونية Rayons Cosmiques من الوصول إلى الأرض ومن إنتاج البريليوم 10. والحالة هذه، فبين عامي 1650 و1700 (الفترة المسماة «حضيض موندر» ** Minimum De Maunder)، كانت كميات البريليوم 10 أعلى بـ 30 في المئة من الحد الوسطي. وخلال الفترة نفسها، في أوروبا، إبان حكم الملك – الشمس (لويس الرابع عشر) تحديداً، كان المناخ أكثر برودة على نحو ملموس».

من المؤكد أن هذا العصر الجليدي الصغير Mini-Age Glaciaire يتوافق ونشاط شمسي

---

* البريليوم: فلز ترابي قلوي ذو لون رمادي صلب قوي وخفيف جداً، شديد الامتصاص للحرارة «المترجم».
** نسبة إلى الفلكي البريطاني (W.E موندر) الذي تخصص في دراسة الظواهر الشمسية وعمل الكثير لتوجيه الانتباه إلى تلك الفترة (أي 1650 – 1700) منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين «المترجم».

ضعيف، أي ودفق شمسي ضئيل. ولكن، هل هذا النشاط الضعيف كاف لتفسيره؟ يعرف الفلكيون أن اختلاف الأشعة الشمسية بين ذروة الدورة وحضيضها يسخّن الجو الأعلى من الأرض. ويبدو، مع ذلك، وفي آن واحد، أن هذا لا يحدث أي تأثير على المناخ.

والواقع، أن ردحا طويلا من الزمن يمكن أن ينقضي، بين وقت وصول الإشعاع الأقوى إلى الأرض والوقت الذي يتجلى فيه هذا الإشعاع احتراراً شمولياً. ويمكن أن يصل «زمن استجابة» Temps De Reponse الجو إلى شهر، وفقاً لعبارة «سرجي بلانتون»، مهندس الأرصاد في ميتيو - فرانس (طولون)، الذي يضيف: «إلا أن للمحيط العميق أزمان استجابة أطول بكثير، تصل إلى ألف سنة أحياناً. بيد أنه يخشى أن يكون للمنظومة المناخية في مجملها رد فعل بطيء».

إن من المؤكد، أن كمية الإشعاع الشمسي التي تتلقاها الأرض يمكن أن تحدث تغيرات في المناخ. وبسبب متغيرية المدار الأرضي على المدى الطويل جداً، فإن كوكبنا كان قد «ابتعد» بهذا القدر أو ذاك عن الشمس، مما قلل من الدفق الذي تتلقاه. هكذا تُفَسَّر فترات التجلد GLACIATION والاحترار الكبيرين الملاحظة عبر العصور. وإذن، فإن في الإمكان أن يؤدي الازدياد الطفيف في الإشعاع الشمسي - استناداً إلى هذه المعطيات - إلى احترار خفيف.

ومع افتراض صحة المعطيات التي جمعها «ريتشارد س. ويلسون»، فلا يزال من الضروري إثبات أنها تشير فعلاً إلى وجود اختلاف على المدى الطويل.

ازدياد غاز ثاني أكسيد الكربون بنسبة 25 في المئة

ربما كان المحيط قادراً على امتصاص غازات ظاهرة البيت الزجاجي الناجمة عن النشاط البشري... وحينها، يمكن النظر إلى الشمس على أنها المسؤولة عن الاحترار. إلا أن اختصاصيي المناخ جمعوا حججاً مقنعة في صالح المنشأ الصناعي لهذا الاحترار. فوفقا لعبارة سرجي بلانتون فإنه «مما لا سبيل إلى إنكاره أن كمية غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو قد ازدادت بنسبة 25 في المئة منذ بداية العصر الصناعي. ومما لا شك فيه أيضاً أنه تم، منذ العام 1900، قياس احترار معدله 0,6 في المئة. وأخيراً، فإن المحاكيات الأخيرة Simulations، التي تأخذ بالحسبان سلوك الجو والمحيط والفضلات بشرية المنشأ، تنسخ هذا الاحترار الملحوظ، خصوصاً مع فروق بين نصفي كرة الأرض».

عندما تمضي السحب....

بقلم : ألكسندر دوروزنسكي

هنالك فرضية أخرى، دانماركية، لتفسير تغير المناخ: ربما كانت دورات النشاط الشمسي تحدث تغييراً في غطاء الأرض السحبي، ولما كان هذا الغطاء يتضاءل، فإن كوكبنا يزداد احتراراً. لكن هذه الفرضية موضع جدل شديد.

ربما تلزم بضعة عقود أخرى من الزمن لدمج دور الشمس في المحاكيات....

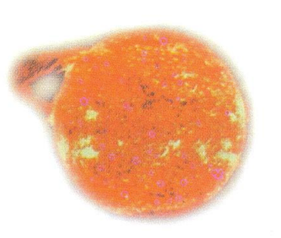
في الوقت الذي كان يجتمع ممثلو 150 بلداً في مدينة «كيوتو»، باليابان، في ديسمبر 1997، في مؤتمر دولي حول احترار الأرض، كان بعض العلماء يتساءلون فيما إذا كان الاحترار الملاحظ في هذا القرن ناشئاً عن النشاطات البشرية بالفعل. ألا يمكن بالأحرى أن يكون ناتجاً عن دورات النشاط الشمسي، التي بدأنا نفهم، منذ وقت قريب فقط، تأثيراتها على المناخ الأرضي؟

في الواقع، أظهر باحثون دانماركيون أن اختلافات الحرارة على الأرض تسير وفق الإيقاعات الدورية للبقع الشمسية Taches، هذه «المناطق الباردة» التي تبلغ حرارتها 4500 درجة تقريباً. عدا ذلك، وصفوا آلية هذا التأثير، الذي يؤدي إلى تشكل السحب، التي تبرد كوكبنا بامتصاصها وعكسها جزءاً من طاقة نجمنا.

العنوان الأصلي للمقال:

Quand Passent les nuages بقلم: Alexandre Dorozynski

تم رُصد البقع الشمسية من الأرض منذ القرن السابع عشر، بوساطة منظار «غاليليو» (1609). وقد تبين أن عددها يزداد، ويبلغ ذروةً، ثم يتناقص وفقاً لدورة طولها إحدى عشرة سنة. وفي العام 1849، أحصى الفلكي السويسري رودلف وولف البقع المعزولة وحشود البقع، ثم استنتج عددها على مجمل الشمس، بعد إجراء حسابات مختلفة ويعطي





هل هي مسؤولية محدودة؟: قد لا تكون ظاهرة البيت الزجاجي الناجمة عن النشاطات البشرية سوى واحد من بين أسباب أخرى لاحترار مناخ الأرض. وربما كانت الشمس هي المسؤولة الرئيسية عنه، عبر السحب التي تخفيه أحياناً....

هذا العدد، المسمى «عدد وولف»، مؤشراً جيداً حول النشاط الشمسي؛ ويتيح إثبات أنه يختلف من دورة إلى أخرى. وهكذا، سجلت عام 1883 ذروة في «عدد وولف» حيث وصل عدد البقع إلى 75 بقعة تقريباً. وبعد هذا التاريخ، لوحظ ازدياد منتظم بهذا القدر أو ذاك في عدد بقع الذرى حتى العام 1958، حين بلغ عدد البقع حداً أعلى قُدِّر بـ 200 بقعة وتم الحصول على عدد وولف مقداره 110 بقع عام 1968 و160 عام 1980 وعام 1989. وفي نهاية القرن الماضي، افترض البريطاني «والترموندر» وجود علاقة متبادلة بين الدورات الشمسية والمناخ؛ وقد أعطى هذا العالم اسمه لـ «حضيض موندر» Minimum De Maunder الـ «عصر الجليدي الصغير» أو «التجلد الصغير» Petite Glaciation الذي قام في الفترة بين عامي 1645 و1715، التي وصل خلالها عدد البقع الشمسية إلى الحد الأدنى. وفي العام 1709، كان البرد شديداً: حطم الأجراسَ وجمَّد بحر البلطيق. وكان يمكن التوجه مشياً على الأقدام من السويد إلى الدانمارك. وبالعكس، خلال الشتاء في 1988 – 1989، حينما كان النشاط الشمسي في ذروته، كانت درجات الحرارة لطيفة جداً.

طول الدورة (بالسنوات) — شذوذات حرارية (بالدرجات)

تأثير الريح الشمسية

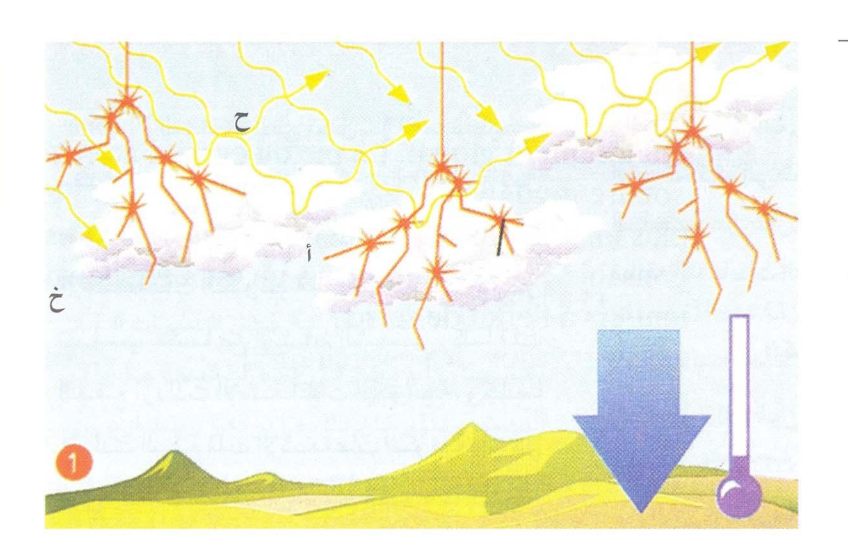
إن منحنى تغيرات مدة الدورات الشمسية (بالأحمر) ومنحنى اختلافات الحرارة في نصف الأرض الشمالي (بالأصفر) متطابقان تقريباً. ويبدو أن ذلك يدل على ازدياد درجات الحرارة عندما تكون الدورات قصيرة.
ويمكن تفسير هذه الظاهرة من خلال أن ذرى نشاط الدورات الشمسي، وهي حينذاك أكثر تقارباً، تُصدر ريحاً شمسية أشد كثافة يمكن أن تحد من تشكل السحب في جو الأرض.

المغناطيسية الأرضية والمغناطيسية الشمسية

مع ذلك لم يتمكن «موندر» من الارتياب بالآلية التي تسبب هذا الصَرْد: تأثير المغناطيسية الشمسية Magnetisme على الأشعة الكونية التي لم تُعرف إلا مع بداية القرن العشرين. ولما كانت ناجمة عن انفجار نجوم في مجرتنا، فإن هذه الإشعاعات الكونية هي نوى ذرات مسلوخة الإلكترونات، أي أنها مشحونة إيجابياً. إن النوى الهيدروجينية هنا (أو البروتونات Protons) هي الأكثر عدداً، لكن العناصر الكيميائية الأخرى موجودة أيضاً.

ويؤدي الحقل المغناطيسي الأرضي إلى تغيير اتجاه معظم الأشعة الكونية المسماة أولية Primaires، غير أن تلك التي تصل إلى الجو تُحْدِث فيه تفاعلاتٍ متعاقبة تتمخض عن تولّد وفرة من الإشعاعات الثانوية.

ولكن، في العام 1937، أثبت الفيزيائي الأمريكي سكوت فوربوش أن دفق الإشعاعات الكونية الواصلة إلى الأرض يتضاءل أثناء الانفجار الشمسي. وتم التأكد من «مفعول فوربوش» Effet De Forbush إياه وتفسيره عام 1960 عندما سجل قمرُ الرصد الصناعي Pioneer 5 توليد الشمس لـ «البلازما»*





الفصول الشمسية

خلال الحضيض الشمسي، تصل الأشعة الكونية (بالأحمر) بكثرة إلى الأرض(1)، وتقوّي إنتاجَ السحب التي تعكس حرارة الشمس (بالأصفر) في الفضاء: يتبرد المناخ. وخلال الذروة الشمسية، لا تعود الأشعة الكونية تصل إلى الأرض، نظراً لارتدادها بتأثير الريح الشمسية(2)، ويتشكل القليل من السحب، وتسخّن الأشعةُ الشمسية المناخ.

* البلازما: هي غاز مؤين بدرجة كبيرة – أي أنه غاز سُلخ فيه عدد كبير من الالكترونات من نواها ومن ثم فإنه غاز موصل كهربائيا «المترجم».

Plasma الساخنة التي تنقل حقلاً مغناطيسيا يغير اتجاه الإشعاعات الكونية الأولية قبل بلوغها جو الأرض. وتبين بعد ذلك أن شدة الإشعاعات الكونية الواصلة إلى الأرض تتناسب عكساً مع النشاط الشمسي: كلما قلت البقع ازدادت الإشعاعات الكونية، وكلما ازدادت البقع قلت الإشعاعات الكونية. إن كل شيء يحدث كما لو أن الريح الشمسية تكسح الإشعاعات الكونية الآتية من الفضاء.

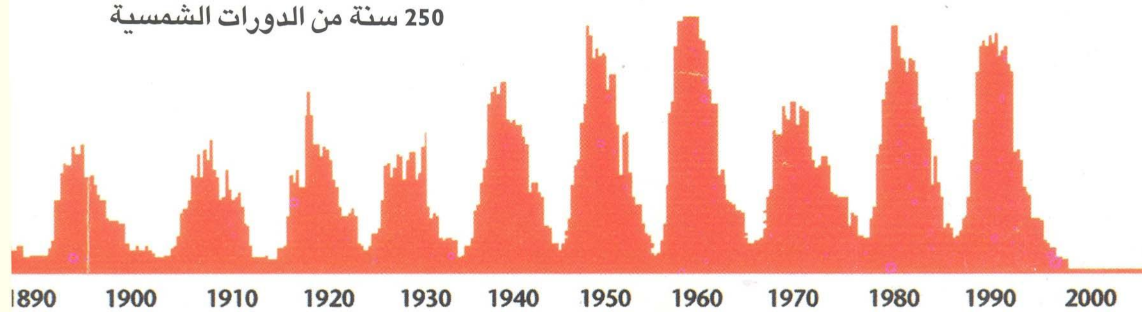
يعتقد ثلاثة باحثين من معهد علم الأرصاد الدانماركي أنهم توصلوا إلى تفسير كيفية تأثير النشاط الشمسي على مناخ كوكبنا. ويدرس كيوند لسن، وإيجيل فريس - كريستنسن، وهينريك سفنسمارك، منذ عدة سنوات، العلاقة بين البقع الشمسية والاختلافات المناخية. وبعد أن قارن «لسن» رسماً بيانياً للحرارة الوسطية للنصف الشمالي من عام 1860 حتى عام 1995 برسم بياني للدورات الشمسية خلال الفترة نفسها، أدرك أن شكليهما متماثل تقريباً. ودهش بشكل خاص من الابتراد، خلال الخمسينيات والستينيات، الذي لم يتوافق أبداً والتوقعات التي تستند إلى تفاقم ظاهرة البيت الزجاجي الناجمة عن غاز ثاني أكسيد الكربون الذي تطلقه النشاطات البشرية في الجو.

الكشف بالنيوترونات

ومع ذلك، فإن العلاقة المتبادلة هنا ليست علاقة سبب ونتيجة بالضرورة. وهكذا، يصبح من اللازم معرفة ما هي الآلية التي يمكن أن يغير النشاط الشمسي من خلالها مناخ الأرض. كان البحث عن هذه الآلية قد بدأ في القرن التاسع عشر على يد الفيزيائي الاسكتلندي ريتشارد س. ويلسون، الذي أثبت تجريبياً أن الهواء الرطب، الخالي من الغبار، والمبرد بالانخفاض السريع، لا يشكل تكاثفات Condensations إلا إذا قذف بالأشعة X أو بجسيمات دون ذرية Subatomiques (نال «ويلسون» عام 1927 جائزة نوبل للفيزياء لاكتشافه كاشف الجسيمات الذي يحمل اسمه).

لقد بحث الدانماركيون عن الإجابة في جانب الإشعاع الكوني. ودرسوا معطيات

250 سنة من الدورات الشمسية



مرصد جامعة «شيكاغو» (كولورادو) الذي يقع على ارتفاع 3400 متر. إن اختلافات شدة الأشعة الكونية تقاس هنا بالعدّ التناقصي Decompte للنيوترونات المحررة عند وصول الإشعاعات إلى الجو. وبمقارنة هذه المعطيات مع الدورات الشمسية، لاحظ الباحثون الدانماركيون أن ذرى Maxima البقع الشمسية تتوافق وحَضُض Minima الأشعة الكونية.

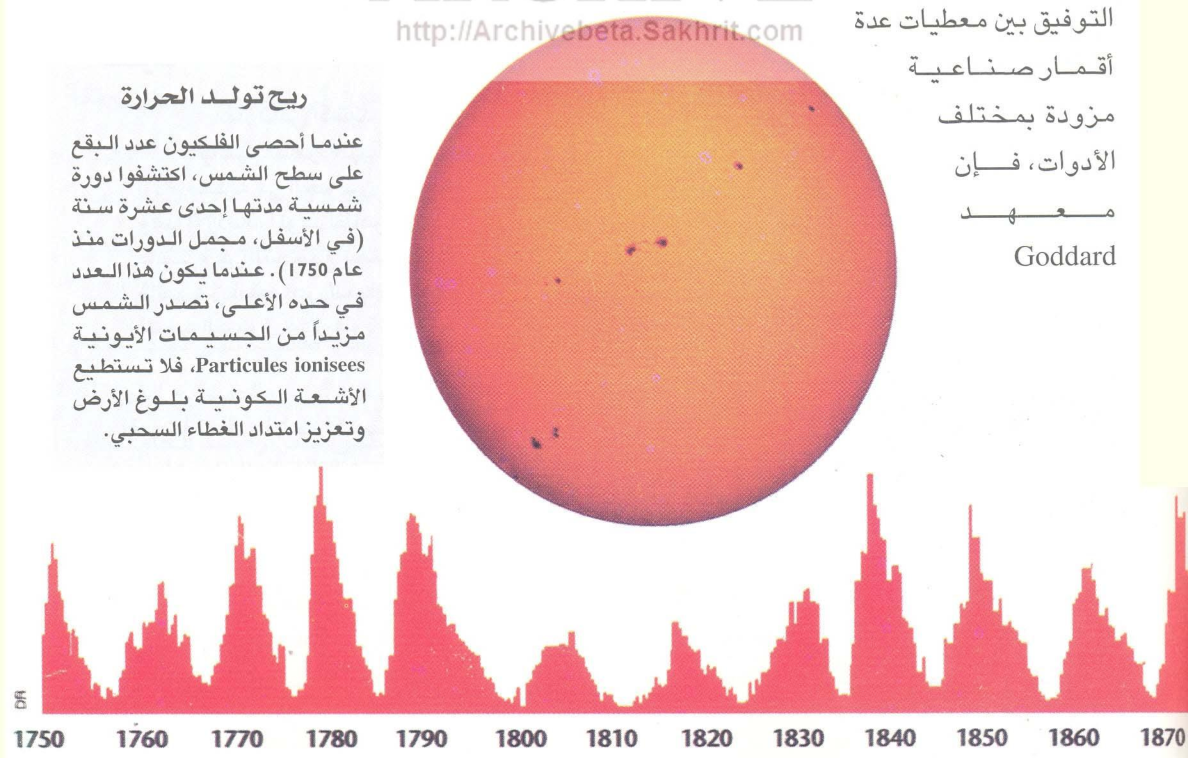
الاستعانة بالأقمار الصناعية

بعد ذلك، قابل هؤلاء الباحثون قياسات الأشعة الكونية بقياسات الغطاء السحبي للأرض، التي كان قد قدرها معهد Goddard في وكالة الفضاء الأمريكية NASA على أساس معطيات تم الحصول عليها عام 1983 من خلال أقمار الرصد الجوي. وعلى الرغم من صعوبة التوفيق بين معطيات عدة أقمار صناعية مزودة بمختلف الأدوات، فإن معهد Goddard تمكن من وضع رسم بياني، جدير بالاعتماد، للسطوح السحبية من يناير 1984 وحتى يونيو 1990. ولاحظ هينريك سفنسمارك أن هذا الرسم البياني يتطابق مع الرسم البياني المعبّر عن شدة الأشعة الكونية خلال السنوات الست نفسها. ولم يكن في هذه النتيجة ما يثير الدهشة. فلقد كان ذلك ما توقعه ريتشارد س. ويلسون منذ قرن مضى.

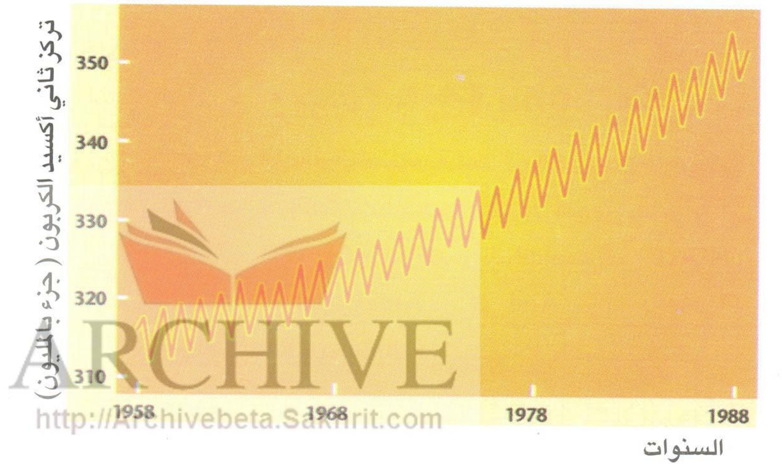
إن تأثير السحب على حرارة الأرض تأثير مركب، غير أن عمليات الرصد التي تنجزها الأقمار الصناعية لصالح البرنامج الأمريكي Earth radiation budget، الذي أطلق عام 1984، وكذلك أقمار الـ National (NOAA) Oceanic And Atmosphereic Adminisration، تُظهر أن السحب تبرِّد

ريح تولد الحرارة

عندما أحصى الفلكيون عدد البقع على سطح الشمس، اكتشفوا دورة شمسية مدتها إحدى عشرة سنة (في الأسفل، مجمل الدورات منذ عام 1750). عندما يكون هذا العدد في حده الأعلى، تصدر الشمس مزيداً من الجسيمات الأيونية Particules ionisees، فلا تستطيع الأشعة الكونية بلوغ الأرض وتعزيز امتداد الغطاء السحبي.



الأرضَ بامتصاص الأشعة الشمسية وعكس جزء منها. وقد جاء خبير الأرصاد الجوية م. أي. بودوفكين M. I. Poudovkine (سان بطرسبوغ)، عام 1995، بتأكيد يفيد أن الأشعة الشمسية المسجلة في إحدى محطات الرصد الجوي في شمال روسيا تزداد إبان النشاط الشمسي وخلال تضاؤل عدد الإشعاعات الكونية.



غاز ثاني أكسيد الكربون،
باعث ظاهرة البيت الزجاجي

ازداد معدله في الجو بين عامي 1958 و1988. وهذا الازدياد، المولِّد لظاهرة البيت الزجاجي، ناشىء عن التصنيع (خط المنحنى المتعرج ناجم عن امتصاص النباتات الفصلي لثاني أكسيد الكربون خلال فترة نموها).

لقد بدا تعاقب الأحداث مُثْبَتاً على نحو متين: يؤدي ازدياد النشاط الشمسي إلى نقصان الإشعاع الكوني، الذي يحدث تضاؤلاً في الغطاء السديمي Nebuleuse – مما يؤدي إلى ارتفاع ميزان حرارة الأرض. ربما كانت الارتفاعات والانخفاضات الدورية لا تؤدي إلى تغير الاتجاه المناخي للأرض على المدى الطويل، غير أن القرن العشرين يتميز بازدياد في النشاط الشمسي، الذي يمكن أن يتمخض عن الاحترار الشامل. وتُعَدُّ ذروةُ دورة النشاط الشمسي في بداية التسعينيات واحدة من الذرى الأهم منذ قرنين. فهل هي المسؤولة عن الاحترار، الذي يعزونه عن طيب خاطر إلى ظاهرة البيت الزجاجي؟.

كانت أعمال الباحثين الدانماركيين قد نشرت في 23 مايو 1997 في Journal Of Atmospheric And Solar Terresterial Physics. وظهرت للصحفي العلمي البريطاني نيجيل كالدر Nigel Calder فكرة مقابلة فرضية الباحثين الدانماركيين بالمعطيات المتاحة حول الأشعة الكونية، المقدرة خلال الفترة 1885 – 1994 وفقاً لمعدلات إشعاع البريليوم في العمائم الجليدية Calottes Glaciaires. ويشير الرسم البياني الذي نشره في مؤلفه* إلى أن تغيرات درجات الحرارة، في معظم السنوات، تسير وفقاً لتغيرات شدة الأشعة الكونية، مع فارق 0,2 تقريباً. وتتوافق الاستثناءات

* the Manic Sun, Weather Theories Counfounded. Pilkington Press, Londres

الرئيسية والأحداث التي غيرت على الأرجح المناخ: الانفجار البركاني في شبه جزيرة «كمتشاتكا» عام 1956، والظاهرة المناخية «النينو» EL NINO في الثمانينيات وفي الوقت الحاضر. لا يعني ذلك نفي ظاهرة البيت الزجاجي، بل يعني تأكيد أنها ليست إلا واحداً من عوامل عديدة تؤثر في المناخ، وأن تأثيرها قد يكون أقل بكثير ما نعتقد. إن الانحرافات Deviations التي تلاحظ منذ وقت سابق على أساس نماذج وضعت منذ سنوات قليلة فقط انحرافات كثيرة بدرجة يصعب معها اعتبار هذه النماذج أهلاً للاعتماد في التقدير لمستقبل أبعد.

اختصاصات علمية أخرى تدخل ميدان الأرصاد الجوية

إن الجو المخيم على الأرض هو محصلة عوامل عديدة، و«نمذجته Modelisation معقدة جدا»، على حد تعبير البروفسور روبرت سادورني Robert Sadourny، من الأرصاد الجوية الدينمية في «دار المعلمين العليا» (باريس)، وهو يضيف: «يجب أن نحسن التصرف. هنالك تأثيرات على المدى القصير، كتأثير الحُلالات الهوائية Aerosols، التي تخفي الاحترار، لكن تأثيرها يزول خلال أسبوع إذا ما تلاشت هذه الحلالات؛ وهنالك أيضا تذبذبات الإشعاع الشمسي، التي يمكن أن تؤدي دوراً مشابهاً لدور ظاهرة البيت الزجاجي، وتوجد تذبذبات على المدى الطويل، كتذبذبات المحيط العميق، التي تبلغ دورتها نحو قرن». أضف إلى ذلك الانفجارات البركانية، وما تولده من سحب الغبار، وشدة الأشعة الشمسية فوق البنفسجية، التي تؤثر على الرياح وإنتاج الأوزون في الطبقات العليا من الجو، وظاهرة «النينو»، وظواهر أخرى كثيرة دون شك، تتعاضد أحياناً وتتنابذ أحياناً أخرى، أو تُحْدث مفاعيل ارتجاعية Retroactions غير مفهومة جيداً، يمكن أن تخفّ حركتها أو أن تبطل التأثيرات المتوقعة. ويستطرد البروفسور سادورني: إن السؤال هو ما إذا كان ازدياد معدل ثاني أكسيد الكربون، الذي يسبب ظاهرة البيت الزجاجي بآلية بسيطة، يؤدي الدور الرئيسي في الاحترار بين ظواهر أخرى».

واليوم، بات الفيزيائيون، والكيميائيون، وعلماء الفلك، والفيزيائيون الفلكيون، وعلماء الرياضيات يتدخلون في الميدان الذي كان وقفاً في السابق على خبراء الأرصاد الجوية واختصاصيي جو الأرض. ولا يمكن لهذا الجهد المبذول على صعيد اختصاصات علمية عديدة إلا أن يكون مثمراً عندما يتعلق الأمر بتحديد دور العوامل العديدة التي تحدد مناخ الغد. ومما لا شك فيه أن من الصحيح القول إن قرننا هذا هو الأكثر احتراراً منذ العام 1400. ولكن، لماذا كان المناخ على هذا القدر من الاحترار، منذ ستمئة سنة، حينما كان المصدر الرئيسي لغاز ثاني أكسيد الكربون البشري المنشأ مقتصراً على نار المدافىء في الأكواخ.

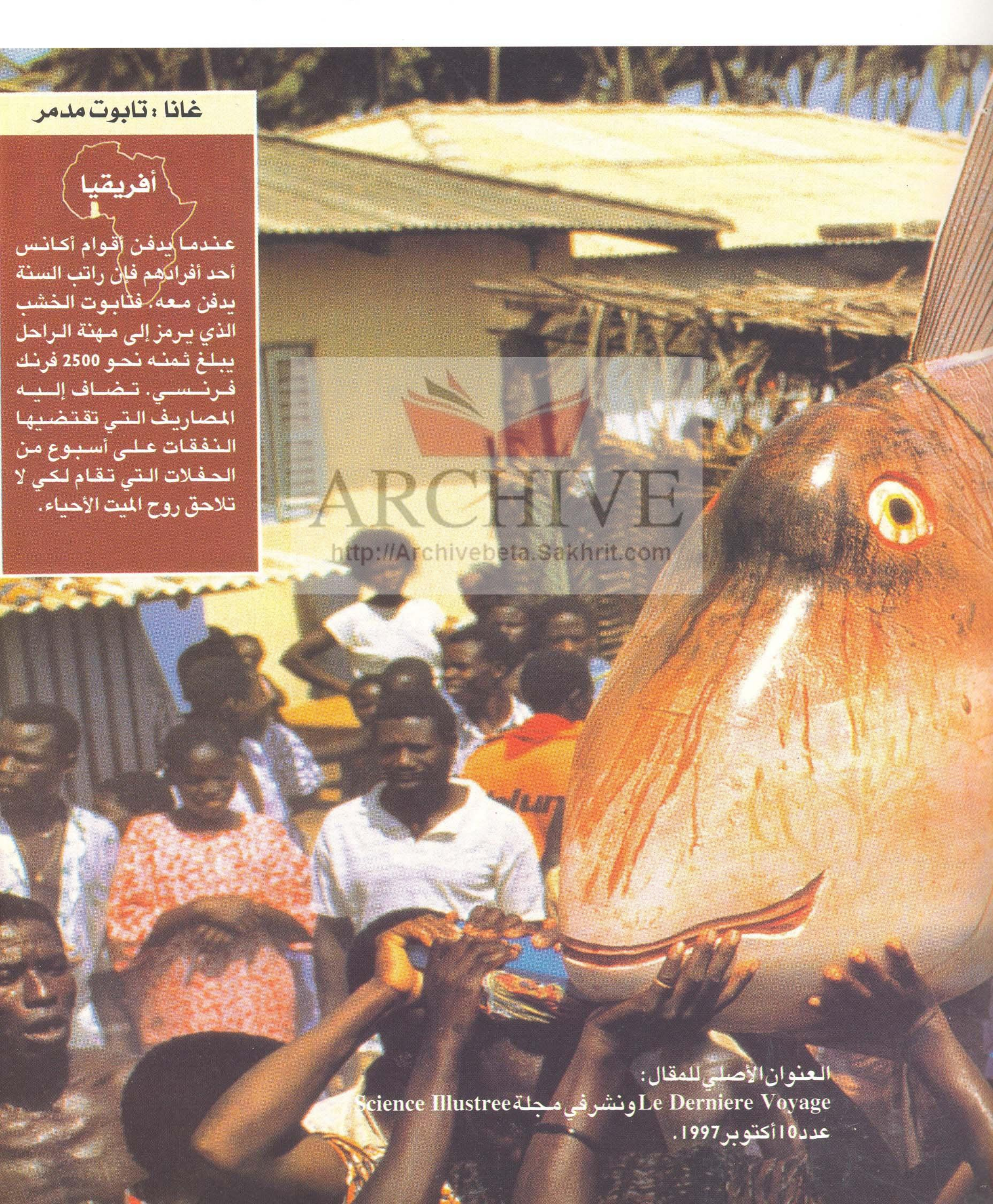
الوداع الأخير



بقلم: روبير إستيل

ترجمة: الذهبي المشروحي

قليل هم الموتى الذين يتركون وراءهم ذكرى دائمة. لكن لدى جميع الحضارات البشرية طقوس للاحتفال بالانتقال من الحياة إلى الموت. بعضها ينظم احتفالات طويلة وبهيجة والبعض الآخر يغرق المآتم بالدموع.



غانا: تابوت مدمر

عندما يدفن أقوام أكانس أحد أفرادهم فإن راتب السنة يدفن معه. فتابوت الخشب الذي يرمز إلى مهنة الراحل يبلغ ثمنه نحو 2500 فرنك فرنسي. تضاف إليه المصاريف التي تقتضيها النفقات على أسبوع من الحفلات التي تقام لكي لا تلاحق روح الميت الأحياء.

العنوان الأصلي للمقال:
Le Derniere Voyage ونشر في مجلة Science Illustree
عدد 10 أكتوبر 1997.

في إيرايان جايا الواقعة غرب غينيا الجديدة يتم الدفن لدى قبائل الداني في الساعة التي تبدد فيها أشعة الشمس الغمام الذي يلف مرتفعات دوغوم. ويبدأ المدعوون المحملون بالهدايا في الوصول: بعضهم يجر وراءه خنزيرا حيا، والبعض الآخر أشرطة معقودة مزينة بالأصداف أو خيوطا مضفورة تصلح لصنع السلال.

كل واحدة من هذه الهدايا تكتسي أهمية بالغة: فتربية الخنازير هي إحدى الأسس التي يقوم عليها الاقتصاد والأصداف تصلح كعملة للتبادل. وأخيرا فإن الخيوط لا تقدر بثمن عند نقل الأطفال والمنتوج الزراعي وجر الخنازير.

هذه الهدايا لها تقدير كبير، لأنها من جهة تعبير عن احترام المرحوم، ووسيلة لضمان راحة روحه. كما يمكنها أن تمثل عربون تصالح مع عدو.

فالخنازير تطبخ في الفرن وتقدم للضيوف. وفائض الشحم يستخدم كدهن للمشاركين ولجسد المرحوم، ثم يجلب خنزير حي يقرب من الجثمان ليأخذ روحه بخطمه لكي لا تعود أبدا.

التضحية بإصبع

هذه الاحتفالات لا تحول فقط دون رجوع الميت بل إنها تقام لتكريمه أيضا: وهكذا يغادر الأرض وسط طقوس من اللحم الطازج والبطاطا الحلوة. وفي الوقت الذي يتقاطر فيه المدعوون يتأهب حطاب الحرق ويضع الجثة فوق الحطب. وفيما بعد يوم الغد يؤخذ الرماد بورقة موز ويذرى قرب المطبخ الجماعي.

وفي اليوم الثاني لمراسم الدفن تقوم فتاة أو أكثر من فتيات العائلة بقطع إصبع لتقديمه هدية للأرواح وللميت. وفي اليوم الثالث يذرى الرماد وراء البيت الخاص بالرجال. ويرمز إلى الميت بخيط مفتول مزين بأذناب الخنازير يعلق في إحدى واجهات بيت الرجال.

وتنتهي فترة الحداد فيما بين أربعة وستة أسابيع على أبعد تقدير. وتتخلص النساء من بقايا الوحل الذي غطين به أجسامهن. ويهيىء الرجال وجبة جديدة من لحم الخنزير المطبوخ في الفرن. ويدهنون اللحم والبطاطا الحلوة وأجساد رجال عائلة الراحل بدم الخنزير المتخثر الذي ذبح للمناسبة.

قد يحدث من حين لآخر أن يحنط جسد فرد من قبائل الداني ويوضع في مخزن بيت الرجال. وتلك حالة الرؤساء الذين تحفظ أجسادهم لتأمين التواصل مع عالم الأرواح.

الميت في المخزن

وفي اللحظة التي يدفن فيها الميت من قبائل توارادجاس بجزيرة سولاويزي بأندونيسيا تنشد الأغنية التالية: «لقد غادر قريته وبيته. ترك السحب خلفه. وغاب في الغمام الذي يفصل بيننا وبينه». الرؤساء لا يدفنون على الفور. مثل قبائل الداني الذين يجدون صعوبة في الانفصال عن رجالاتهم، فالتورادجاس لا يقررن بسهولة دفن



بالي: الثور المنحوت

في بالي يوضع الجثمان في مدفن مؤقت في الوقت الذي ينحت فيه ثور من الخشب يبلغ ارتفاعه نحو المتر. ثم ينقل الجثمان إلى صومعة مصنوعة من البامبو ثم يساق فوقها إلى حطاب المحرقة حيث يوضع داخل الثور قبل أن يقدم للنيران لتلتهمه.

الرؤساء الشيوخ الذين يعتبرون صلة الوصل مع عالم الأجداد.

فالرجل المهم لا يختفي بسرعة من عالم الأحياء: إنه سيستريح في المخزن، مدثرا في لفائف القماش ويوضع قرب رأسه كأس وصحن. ويوجه رأسه نحو الغرب كما لو أنه مريض، ومراسم الدفن لا تتم إلا بعد مرور عدة أشهر.

يصل المدعوون، إذن، بغزارة. ويحملون معهم وفرة من الهدايا الاستهلاكية محصاة بدقة - خنازير، دجاج، أرز، خمر النخيل - وذلك لأن دفن الميت يكون مناسبة سانحة لتورادجاس لرد الديون. والأمر لا يتعلق بدفع فدية لعدو أو لضحية إهانة بل إنها بالأحرى تصفية حساب مع صديق أو علاقة عمل بعد موته. وما أن تتم تسوية هذه المراسم حتى يشرع المشاركون في الرقص والغناء قبل التوجه إلى دار الفقيد ليتم سحب الجثمان من المخزن ويرمى به في الفضاء عدة مرات قبل أن يسجى أرضا وقدماه ورجلاه تستقبلان الجنوب، وتعلن وفاة الزعيم رسميا ويعاد إلى مثواه . وبعد عدة أشهر يجري الدفن إذ يوضع الفقيد في تابوت على شكل فلك ويحمل إلى القبر العائلي في الجبل. ويلبس تمثال حجري يجسد الفقيد ثياب التورادجا ويوضع أمام القبر ومن ثمة يستطيع حراسة القرية.

طوفان الدموع

إن فكرة صنع تماثيل بحجم الفقيد توجد لدى قبائل الكلاش المنحدرة من جبال الهمالايا الباكستانية. وتكرم هذه القبائل آلهتها ومن أهمها الإلهة جيستاه حامية العائلة والبيت والأطفال.

وتبدأ مراسم الاحتفال بشعور المدعوين بالأسى المعبر عنه بالدموع أمام عائلة الفقيد. خلال هذه المرحلة التي يسمونها طوفان الدموع ينشد الأبوان أشعارا وكلمات سحرية وبهياج كبير لطرد روح الفقيد.

وبعد الليلة الأولى من الحداد يساق الفقيد بصحبة حامليه وأرملته أو أرملها إن كانت أنثى إلى معبد الآلهة، ويبدي الأبوان أسى يعبران عنه بالدموع والرقص والغناء بينما يجلس كبار القرية يعددون في همس بعض مناقب الراحل.

وفي الليلة الثانية تتحرر روح الميت من جسده. ويوضع التابوت تحت شجرة خارج المعبد لكي يتمكن سكان القرى المجاورة، وهم في أزهى حللهم، من توديعه الوداع الأخير.

وحتى لو أن أفراد الكلاش فقراء فإن الوليمة أساسية في المراسم. وإذا كان الراحل شخصية مهمة تقام وليمة من اللحم يضحى فيها بنحو اثنتي عشرة بقرة وما يناهز ثلاثين كبشا.

ويقوم أحد الأبناء أو الأحفاد بصنع التابوت من جذع شجرة. ويتم الدفن في الجبل ويغرس تمثال من الخشب يجسد الراحل.

راتب السنة

في غانا تتم مراسم الدفن في أبهة. في هذا البلد الأفريقي الغربي يدفن الأكانس موتاهم في توابيت مطلية بألوان براقة ترمز إلى الأشياء التي طبعت حياة الفقيد: فسائق شاحنة يدفن في نسخة



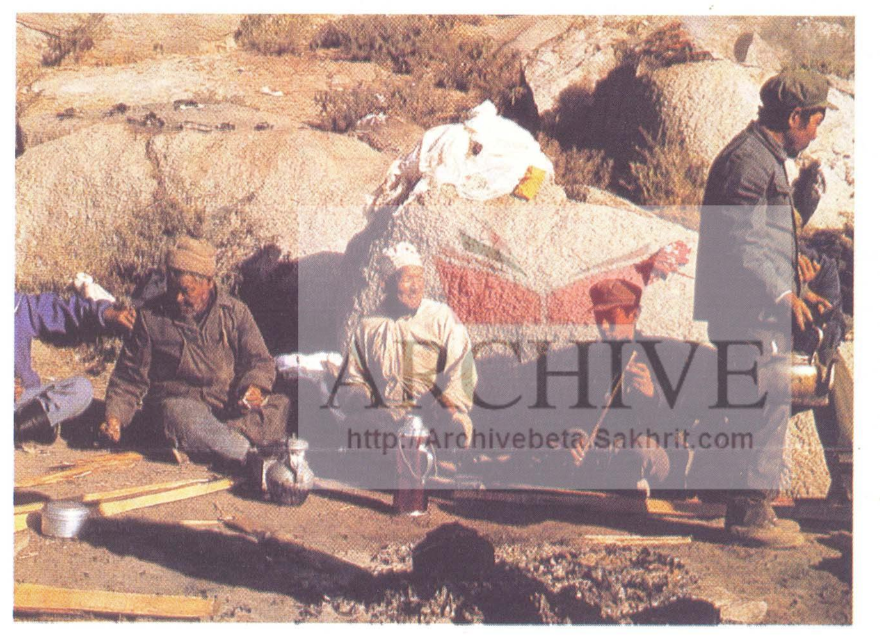
سولاويزي: الراحل يبقى في بيته

لا يتسرع التورادجا بجزيرة سولاويزي في التخلص من موتاهم خاصة إذا تعلق الأمر بزعيم. فهذا الأخير في بيته ويحفظ في مخزنه. ولا يخرج منه إلا لمراسم التشييع بعد عدة شهور. ويبنى فوق قبره تمثال خشبي يمثله.

مطابقة لعربته، وصياد مثل يونس Janas يدفن في قلب تابوت يشبه الحيتان، والراعي في تابوت على شكل بقرة، ورجل الأعمال في تابوت يشبه سيارة مرسيدس.

أما ثمن التابوت فيصل إلى راتب متوسط لسنة كاملة أي نحو ألفين وخمسمئة فرنك فرنسي. لهذا فهناك شيوع للمساهمة في «صندوق الدفن» لمساعدة عائلة الراحل.





وليس مصروف التابوت وحده المتوقع، ذلك أن الحفل يدوم أسبوعا كاملا بطعامه وشرابه الغزير والرقص وعروضه المسرحية على شرف المدعوين.

الميت طعام للجوارح

في التيبت، بلد البوذية، لا يبقى شيء يذكّر بالميت لانحت ولا شواهد قبر ولا هدايا ولا ذكريات أو إسراف في مراسم الدفن، ذلك لأن الموتى ينتهون في حواصل النسور.

تؤكد مراسم الدفن طبيعة تلاشي الحياة وجبرية الموت. الأغنياء وحدهم، واللاما الأكثر شهرة يمكنهم أن يتوقعوا محرقة. أما جثمان الآخرين فينتهون إلى دثار من قماش فوق صخرة «جزارية» على أبواب العاصمة. يقطع الجثمان وتطحن العظام للحصول على دقيق ينثر على الصخرة بينما تنهال الجوارح على البقايا. وهكذا يأمل المتوفى، بهذه الطريقة، في التحرر من دورة التناسخ ويصل إلى مرحلة النيرفانا وهي حالة الصفاء العظيم.

رمز الطبقة

البليني بدورهم لا يحفظون أية آثار لموتاهم: فالعرف السائد يرى أن الجثمان يجب أن يحرق. وبالي هي الجزيرة الوحيدة في الأرخبيل



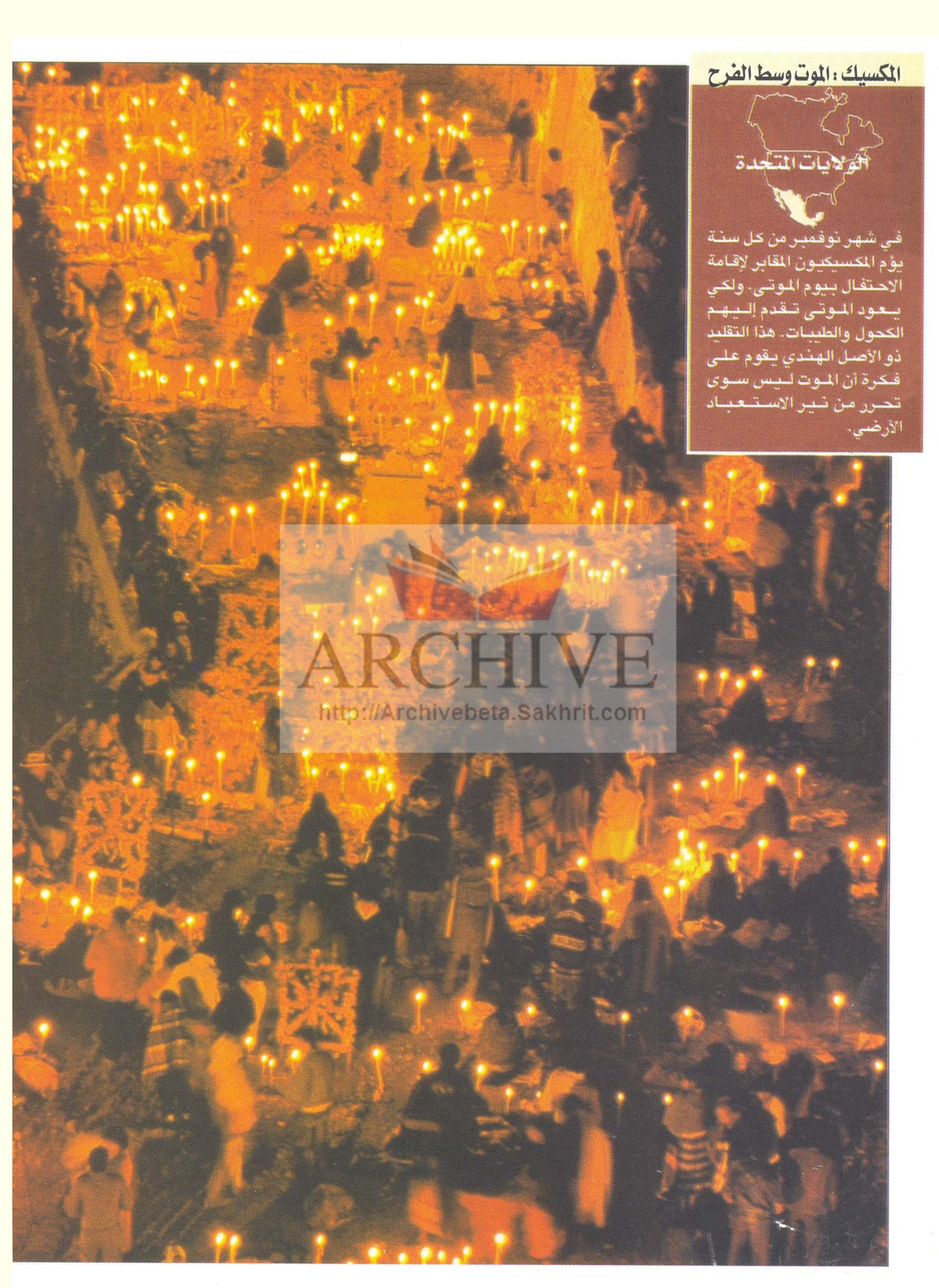


ينتهي المطاف ببوذيي التيبت في حواصل النسور: ينقل الجثمان إلى صخرة قصابي الجثث حيث يقدم لحمه طعاما للنسور. وتطحن عظامه للحصول على دقيق ناعم. هكذا يفلت التيبتي ربما من دورة التناسخ لبلوغ النيرفانا (الصفاء العظيم).

الأندونيسي المسلم التي تمارس الديانة الهندوسية. والماء والنار، بالنسبة للهندوس، عنصران أساسيان للحياة. فالنار ترمز إلى الشمس حيث إن كل هندوسي يحيي الشروق بنشيد. كما أن الشمس تكرم إبان الزواج عندما يقوم الزوجان بسبع دورات حول النار. وبمناسبة الدفن عندما يلقى الميت في النار ليتحد مع الشمس.

وبحسب الطبقة التي ينتمي إليها الميت يصنع تمثال بطول عدة أمتار يمثل ثورا أو بقرة أو أسدا. وفي انتظار مراسم الدفن النهائية يدفن الفقيد مؤقتا في التراب.

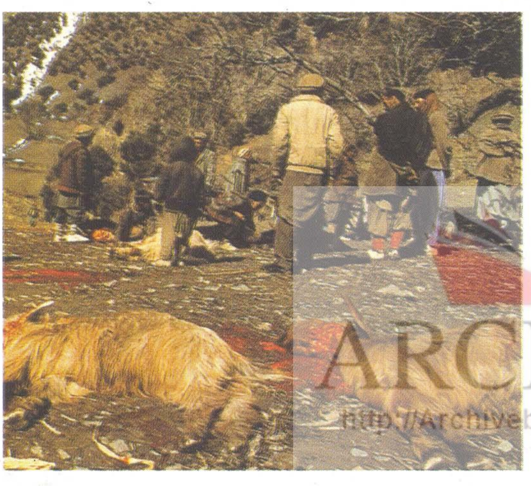
وليلة الحرق تحمل صورة شخصية للهالك في موكب لتعرض على الكاهن لمباركتها. وتنتهي الأمسية بحفل ووليمة وبرقص ومسرح للأشباح. وفي صباح اليوم التالي يوضع الجثمان فوق برج عال من البامبو ويسحب نحو حطاب المحرقة حيث ينتظره الحرق داخل تابوته ذي الشكل الحيواني. وفي الأخير، يرمى الرماد في البحر.

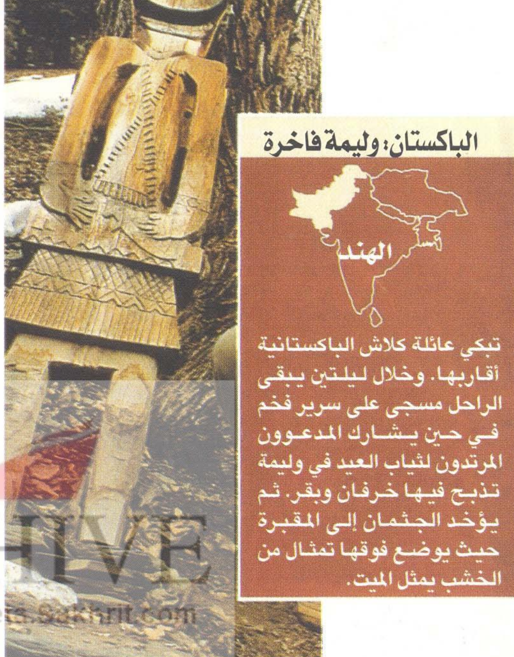


المكسيك : الموت وسط الفرح

في شهر نوفمبر من كل سنة يؤم المكسيكيون المقابر لإقامة الاحتفال بيوم الموتى. ولكي يعود الموتى تقدم إليهم الكحول والطيبات. هذا التقليد ذو الأصل الهندي يقوم على فكرة أن الموت ليس سوى تحرر من نير الاستعباد الأرضي.







الباكستان: وليمة فاخرة

تبكي عائلة كلاش الباكستانية أقاربها. وخلال ليلتين يبقى الراحل مسجى على سرير فخم في حين يشارك المدعوون المرتدون لثياب العيد في وليمة تذبح فيها خرفان وبقر. ثم يؤخذ الجثمان إلى المقبرة حيث يوضع فوقها تمثال من الخشب يمثل الميت.

وبعد اثنين وأربعين يوما يتكرر الحفل مع صورة الميت. وفي هذه اللحظة بالضبط تتحرر الروح.

يجهد البليني أنفسهم على أن يكونوا فرحين لأنهم يرون أن الأفكار الإيجابية تساعد على مقاومة الألم والقلق.

موت وكحول

يقيم المكسيكيون في مقابرهم عيد الموتى يوم 2 نوفمبر من كل سنة. وكل قبر يزين بهذه المناسبة بالزهور وبالشموع. وأحجار القبر تصلح كمائدة يجلس حولها المحتفلون: تتدفق الكحول بغزارة ويؤكل الطعام بنهم لحث الموتى على الظهور والعودة من العالم الآخر.

ويوم الموتى هذا يذكر بحفل هندي قديم على مبدأ أن الموت يمثل تحررا من وجود أرضي محكوم بالألم إلى الأبد.

وهو الوعد الوحيد بإمكان بقاء الحياة: حياة الموت التي تخفي أمل وجود أبدي أو ربما تناسخا يسمح بحياة أفضل في عالمنا الدنيوي.



كتب جيروم شارين في كتابه (نيويورك، وقائع مدينة متوحشة) : «نيويورك هي العاصمة الوحيدة في العالم التي انبثقت من أحياء البؤساء. إنها بلد الشعب في سواده. وإذا كان العضو في عصابة ما يأسر خيالنا فمرد هذا بالضبط إلى أنه هو ذاك الإنسان الذي لم يأت من مكان ما، ذاك الإنسان المجهول والسريع كالمدينة ذاتها». وقد تكون «البيغ آبل أو التفاحة الكبيرة» عاصمة الفوضى المدينية إذ يؤول الإنسان في المدينة إلى بعده المأساوي، فهو بالتناوب بطل أو عاجز، وهو يكبر أو يصغر بحسب أهواء «الوحش». وتتيح «الكتابات السود» هذا الغوص في مدينة من طبيعتها عدم إدراكها باللمس بسبب ضخامتها. وتستكشف الرواية البوليسية أحشاء الوحش الدائم الحضور، الباعث على القلق، والعالم بكل شيء من الوجهة العملية.

نيويورك

بقلم : سيدريك فابر*

ترجمة : كمال فوزي الشرابي

تحقيق حول عاصمة الرواية البوليسية

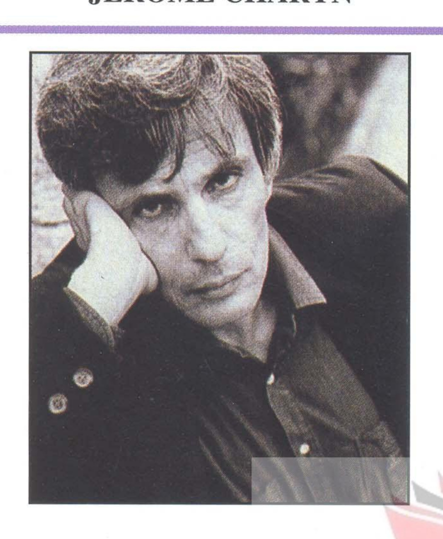
العنوان الأصلي للمقال:
Enquete Sur La Capitale Du Polar New York بقلم: Cedric Fabre ونشر في مجلة Magazine Litteraire، عدد يوليو - أغسطس 1998

يسهم كتاب الرواية البوليسية معاً، بوضعهم الخطوط الإجمالية، للوحة الجريمة أو نزعة الشر، في خلق لوحة مدينية كبرى عن أمريكا «الأخرى»، عن الوجه الآخر للحلم الأمريكي. وكل عمل من أعمالهم إنما هو دراسة وافية عن المدينة، عن أحد الأحياء، جرى بدقة لغربلة بؤوس، وعاداته، وحياته الاجتماعية، والنسج المشتركة بين جماعاته. وهكذا تشكل هذه الكتابات آنيات لعوالم مشوشة، واقعية أو خيالية. والتحية المزجاة إلى المدينة متعددة الأشكال، تدعو إلى القلق والمتعة في الوقت ذاته، أوحى بها احترام معجب أو خائف – ومخيف. وتتخطى اللعبة، التي ابتدرها بعض الكتاب كبلوك وليبرمان، من تخيلوها أحياناً. ويتقاسم المؤلفون فن تدوين أخبار المدينة وهمومها، ولكنهم سرعان ما يتخطون المظهر «البوليسي» والحبكة البوليسية إلى لحمة أخرى: فاللغز هو أيضاً – وبخاصة – لغز هذه الحدود المختلطة بين العنف المديني الواقعي والخيالي العلمي. ذلك أن نيويورك هي وحدها ميثولوجيا للجريمة...

أشرنا إلى «التفاحة الكبيرة» في ملاقاة هؤلاء الكتاب غير المنضبطين من الوجهة السياسية، هؤلاء الكتاب الذين غالباً ما يكونون ذوي لهجة وقحة – حتى ولو نقص دعوتنا حضور عدد منهم كساندرا سكوبتون Sandra Scoppetone أو جورج شيسبرو George Chesbro. ومن «اللوير إيست سايد» حتى «فيليدج»، مروراً بـ «تايمس سكوير»، ها هي ذي «منهاتان» بين أيديكم، على خطى – وفي أعمال – هؤلاء الذين رسموا لوحات للظلام.

جيروم شارين

JEROME CHARYN



«يجب الدخول إلى بطن الوحش»

– من أعماله: (الرواية السوداء الجديدة) و(السندباد) و(القبطان كيد).

جيروم شارين هو منظّر لحركة المدينة – إذ قضى حياته في وصف توتراتها ونبضاتها – كما هو منظّر للرواية السوداء على وجه العموم. قضى مؤلف الرواية البوليسية (رباعي إسحق) طفولته بين «البرونكس» و«اللوير إيست سايد». وهو يعرف، أفضل من أي شخص آخر، كيف تسهم البنية المدينية والتأثير المركزي للمدينة في خلق علم لأمراض الجريمة تعكسه «الرواية السوداء الجديدة» كما يسميها.

● للمدينة مكان على حدته في الرواية السوداء...

– في «لوس أنجلوس» الكاتب إلروي Ellroy أو

في نيويورك الكاتب ليبرمان Lieberman تصبح المدينة نوعاً من التجرد. فنيويورك توجد في الوقت ذاته بالمعنى المادي - نعرف بنايتي الإمباير ستيت وإلكر ايزلر - لكنها هي أيضاً مكان يفوق الطبيعة. وتكتسب المدينة طابعاً مأساوياً يتسم بالقدرة والسرية. إنها واسعة جداً للأشخاص أنفسهم، وتنتهي بأن تحمل إليهم الخيبة. يجب أن نأخذ بالحسبان أن نصف سكان نيويورك يأتون من بلاد أخرى. لقد تطورت فيها طاقة خارقة، والمدينة يصيبها المزيد من الانبجاس أكثر مما هي عرضة للانفجار.

● كيف تعرّف فيها ميثولوجيا الجريمة ؟

- تشبه الميثولوجيا قناة تقود إلى الحقيقة. وهي تختلف عن الراسمة «الكليشيه» التي تقدم لنا الحقيقة السطحية. تتغير الميثولوجيا النيويوركية مع كل جيل. وتبين الرواية السوداء هذا الشكل من الحزن الذي يصيب مدينة ما، وعلى هذا فإن هذا الحزن قد بدأ قبل زماننا بمدة وسيستمر طويلاً، تلك هي خاصية الوحش الذي يسمونه المدينة. وذلك هو الاستمرار... إن نيويورك مدينة حدود تمزج بين جدرانها الماضي والحاضر والمستقبل.

● كيف جعلت منها الرواية السوداء انعكاساً لها؟

- جميع الروايات «تنتهي بأن تصبح سوداء»، وذلك لأن العالم ذاته مظلم، مظلم بشكل رهيب. وخارج السواد ليس للرواية مكان تذهب إليه. يجب الدخول إلى بطن الوحش. إذا رفضت ذلك تنكرت للواقع، وتعلقت بالرواسم وحدها. في أفضل الكتب لا تكون النهاية أبداً طريقة للأم الجراح. في رواية (الحصاد الأحمر) للكاتب هاميت Hammett تترك نهاية الكتاب المدينة في فوضى أكبر مما كانت عليه في البداية. وفي رأيي، إن الفنان الكبير، سواء كان كاتباً أم رساماً، لا يدع على الإطلاق عملاً مكتملاً منغلقاً على ذاته. تلك هي الدقة المتناهية للرواية السوداء: إن المأساة تستمر فيما وراء الصفحات الأخيرة، إلا إذا كان الأمر يتعلق عندئذ بانطلاق بداية حقيقية... ذاك هو اللغز الحقيقي، وليس بمقدوره أبداً أن يُحل.

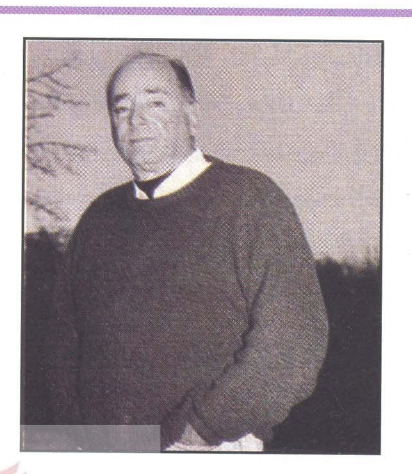
● يقولون إن نيويورك قد أصبحت مدينة أوروبية...

- كثيراً ما تتغير.. لكنها لم تعد قط مدينة أوروبية. كما أنها ليست مدينة أمريكية. يتحدثون كثيراً عن تغيرات «التايمس سكوير». أرادت العُمدية أن تنظف هذا المكان الحار قليلاً و«المزعج». لكن البؤساء الذين كانوا يعيشون في التايمس سكوير سيجدون مكاناً آخر، وكما يجري في أوقيانوس فإن القذارة ستطفو في مكان آخر. كان التايمس سكوير ملتقى الناس والثقافات المختلفة، وحين قضى عليه الحكام أضعفوا أنفسهم.

● هل تتطور الجريمة ؟

- لنكن صريحين : الجريمة الحقيقية هي الجريمة البيضاء. فمنذ وقت طويل تحكم المافيا المدينة. ويمكن حتى القول إن نيويورك تصبح مشلولة من دون وجود المافيا. وحين يتوصل مكتب التحقيقات الفيدرالي الـ «إف بي آي» إلى قطع رأس المافيا تزداد الأمور سوءاً، الأمر الذي يجعل المافيا أكثر فوضوية، وبالتالي أكثر خطراً. وجدت الجريمة على الدوام، وستظل موجودة هنا على الدوام.

هربرت ليبرمان
HERBERT LIEBERMAN



تشريح مدينة

- من رواياته : (مدينة الموتى) و(البواب)

يحب ليبرمان الحكايات المعقدة والأوضاع غير المريحة كقيادته سيارته الجاغوار وكلبه يتحرك على ركبتيه. وفي «شاباكوا»، إلى الشمال من ولاية نيويورك، تبدو حديقة بيته البديع، وهي مغطاة بالصقيع، ذات لون أخضر فضي، وللجوّ فيها تدرجات اللون الرمادي الملبّس بالكروم. يحب ليبرمان النبيذ الفرنسي وجنوده الصغار المصنوعين من الرصاص والمعروضين في كل مكان من مكتبه إلى حد ما. أثاث في منتهى الحداثة، مصنوع من جلد ومن مناضد من الزجاج، مجال لغير المدخنين فيما عدا الزوار الفرنسيين... «عندما كان عمري أربعة عشر عاماً كنت أذهب للتدخين خفية في المرآب، وكنت أنظر إلى نفسي في مرآة صغيرة والسيجارة في فمي. كنت أحاول يائساً أن أشبه الممثل السينمائي المعروف همفري بوغارت». على أن الميل إلى الرواية السوداء لا يأتي من هوليوود بل من أدب القرن التاسع عشر: «إن المصطلح يدعو إلى الحيرة.... هل يمكن القول إن (الجريمة والعقاب) للكاتب الروسي دستويفسكي هي رواية بوليسية؟ ومع ذلك فإنها الأفضل في جميع الأزمنة. خذ تشارلز ديكنز: إنه يكشف عن جميع التحقيقات المتعلقة بالمجتمع اللندني، فهناك جرائم قتل، وجميع مقومات الرواية البوليسية، لكننا مجبرون على القول: «لا يشكل ذلك رواية بوليسية فحسب». فلكي يكتب روايته الشهيرة (مدينة الموتى)، أي مدينة نيويورك كما يروي قصتها طبيب شرعي، قضى ليبرمان ساعات في قاعة التشريح. وكانت الوفيات «الطبيعية» هي الناجمة عن أسلحة نارية. أما فيما يتبقى، كـ «المجازر» فقد كان «الأمر مرعباً». ومن المستحيل التعبير بالضبط عن هذا الواقع حين نرويه في قصة خيالية». وليبرمان هو اليوم أحد مؤلفي الرواية البوليسية الذين لمعوا على صعيد «أدبي». «أنا محظوظ كثيراً. في هذه البلاد، حين تكتب رواية بوليسية، يعتبرونك مارقا من الأدب. وما من «قصة أسرار» تحظى بسوى اعتبارها تسلية صغيرة». وعلى العكس من صديقه لورنس بلوك Lawrence Block لم يبدع شخصية مسلسل. الشخصية الوحيدة المتكررة هي المدينة. «نيويورك هي الشخصية الرئيسة لأفضل رواياتي. ولا تبحثوا: إن القاتل هو نيويورك. هذه المدينة التي تنتزعك من جسدك، والتي تسرّع أنفاسك. إنها تجمع أناساً في أسوأ الأوضاع الحياتية، وتضعهم في مواقف مجابهة... فهم مجبرون على الصراع من أجل المجال، من أجل قطعة أرض، الأمر الذي يؤدي بهم إلى مذابح...». منذ وقت قصير كان ليبرمان يملك استوديو في المدينة. ولم يكن يتمكن من النوم فيه بسبب الضجيج...



لورنس بلوك
LAWRENCE BLOCK

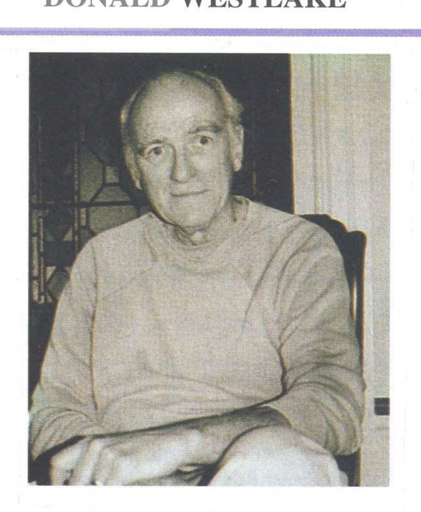
العنف ذو المحرك الذاتي

– من أعماله :(لنقتل ونخلق، آن الأوان) و(محطة الارتباط سبينوزا)

يتأرجح قلب لورنس بلوك بين الشرطي السري واللص. لم يدرقط أين يضع نفسه في الواقع، ولذلك أبدع مات سكودر، الشرطي القديم الذي أصبح مخبراً خاصاً – من دون شهادة – وبيرني رودنبار، المكتبي واللص المتشرد «ولكن» المثقف. ومنذ روايته الأولى، التي ظهرت في العام 1961، لم يتوقف بلوك على الإطلاق عن وصف عالم متاهي، حيث الهموم النفسية للأشخاص تخلق وحدها حبكة لا نهاية لها. «قد لا أستطيع القول من أين يأتي هؤلاء الأشخاص. بلا ريب من حجرة سرية في ذهني. كنت أجهد في تخيل مواقف، وكان الأشخاص يظهرون. سمحت لهم بمجرد الوجود. ولاؤهم مرتبط برؤيا على ما أعتقد. أضع في هؤلاء الأشخاص حتماً جزءاً من نفسي. لكن من المؤكد أنهم أهم من نفسي». ويناقض صوته العذب المتردد اللهجة الجافة القاسية لكتاباته. وأن يلتقي المرء مؤلف (لنقتل ونخلق، آن الأوان) في مقهى صغير أنيق زجاجه غير مدخن، مع موسيقا للحجرة كخلفية صادحة، أمر يدعو إلى الحيرة. كما يدعو إلى الحيرة أيضاً تركه في منزله قبعته السوداء التي تعوّد أن يغطي بها جمجمته الصلعاء. جاء لورنس بلوك إلى نيويورك للمرة الأولى وعمره عشر سنوات، في زيارة لها مع والده، واستقر فيها وعمره سبع عشرة سنة، كما نشر فيها وعمره تسع عشرة سنة أول أقصوصة له في مجلة محلية. «أستمد كل

طاقتي من هذه المدينة. أغادرها أحياناً وأنزوي للكتابة، على أني لم أتوصل قط إلى قطع جميع اتصالاتي بها». وتتحرى رواياته سلوك الإنسان المعرض للخطر، وقد جعله عنف الوسط سريع العطب: «العالم مكان ليست الحياة فيه آمنة كثيراً». وهو ينهي اليوم تأليف مجموعة قصصية ويعقد صلاته من جديد مع الشخصية الأولى لديه، إيفان تانر، اللص المتشرد - الذي - لا - ينام - أبداً: «كانت مشكلتي الحقيقية هي إعطاؤه عمراً ما، إذ لم يكن يستطيع أن يشيخ إلا بمقدار ما أشيخ! جلست، وشيئاً فشيئاً عثرت من جديد على صوته، على حركاته... أعتقد أن جزءاً جديداً مني قد أعاد خلقه».

دونالد ويستليك
DONALD WESTLAKE



جرائم بصلصلة الهزل.

- من أعماله: (حكاية عظام) و(كاهافا).

لا يستطيع دونالد ويستليك أن يمنع نفسه من أن يكون مضحكاً، كما أن كلماته تشكل هزلية كبرى. وتمتد مغامرات شخصيته دور تموندر في نيويورك محمومة، إذ تغدو الفتحات الزجاجية للمركز مرايا مشوهة ذات تأثير هزلي أكيد. في «الممرات الضيقة من الصواعد» بمنهاتان تجري أحداث (حكاية عظام) على قدر متساو من الإجرام والهزل. «خلال هذه السنوات كلها صادفت شخصيات مدهشة. نماذج بشرية تقوم بأعمالها في أماكنها المنزوية، الأمر الذي أوجب أن نمد لها يد العون. وهذا ما فعلته في كتبي. هؤلاء الأشخاص لم يقفوا قط إلى جانب الصدق والاحتشام. إن البطل الكلاسيكي الآخر - «الطيب» - لا يهمني: فجميع الناس هم حتماً إلى جانبه». وهكذا يفضل دونالد ويستليك على اللص الوحش السارق الصغير الذي يفشل في سرقاته، والذي لا تؤيده نسبة 100 في المئة من المجتمع. موجة جديدة من الضحكات. «قال لي شاب ذات يوم إن السارق الأمريكي إنما يسرق للحصول على المال، بينما السارق الفرنسي يسرق لمجرد السرقة. وقال لي إنني كتبت روايات بوليسية فرنسية..». قضى ويستليك حياته وهو يعارك، مروراً بأوغندا، حيث تقع أحداث روايته (كاهافا). وهو يوفر العنف «إلا إذا كانت الحكاية تتطلبه». أما مدينة نيويورك فهي بالأحرى عدوانية مع «محمّييها»: «إنها تضارب على شخصياتي، ويبدو أنها تسأل: «ماذا تريدين مني؟»». وهي تعطي الشعور بأنه ما من أحد يمكنه أن يكون حقاً دمغةً قوية» لأنها ستكون على الدوام أقوى». بعد وصوله في العشرين من عمره إلى

«البيغ آبل أو التفاحة الكبيرة» كتب كثيراً من الكتب قبل أن يعرف النجاح. طفل فقير من الطبقة المتوسطة («وهو أمر أسوأ من أن يكون فقيراً من الطبقة العمالية»)، عالمه صراع مستمر لكي يخلص بنفسه منه على أفضل وجه ممكن ولكن ليس من دون خسائر. ومنذ خمس عشرة سنة، وكتاباته تحظى بنفحة ثانية من السينما، الأمر الذي يجعله يقهقه عالياً... لربما ينتظر مسألة من مسائل العصر حيث يكتب سراً أفلاماً إباحية لطيفة مع رفيقه لورنس بلوك...

شارلوت كارتر
CHARLOTTE CARTER



أدب أسود البشرة والمداد

- من أعمالها: (رود آيسلند رد) و(ديك بالنبيذ)

بطلتها نانيت، وهي عازفة سكسوفون بالشارع وسوداء البشرة، لها شعر أسود يثير الإعجاب. لكن لا تمكن معرفة قصة الشعر التي اتبعتها شارلوت كارتر. رأسها ملفوف بقبعة من هذه القبعات التي صنعت مجد نساء السنوات المجنونة «كنت أود لو أنني عشت في نيويورك قبل خمسين سنة لأستمع إلى بيلي هوليدي Billie Holiday وأرى كولتران Coltrane يعزف». كانت تتمنى لو أنها أصبحت ممثلة مسرحية، لكنها تدعي أنها كانت بصفة دائمة محرومة من الموهبة الفنية، بينما كانت تتابع جولات الفرقة المسرحية، في المرتبة الأولى على الدوام. روايتها الأولى (رود آيسلند رد) - وهي كتاب تقول عنه «إن فيه شيئا من البيتنيك Beatnik *» - قد نشرت العام الماضي في إنجلترا. شرطي عُرف بأنه عاشق يرتعد ومن ثم يبرد أمام باب نانيت. وبكتابتها النزقة، تلج شارلوت كارتر، هذه الكاتبة ذات المستوى الرفيع، عالم ما يسمى بـ «الرواية الخيالية السوداء السوداء»، أي السوداء بشرة ومداداً. «يستعمل كثير من البيض شخصيات من الملوّنين. صدمت عندما رأيت أنه كان منها هذا المقدار. لا أعتقد أنه يجب منعهم من العمل لكن الرجل الأبيض لا يعيش مع هذا الثقل من الماضي الخاص بوضع السود. وأينما أذهب أنا فلن يكون لي حق بالتستر والكتمان أبداً». وهكذا يُنظر إلى الرواية البوليسية على أنها تحية للنوع وتحية لأحد أسيادها وهو شستر هايمس Chester Himes. «على أن هذا

* كلمة أمريكية مركبة، وهي اختصار لكلمتي Beat Generation أي الجيل الوجودي السلوك أو الملبس، الخ... وتطلق الكلمة أيضاً على نصير الحركة الاجتماعية والأدبية الأمريكية التي ولدت في الخمسينيات كردة فعل ضد القيم وصد نمط الحياة في الولايات المتحدة والمجتمع الصناعي الحديث - (المترجم).

ليس تعليق امرأة سوداء على أمريكا، بل هو قصة خيالية، لعبة، كتبتها امرأة». هذه «السيدة العظيمة» التي تتردد على «الإيست فيليدج» حيث عاشت لسنوات في استوديو صغير، تقيم علاقات مزدوجة مع مدينتها المختارة: «تختلف نيويورك عن المدينة التي كبرت فيها (شيكاغو). إنها مدينة فاسدة، منحدرة، عنصرية، شأنها شأن جميع المدن السحرية».

نيك توشيس
NICK TOSHES

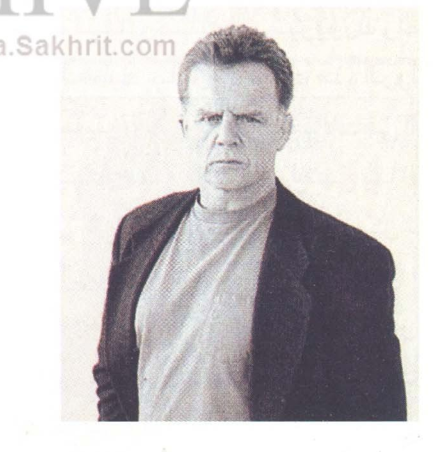


مخترع الرواية السوداء «المتوهجة»
– من أعماله: (الثواليث)

هذا الشاب الجميل الخالد، ذو النظرة النافذة كنظرة بطل فيلم أسود، يمتلك أناقة بدلاته الداكنة، ويمنح نفسه أحياناً بعض الشذوذات: بنطال فاتح وقميص هاواي. إن من يعرف على أفضل شكل عالم المافيا يسمح لنفسه أيضاً بزُها أن يكون ذا أسلوب أدبي خارق، يضاف إليه الغنى المستندي لكتاباته. ويساوي تصدير كتابه (الثواليث) وحده جميع الكتب في «الوسط». ويبدو أن ريشة توشيس تريد أن تسلخ الورق لتثبت حكاية الجريمة الكبرى في نيويورك. ويجب القول إنه كبر في عالم من طبقة اللصوص. في مشرب «بيتي»، إلى الغرب من «فيليدج» يعرفه جميع الناس، ولكنه هو الذي ينادي الأشخاص في الشوارع. «أنا شديد الانتباه لما يحدث من تغير مادي في هذه المدينة. قبل عشر سنوات كانت القوى الإجرامية قادرة جدا. وبمعنى ما كان الأمر أشد إثارة. الآن لم تعد الناحية المعتمة من نيويورك مرئية في المنظر المديني، لكن النفس المظلمة للكائنات البشرية تبقى هي ذاتها، أو أسوأ. إن المنظر يصبح أكثر انتماءً للداخل». ومع أن نيك توشيس هو كاتب سيرة جيري لي لويس راقص الروك، ودين مارتن الممثل، فإنه يؤكد أنه لم يسبق له حقا إن قرأ شاندلر Chandler أو هاميت. ويلتقي أحياناً وولتر موزلي Walter Mosley في مطعم بالزاوية، ولكنه لم يسبق له أن قرأه. ومؤلف الروايات البوليسية الوحيد الذي يعجب به هو جورج في. فيفنس. ولقد زاد التفاته في قراءاته إلى العصور القديمة وإلى القرن الوسيط. على أن التضيف لا يناسبه أبداً: «نعم، جميع الناس منسقون في عُلب. أنت كما أنا. ولكني إذا استطعت اختيار علبتي فستكون ملأى بالمال وبالفتيات ذوات السيقان الرائعة». حين يتنزه في «إيطاليا الصغيرة» يلمس أن «الشايناتاون» تقرضها شيئا فشيئا. يؤكد: «إن المافيا الإيطالية تعيش ساعاتها الأخيرة». وفي روايته (الثواليث) يؤكد للمرة الثانية إذا لم نتصرف

الآن فسنموت في عالم لن نتعرف إليه أبداً. وتهيمن على الرواية كلها بألوانها الساطعة صورة جوني، وهو شرير صغير يريد أن يصبح كبيراً. على أن نيك توشيس، وهو يروي لنا حكايته، يدفن بخاصة الوسط في ملحمة عظمتها لا تقل عن عاطفيتها. وحدة المكان يمثل التاريخ: «من المستحيل وصفه بطريقة تجريدية، وإلاّ لأصبحت شخصياتي مجرد ظلال. إن الشارع هو الذي يتلقى انطباعاتنا، ولكي يكون الوضع الإنساني الذي نتحدث عنه واقعياً يلزمنا مرسى جغرافي». ويذكر جملة لفوكنر: «لا نخلق شيئا ما يتصف بالعالمية ما لم ننطلق من الجغرافية».

ريتشارد ستراتون
RICHARD STRATTON



«الرواية الخيالية الجيدة ينشطها على الدوام خط سياسي»
– من أعماله: «الكوكايين معبود من يتعاطونه»

اشتهر ريتشارد ستراتون بروايته (الكوكايين معبود من يتعاطونه)، وقد حياها كرائعة من الروائع الروائي الأمريكي الكبير نورمان مايلر. وهي صورة عاطفية ومؤثرة لامرأة شابة سجنت بسبب المتاجرة بالمخدرات. وكان الكاتب قد مارس هو نفسه هذا العمل في عالم المخدرات، ودخل السجن لمدة 7 سنوات. واليوم يعمل منتجاً للأفلام الوثائقية، لحساب إحدى القنوات، عن ممارسة أصناف العنف في السجن والحكايات المتعلقة بالمافيا، وهو يعيش في ولاية نيويورك وقد عاد إلى الكتابة من جديد:

● ما نظرتك الآن لروايتك (الكوكايين معبود من يتعاطونه) التي ظهرت في الولايات المتحدة في العام 1990؟

– أنظر إليها الآن كنقطة انطلاق لسلسلة من الروايات. الرواية الجديدة التي أعمل فيها تعود إلى تناول الشخصيات نفسها. تنطلق من مشاهد في سجون نيويورك ولكنها تنتقل أيضاً نحو أوروبا وفرنسا والشرق الأوسط. أرى فيها على الدوام إحدى أكثر الصور واقعية في عالم المخدرات. إنها بالتأكيد رواية بوليسية ولكنها تسجل في إطار الحرب ضد تجار المخدرات، هذه الحرب التي تقودها السلطات الأمريكية حالياً. هذا الصراع هو، بالنسبة لي، إحدى المسائل المعاصرة التي تستأثر باهتمامي. إنها لحرب دولية نقلت إلينا. وهي تتعلق بصناعة جريمة في منتهى الاصطناع كالمافيا.

● هل من الصعب معالجة الموضوع عن طريق الرواية الخيالية؟

– أعتقد أن عملاً جيداً من أعمال الرواية الخيالية إنما ينشطه على الدوام «خط» سياسي: الرواية الخيالية الصرف، التي لا تعالج أية مسألة من مسائل المجتمع أو السياسة لا تهمني. المثال الذي أوثره بإعجابي هو دستويفسكي. كان أفضل كاتب من كتاب الجريمة. رفع هذا النوع إلى قمة لا توازيها قمة بروايته (الجريمة والعقاب). خذ هاميت أيضاً: لقد استطاع، ببنائه حكايات، أن يلقي نظرة انتقادية على أمريكا أو على الرأسمالية، وكتبه هي أيضاً كتب غاية في العنف كـ(المفتاح الزجاجي).

● ما المكان الذي تشغله مدينة نيويورك في أعمالك؟

– إنه لمعرض دولي للبهائم. لديك هنا منظمات فائقة القدرة تعمل خارج البلاد. احتفظت المافيا بصلات مع بلد المنشأ، وهناك حضور للكارتيلات الكولومبية...

● والسجن ؟

– قضيت زمناً في «مركز» إلى الجنوب من المدينة. قسم من روايتي تجري أحداثه هناك. في تلك الحقبة كان رودولف جيولياني – العمدة الحالي لمدينة نيويورك – هو وكيل النيابة الفيدرالي، وكان قد وضع في السجن جميع أنواع البشر، من فاسدي وول ستريت إلى تجار المخدرات، وكانوا موجودين هناك مع زعماء للمافيا أيضاً. سمعت عدداً من الحكايات الخارقة غذت خيالي في فترة سبق أن فكرت فيها بالكتابة. جذبتني الكتابة عن الجريمة شيئا ما كما فعل جان جينيه *.

● لكن الأناس الذين تصفهم هم أيضاً أناس عاديون...

– أردت أن أكتب عن أنموذج خاص من نماذج المجرمين، أولئك الذين كبروا في إطار ثقافة هامشية. هذه المرأة التي نعثر عليها في (الكوكايين معبود من يتعاطونه) والتي اتهمت بقضية صغيرة من قضايا المخدرات كانت في مدرسة بإنجلترا وكبرت فيها. وصلت إلى نيويورك وأصبحت عميلة لـ«ميك جاغر»... بنيت هذه الرواية على حكاية حقيقية. كنت قد قرأت مقالات في الصحف ثم أصبحنا رفيقين طيبين، وانتهى بها الأمر إلى الخلاص من السجن. تطورت فيما تمكن تسميتها «المافيا الهيبية». مدخنون صغار وجدوا أنفسهم متورطين في تجارة المخدرات العسيرة واقتراف الجرائم... ما كان هادئاً في السبعينيات لم يعد كذلك طويلاً، ذلك أنه بعد «المحبة والسلام» وُجد الكوكايين في الثمانينيات، الأمر الذي غير الأشياء إلى الأبد.

* Jean Genet، كاتب فرنسي (1910 – 1986). رواياته (نوتردام – دي – فلور، 1944)... قصائده ومسرحياته (الخادمات، 1947 – الشرفة، 1956 – السواتر، 1961) تعالج مشكلات شبابه المهمل المنحرف، وتنتقد بقسوة ما في العالم المعاصر من كذب ونفاق، وتحايل وفساد– (المترجم).

● **هل تعني أن هؤلاء الناس ضحايا؟**

– لعلهم لم يكونوا يعرفون دوماً لمن هم يعملون، ولكن حتى «البغال»، التي تستخدم لنقل المخدرات، تعرف ما يفعلون. لا أؤيد الفكرة القائلة إنهم «ضحايا متماثلون». هناك أناس يكبرون في أحياء فقيرة حيث المستقبل الوحيد هو الكوكايين. والأناس الذين أتحدث عنهم قد التزموا طوعاً تجارة المخدرات ليكسبوا مالاً. إنهم مجرمون، وهذا لا يعني أنهم رديئون... وفيما يتعلق بكتاباتي يستعلمون هنا مصطلح «شديدة الغليان». أنا لا أستخدم أبداً العواطف «التي تفتن أو تجذب»....

ريجي نيدلسون
REGGIE NADLSON



رؤية بندقية حربية وممارسة الكتابة
– من أعمالها : (الزئبق الأحمر) و(الخشخاش الحارق)

هذه البرجوازية من غرينفيتش، ذات الأسلوب الأنيق المميز، تظهر سخرية عذبة عندما تتحدث عن نفسها. «إننا بلاشك مدينون، نحن كتاب الرواية البوليسية، للجامعات التي كونتنا أكثر ما نحن مدينون لمواهبنا». ريجي نيدلسون، التي نشرت في فرنسا (الزئبق الأحمر) و(الخشخاش الحارق)، تشوه شيئا ما نبالة النوع. «إنه لمجرد ميدان يمكننا فيه أن نتألق ونتحرر. أكتب روايات بوليسية قبل كل شيء لأنني أعبد قراءة هذا النوع. لا يشعر المرء بالجدية، ولا يقوم إلا بتمضية الوقت. إنها لتسلية». نشرت روايتها الأولى من دون أن يسبق لها أن رأت بندقية حربية، ولا حتى جثة. لقد رأت منها ما يكفي وذلك بتحقيقاتها لمحطة الـ«بي بي سي» ولجريدة «الإندبندنت» وهي تحقيقات قادتها إلى جهات الكون الأربع منذ عشرين سنة. وتؤكد أن تأثرها بالسينما وبقصص الرحلات كان أكثر. ورواياتها، إذا بدأت في نيويورك، تقود مخبرها السري الخاص، واسمه آرتي كوهن، إلى قارة أخرى، إلى موسكو أو إلى هونغ كونغ. «كنت قد بدأت كتابة حكاية مع فتاة كشخصية رئيسة، ولكني فضلت عليها صديقها الصغير وأنا أتقدم في سياق الرواية. وبما أنه كان رجلاً فلم تكن لديه مشكلاتي، هذا النوع من مشكلات الفتيات. وعلى أية حال فأنا لا أؤمن بالمرأة المخبرة. ولا أعرف امرأة تمارس الضرب...». جذورها الروسية أو البولونية بعيدة: الشقة الفاخرة التي تسكنها تقع على مسافة عشرة شوارع من المكان الذي ولدت فيه. تتصف

بالوقاحة ولكنها تتصف أيضاً باللامبالاة والخفة: «بعد إنهاء دراساتي قضيت عاماً في باريس من دون أن أعمل شيئاً. كان ذلك في السبعينيات، ولم يكونوا يطلبون منا أن نفعل شيئاً، وإنما الاكتفاء بالحصول على رجل على أبعد حد. وهناك أخذت أطالع...» إن النضج الذي يقود إلى الكتابة يكون طويلاً. ريجي نيدلسون نشرت أخيراً روايتها الثالثة، وفي أثناء ذلك توصلت إلى الالتقاء بشرطي حقيقي لتتأكد من أنها «تروي جيداً». «هذا الشاب، الذي كان قد درس في أفضل الجامعات، دعاني إلى أحسن مطعم في الزاوية، وكان يتحدث بأناقة. أنا يسارية من الطراز العتيق وما كنت أتصور على الإطلاق شرطياً مثله. كانوا جميعاً قذارات في رأيي...». و«جرجرها» في مؤخرة سيارته ليبين لها «الجريمة عن قرب»... «أعتقد أن الجريمة في نيويورك هي واقع يتخطى الحدود. وهكذا أصبحت كتبي مرعبة * «دولية» من دون أن يكون قد كتبها لذلك «طوم كلانصي»». هذه الميثولوجيا للجريمة المنظمة لا تستطيع ريجي نيدلسون أن تمنع نفسها من أن تربطها بالحلم «النيويوركي». «منذ اللحظة التي تصل فيها إلى نيويورك، تستطيع أن تصبح شخصاً آخر وتكنس حكايتك. وتلك حال شخصيتي. أن يكون المرء شرطياً معناه أن يكون أيضاً نيويوركياً». إن نيويورك التي تصفها هي بالأحرى مرعبة. وكانت تخشى أن لا تكون قد وصفتها بما فيه الكفاية...

روبيرت ديلي
ROBERT DALEY

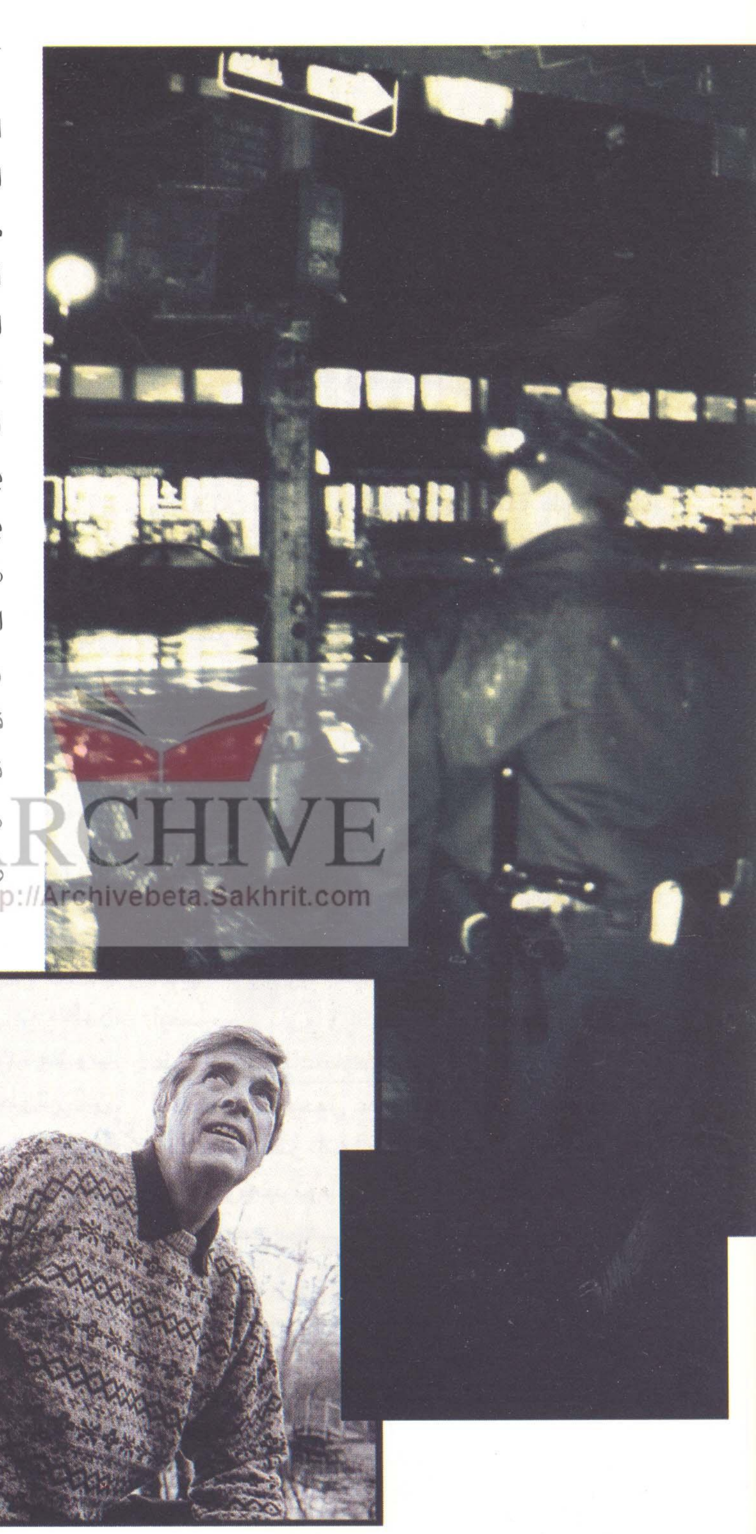
من البؤس إلى الوسط البوليسي
– من أعماله: (في صميم القلب)

بما أن روبرت ديلي صحافي قديم في صحيفة «نيويورك تايمز» فقد تمكن من اختبار جميع الأنواع: رواية تقع أحداثها في البوردوليه **، دراسات حول الرياضة، وخصوصاً الروايات البوليسية. ويعيش مؤلف (عام التنين) – وقد أخرجها للشاشة الكبيرة «ميكائيل تشيمينو Michael Cimino» – نصف السنة في بيته البديع في الكونيكتكوت، والنصف الآخر في مدينة نيس بفرنسا حيث تجري أحداث كتبه الأخيرة. قال بلغة فرنسية سليمة: «تزداد الصعوبة في تحرير كتاب ما طُرداً. لا أدري ما إذا كان ذلك يتأتّى من أنني أصبحت أكثر تشددا مع نفسي أو أنه العمر... مبدئي ألا أقلد نفسي على الإطلاق. إن المرء مدفوع إلى إجراء الكثير من الإعادات عندما يكون صحافياً». في العام 1971 طلبوا منه أن يصبح أحد مستشاري مدير الشرطة في نيويورك. عام قضاه بين الخنازير البرية للأروقة، والطموحات الوظيفية للبعض، وميدان العمل. «كان هناك هذا الاحتقار الحاضر الوجود لشرطي القاعدة،

* Thrillers: وتطلق هذه الكلمة على الروايات والأفلام التي تثير الرعب كأفلام المخرج الشهير ألفرد هيتشكوك – (المترجم).

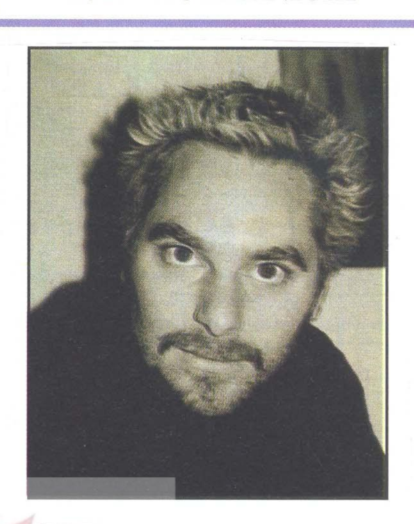
** Le Bordelais منطقة واسعة في الجنوب الغربي من فرنسا، اشتهرت خصوصاً بزراعة الكروم.

للرقيب الصغير. كانت رؤوس التسلسل الإداري تقضي وقتها في طعن بعضها بعضاً في الظهر. قلت لنفسي إنني إذا مزجت الوقائع السياسية بعالم الجريمة فسأحصل على حكايات جيدة». في كتبه، ذات اللهجة الرصينة والسرد القارع، يتصارع المديرون في المكاتب بينما يستميت المفتشون في العمل. لكن «الإنسان اللطيف» لا يكون أبداً الإنسان الذي يصدق الناس كلامه: «لا فائدة من وصف نفس بأنها مقرفة تماماً. فالقارىء يكتشف في هذا الوصف فوراً نهاية الحكاية». ويعلق المؤلف: «ليست هذه روايات بوليسية بل روايات عن البوليس. من هو شرطي القاعدة؟ كيف يمكن أن تدار كل هذه القوة في مدينة ما؟ فكرت شيئا ما كعالم اجتماع فاقتنعت برداءة ما يخضع له رجال الشرطة من إدارة». واليوم، وبعد عشرين رواية وعدة اقتباسات سينمائية (منها الاقتباس الشهير لـ «أمير نيويورك») يعتقد روبرت ديلي أنه قد قام بجولة حول الشرطة النيويوركية. ولقد بدأ أخيراً بكتابة رواية تجري أحداثها في فرنسا المحتلة في العام 1944.



تود كومارنيكي

TODD KOMARNICKI



في جهة ما بين القدر وصندوق الموسيقا*

– من أعماله : (حُرٌّ FREE) و(مجاعة).

قصة كالفرشاة، شعور مصبوغة باللون الأشقر، لحية صغيرة لم يسبق له أن حلقها، له مظهر ما بعد البنك **، وهو يتناقض مع مظهر الشيوخ النيويوركيين الجالسين إلى مائدة مشرب ميلانو، في شارع هوستون، على خطوتين من «فيليدج». يفضل تود الموائد العالية في الخلفية المعتمة من المرسى قرب صندوق الموسيقا. وبدءاً من الساعة السابعة عشرة هو الذي يجوّق العمق الموسيقي. بين أغنيتين شائعتين من الثمانينيات يدرج أنموذجاً عتيقاً من الخمسينيات. «لدينا وقت: لقد هيأت 18 برنامجاً...». حين وصل إلى نيويورك، منذ خمس سنوات، غنى حتى في فرقة روك، قبل أن يعود إلى مهنته الحقيقية التي مارسها على الدوام: مهنة الكاتب... بعد طفولته في فيلادلفيا، قضى سنوات فتوته في كتابة سيناريوهات لهوليوود في لوس أنجلوس. ثم صفق الباب خلفه واكتشف نيويورك. «لن أغادر أبداً هذه المدينة، سيدفنونني في مانهاتن .إنها لتعكس بشكل كامل ما أنا عليه». في الواحدة والثلاثين من عمره أقبل في كل ثانية على الحياة، وكان متحركا لمدينته ذاتها. «أدركت منذ ست سنوات أن الطريقة الوحيدة لحب شخص ما هي في معرفة قصته. وهكذا ولد «فري» – اسم البطل الذي لا مأوى ثابتاً له في الرواية الرمزية. ها قد مضى عشر سنوات وأنا أعمل مع الذين هم بلا مأوى ثابت، الذين هم أناس مثلي ومثلك، ما عدا أنهم أحياناً قد قاموا باختيار رديء، بغلطة، ولم يكن يوجد أحد بجوارهم لإدراكهم». بعد أن استقل فري زورق حبكة بوليسية، وجب عليه أن يتخلص من قناع الذنب الذي يسحقه. «يسقط الجميع في هنيهة ما بهاوية المصيبة ولكن الجميع يرتبطون أيضاً بحظ ثانٍ». ويحب تود كومارنيكي أن يراهن على الحب. وباعتباره منحدراً من أسرة «من الطبقة العاملة» فإنه يحمل عمله على محمل الجد: «تتناول رفشك وتحفر، إنه لعمل، لا نزوة رومانسية، أن تكتب. ويعبد تود موسيقا الخمسينيات. أما فري فإنه يسمع موسيقا الجاز. إنها أيضاً حكاية حب. هناك لغز، لأن كل حكاية يحسن قصها تحوي لغزاً، وهذا ما يجعلك تقلب الصفحات. إن السرد

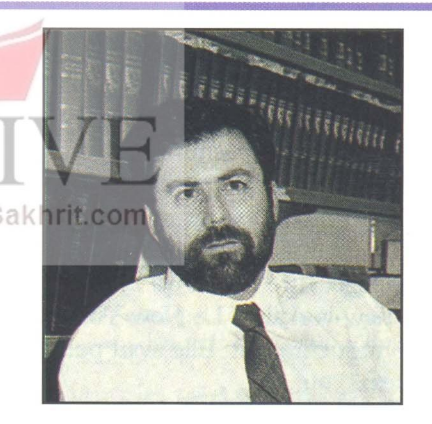
* Juke- Box : صندوق الموسيقا أو صندوق جوك: آلة باسم مخترعها وهي بشكل صندوق توضع في المحلات العامة وتحوي أسطوانات يختار الناس منها ما يشاؤون عند إنزال قطعة نقد في ثقب خاص بها – (المترجم).

** Punk : فرق موسيقية من الشباب بدأت بالظهور في مطالع الثمانينيات. اشتهر أفرادها بتأليف الموسيقا العنيفة الصاخبة وعزفها. أشهر فرقة منهم (مسدسات الجنس SEX PISTOLS). من عاداتهم حلق شعر رؤوسهم وترك عرف منه في مقدمة الرأس كعرف الديك، يصبغونه بألوان غريبة – (المترجم).

هو وسيلة للاتصال بالكائنات الإنسانية». وتتضمن روايته الثانية (مجاعة) النفس الحيوي ذاته: رجل يموت من الجوع في شقة أنيقة بنيويورك. وإذ يعجز الشرطي الذي يحقق في اختفائه عن الشعور بالعواطف والمحبة، فإنه يموت تدريجا جراء هذا النقص. «إذا لم يهتم المرء بالناس الذين يحيطون به، وإذا لم يدعهم أحياناً، هم أيضاً، يعتنون به، فإن الأمر ينتهي به إلى الموت. وما الموت جوعاً سوى استعارة...»

كولن هاريسون

COLIN HARRISON



الوضع المديني

- من أعماله : (منهاتان في الليل)

كبر في مكان لا يبعد عن فيلادلفيا، في طائفة ريفية من الصاجيين * حيث اللاعنف هو القاعدة. في السابعة عشرة من عمره اكتشف المدينة. والتقى، وهو الذي لم يسبق له أن رأى في طفولته شجاراً، بالفساد، والعزلة، ويأس الحيوات السجينة في أغلال المدينة. «كنت أخشى العنف لربما أكثر من أي إنسان، ولاشك في أن المدينة هي أكثر الأماكن عنفاً في المجتمع». ثم تملكه عشق نيويورك: «هناك مزيد من الحركة يفوق حركة أي مكان آخر، ومزيد من السلطة، ومزيد من المال، ومزيد من الناس، ومزيد من الأضواء، ومزيد من الحكايات. هناك يمكن أن يحدث كل شيء من شارع إلى آخر، إنك لا تدري من يمشي إلى جانبك، أو على خطاك...». وأتاح له عمله كمحرر في (الهاربرس ماغازين) أن يكتشف ظلمات المدينة وأنوارها. وكالكثيرين دهش لرؤية جميع هؤلاء الفتيات اللواتي يأتين إلى نيويورك وليس لديهن سوى جواز واحد للنجاح هو «زوج محترم من السيقان». «وبدءاً من وقت وجودهن هناك ينخرطن في نقاش مع القدر، وشيء ما سيحدث حتما». في أعمال هذا الكاتب يشكل الجنس والنساء رائدات للجريمة لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى. وفي روايته المتألقة، بما تثيره من ملحمية وقلق، وهي (منهاتان في الليل)، يطرح هذا السؤال: كيف تبتدىء جميع القصص التاعسة؟ «عندما لا يتوقعها المرء، عندما يكون نظره مشغولاً بمكان آخر، عندما يفكر في مشكلات أخرى، في مشكلات عادية». نيويورك هي «ميدان معركة في رقعة ضامة» وتوحي إليه بما يسميه هذه «الحبكة المدينية» التي يدافع عنها كنوع منفرد تماماً. «بورتر فرن»، وهو شخصيته ومدون وقائع منوعة، يلتقي بإحدى هؤلاء النساء المغامرات، وقد انقلبت حياتها في نيويورك رأساً على عقب، وساقت الصحافي في مجرى حياتها. «كلما حاول

(*) الصاجيّ أو الكويكر Quaker هو أحد أفراد شيعة الصاجيين البروتستانتية التي تدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر- (المترجم).

الإنسان أن يكتشف الجنس اكتشف سراً. ولكي يعرف أحدهما عليه أن يمر بالآخر، والعكس وارد. أعتقد أنني اكتب عن تعقد الحاضرة التي تضع في حالة تحد الاتجاه الأخلاقي لفرد ما، الأمر الذي يتطلب أحداثا وحركة. الرواية السوداء هي حل للنزاعات الأخلاقية، وهي تلغي، بمعنى ما، القرارات السكونية... ويسمح الكتاب بهذا النوع من الحوار الممنوع مع المدينة».

بروس بندرسون
BRUCE BENDERSON



شاعر «الطبقات الخطرة»
– من أعماله : (توكسيكو أو تسميم)

على غرار جان جينيه، وكثيراً ما يذكره، عاش بروس بندرسون وهو يغازل عالماً «مصنوعاً من الطبقات الخطرة». كان ذلك في الثمانينيات، في صميم منهاتان. (توكسيكو) هي الرواية التي أهداها إلى هذه الساعات من المجد في «التايمس سكوير»، الذي يسمى أحياناً الـ «بيغال Pigalle النيويوركي»، ويعيش بين المخدرات والجنس. «كان ذلك ملتقى طرق، «سوقا»، بالمعنى الروماني للمصطلح، حيث كان يوجد تداخل حقيقي للطبقات. فكرة قديمة عن الحاضرة حيث كان عضو مجلس الشيوخ يستطيع أن يقابل المتشردين والعوام من الناس. كان ذلك ليبيدو Libido المدينة، بالمعنى الفرويدي...». من هذا اللقاء مع ثقافة البؤس، «الوحيدة التي تتصف بالدولية» استطاع بندرسون أن يمنح قصة لامعة، حيث متطلبات الحياة من قبل بطله «أبولو»، وهو راقص خلاسي، ترهق كاهل الزمن، وحيث الكتابة على قدر تشويش العالم، وقد أصبحت صداه، يقف بندرسون بمعزل عن مجرد السرود الموجزة ويرمي بلاطات في البركة: «لا أحب الروايات البوليسية كثيراً. إنها لنزوة ذكورية حيث يبدو أن المخبر يصطحب معه قلق خصاء، وحيث عليه، لكي يتأكد جيداً من رجولته، أن يختم عمله ببطولة....». إن بندرسون، المناهض للامتثالية أو المحافظة، وصاحب البلاغة الخارقة، يقدم لنا تقريباً وجه عالم اجتماع من نيويورك. نشر أخيراً، في دراسة قصيرة، أفكاره حول التقاء الإنسان بالانحطاط في جميع أشكاله. ويروي في هذه الدراسة أيضاً تجربته الخاصة التي لا تضاهيها تجربة خصوصاً إذا علمنا أن حي «سيراكوز» الأنيق، حيث كبر، لم ير فقيرا على الإطلاق... وفي شقته بـ «اللوير إيست سايد» يعلق على سنوات طيشه في تنوعها واختلافها، ويرثي لتغيرات منهاتان: «لما أرادوا تجديد حي التايمس سكوير بدا وكأن قوى المدينة ذاتها قد تعطلت، وألغيت إلى الأبد تقريباً فكرة إنشاء مركز في المدينة يقطنه الفقراء والسود وذلك منذ أن أعلن الأغنياء أن المكان أصبح يخصهم. والحقيقة أن المركز الآن إنما هو مقبرة، فيه يشعر بالضجر حتى البرجوازيون أنفسهم».

ديناميكية الوحدة

عندما يبدأون الحديث عن الجنس الدرامي، فهم دائما لا يخوضون بعيدا في حل رموز ما يمكن فهمه كـ «جنس» مقابل ما هو «خارج الجنس». وعلى سبيل المثال، يدخل يبيخودوف ومعه باقة من الورود حتى أنها تسقط منه عندما يرى، في العتمة الصباحية، دونياشا مع لوباخين وحدهما في الغرفة وهي في شبه حالة إغماء(1) - لا توجد هنا أية رائحة للجنس الدرامي، وكل ما في الأمر أنهما في وضع غير طبيعي قليلا. أو يظهر فوينيتسكي مرة أخرى بباقة من الورود عندما تكون يلينا أندريفنا بين أحضان أستروف(2) - ومع ذلك فالأمر سيّان، لا توجد أية جنسية درامية، لا مشهد فاضح، ولا كشف، ولا تراجيديا، ولا فارس، ولا فودفيل. ببساطة توجد غصة وارتباك. كل العلاقات الشكلية للجنسية الدرامية يمكن أن تظهر على الوجه. ولكن إذا كانت هذه العلاقات في ذاتها تبرز القليل، أي لا تملك قيمة ذاتية، فلن نلاحظها أبدا على الفور، حيث الجنسية الدرامية الحقيقية تظهر عندما تكتسب الملامح الخارجية المميزة للجنس الدرامي خطورة المضمون الكامنة، وعندما يولد معها في الوقت نفسه الإدراك الخاص.

قبل كل شيء يذكرون التركيز المتزايد للشرطية - الاصطلاح - في أية منظومة جنسية درامية، ولا أحد يسعى إلى إسدال النقاب على هذه الشرطية أو الاصطلاح، وتزيينها كواقعية مباشرة.

إذن لأي سبب نشغل أنفسنا بذلك؟ في الواقع هنا عملية فرض أساسي - إدارة المؤلف التي تنمذج الموقف ونوعية الشخصيات بشكل سلطوي، ولا



بقلم: يكاترينا سالنيكوفا

ترجمة: د. أشرف الصباغ

تحاول إعادة إنتاج وإدراك فوضى وتنوع الأشكال الحياتية. المؤلف يعرض الحياة - الوجود - على النحو الذي يجب أن يعرضوها هم أيضا عليه - من أجل كشف جوهرها. وقد نشأت، تكونت، التصورات حول ما يجب

هذا المقال نشر في مجلة «الكتابة المسرحية» وهي مجلة فصلية العدد (2) الربع الثاني 1998.

(1) من مسرحية «بستان الكرز» لأنطون تشيخوف - (المترجم).

(2) من مسرحية «الخال فانيا» لأنطون تشيخوف - (المترجم).

واكتسبت استمرارية ما. وتنتمي إلى زمن تام. ولا يهم، ظهرت منذ دقيقة واحدة مضت أم تمتد في أعماق القرون. الشيء الرئيسي أنه يتم الوصول بمساعدتها إلى تخيل الحدث كحقيقة قد اكتملت، وليس تلك المشاهد المتناوبة التي تتوالى كما لو كانت متزامنة مع إدراكك البصري، وفي الوقت ذاته مع معايشتك وانفعالك بهذه المشاهد. الجنس الدرامي - رزين أو قلق، حزين أو مرح، عاطفي أو تهكمي - هو تقرير عما حدث. ليس عبثا أن المؤلفات ذات الجنس الدرامي تفضل المقدمات (الاستهلال) والنهايات (الخاتمات). فهل يمكن للمقدمات والنهايات الكلاسيكية أن تنتمي إلى الواقعية اليومية بشكل حر، والتي لم تكتمل بعد وكأنها من دون بداية ونهاية؟ - فقط من أجل كشف هذه «الواقعية» بوضوح تام، يجب الإحساس بتصنعها الخاص وبوهميتها المتفردة.

وبالمناسبة، فتأثير التقرير عما حدث لا يعني إطلاقا أن القارئ - المتفرج المتلقي له علاقة بالأحداث التي رحلت في نهر النسيان مع ذلك الماضي الذي لم يعد له وجود. لقد تمت الاستعانة بالجنس الدرامي من أجل ترسيخ الذي مضى إلى الأبد ونقله إلى الوضع الجديد الآني للشكل الجمالي - الاستيطيقي الثابت الذي يوجد في الزمن الخاص الحاضر. وهذا الزمن يختلف عن زمننا العادي. ففي الحاضر يجري زمن الجنس الدرامي دائما كما لو أنه ينحدر بسرعة على طريق نعرفه - وإضافة إلى ذلك فالمشاركون فيما يجري لا يلاحظون ذلك الطريق المستمر. الشخصيات تعمل بدقة كما لو بالنوتة، ولكن بعدم التكلف وبالشكل الطبيعي الذي يتميز به المكتشفون الأوائل، وليس بقلق الذين يعرفون المستقبل، وكل ذلك من طبيعة المشاركين في الطقس التقليدي.

إدراك الجنس الدرامي شبيه بالتوقع القلق لشيء قد حدث مرارا، وسوف يحدث الآن، ولكنه من جراء ذلك لا يفقد تأثير المفاجأة وعدم التوقع والتفرد الخارق للعادة. فها هو روميو، بالمصادفة، يتعرف على جولييت في صالة الرقص، وبالذات مع جولييت التي تنتمي إلى عائلة الأعداء. وبشكل ما يجب عليهما أن يفرضا حبهما ويتحدا معا - فهل سيكون ذلك اختطافا، هروبا، تنكر في ثياب أخرى ومحاولة تقديم أنفسهما كأشخاص آخرين، كعريس محايد، أو عروسة محايدة، من خارج عائلتي مونتيكي وكابوليتي. وعلى نحو ما ستنشأ مواقف صعبة ومشددة - إما أن يصبح الزواج السري معروفا للوالدين، أو يحتدم من جديد خلاف العائلتين الذي أخذ يستكن في هدوء، أو يظهر مطالبون آخرون بيد البطلة، أو يبدأ زواج آخر في تهديد البطل، أو يحدث فراق إجباري... إلخ.. وهلم جرا. إن ترسانة الأساليب متنوعة ومختلفة على الرغم من أنها لا نهائية. المهم كيف يتم تجميع تلك الأساليب، وأي احتمالات وأشكال للاختيار، وفي أي مقام ستقدم. أين تنضغط وتتقلص كميتها - عددها - وأين تتولد نتائجها؟.

الموت الوهمي يستخدم في «روميو وجولييت» وفي «ضجة فارغة» وفي «حكاية

شتوية». ولكنه يقرأ في جميع الأماكن بشكل مختلف، البطلة في التراجيديا تسلم نفسها، بالمعنى الحرفي، إلى موت ممسرح - تظاهري - عندما تبقى معه على حدة، وفي وجود أخيها لورانسو فقط. هذا هو سرهما، وارتجالهما اليائس. ولكن القدر يمكنه أيضا أن يرتجل على طريقته. والموت لا يحب أن يستخدمونه عبثا ببساطة من أجل متطلبات العالم الحي. في «ضجة فارغة» يشارك بعض الأشخاص في الموت التظاهري، ومن ضمنهم الرجل المرح بندكت. لقد أصبحت مغامرة، لعبة جوقة كاملة من أجل الدفاع عن شرف هيرا، مع الوعي بأنه في أية حال من الأحوال لن يكون الوضع أسوأ من ذلك. وفي «حكاية شتوية» يجب أن تعتبر البطلة ميتة لعدة سنوات من أجل أن تعود إلى الوجود العلني، تقريبا كما لو أنه لم يكن قد حدث لها أي شيء، لتواصل الخط الذي انقطع لحياتها السعيدة، إن المقام العام، والإدراك الكلي للعالم، ومزاج الكاتب، كل ذلك في مجموعه يملي إما معالجة أخرى للأسلوب، وإما تطويره بشكل آخر. والنموذج الأولي للموقف - تطوره - النتائج، تلك حلقات ثلاث سوف تكون مرتبطة مع بعضها البعض على النحو الذي يتطلبه المنطق العام للتراجيديا أو الكوميديا أو دراما الباروك. هذه الحلقات الثلاث، في نطاق كاف، مستقلة عن بعضها البعض. بين الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة يوجد منطق صارم، والمنطق الوحيد الممكن للتحولات غير موجود. ومن حيث المبدأ، كان من الممكن تماما لهيرا أن تموت موتا حقيقيا - وذلك حتى في لحظة اكتشاف براءتها الكاملة، وهذا يعني رد اعتبار لا مفر منه.

ولكن لماذا حقا، لا تنهي حياتها من فرط السعادة؟ إذ إن هولستير في «الملك لير» عندما يعرف القصة الجريئة الكاملة لما فعله إدجار - على الرغم من أنه مر باللحظات المظلمة نفسها في الحياة وبالقسوة اللاإنسانية نفسها، ينهي في إصرار حياته بنفسه. أما جولييت فقد كانت تستطيع أن تفلت بإرادة أية مصادفة - على سبيل المثال، كان من الممكن أن يظهر روميو في الضريح في وقت متأخر قليلا، عندما تكون قد بدأت لتوها في الاستيقاظ. وبالتالي يتم إنقاذ البطلين العاشقين. عندئذ فقط يمكن أن يتضح فجأة أن «ضجة فارغة» هي تراجيديا - على الرغم من أنه لم يكن هناك أي شيء يدل على ذلك. أما «روميو وجولييت» - فهي مجرد تراجيديا ما متكلفة، أو ميلودراما تثير في جدية شديدة الهول والفزع، حتى أنها على نحو ما بعد ذلك تخيب الأمل في النهاية السعيدة المعسولة. فاستخدام الأسلوب هنا لا يجب أن يهدم وحدة الجنس الدرامي. وجميع الأساليب هنا على حد سواء.

لو كانت هذه الأساليب تتطور في عمل من جنس درامي محدد، فإن تطورها يجب أن يتناسب معه. بالطبع في «هاملت» توجد مشاهد مضحكة. وفي «كيف يعجبكم ذلك» يوجد جاك - ميلانهولك الذي يباع، كما هو مقدر له - إلى ميلانهولك. وفي «روميو وجولييت» توجد

المرضعة بأشعارها الكوميدية اللاذعة. إلا أن هذه التفاوتات الطفيفة تبقى موجودة في النصوص المسرحية بشكل واضح ليس على نحو مشابه للخطوط الرئيسية الغالبة على المقام. وهي تبرز القيمة المطلقة للحلقات الجديدة. وتشير إلى أن جميع المتناقضات ماهي إلا جزئيات وتفاصيل للخط الرئيسي – هي نقطة في بحر. ولا تغير أي شيء بشكل أساسي، ولكنها فقط تحدد، وتوعد بشيء ما، وأحيانا تخدع بسهولة – وعلى نحو أدق، تحاول خداع القارئ – المتفرج. والشيء الرئيسي أنها تشير إلى حتمية هذا الاحتمال أو ذاك لتطور الأحداث. والجدير بالملاحظة، أن المقتطفات التي من شأنها أن تبرز، تظهر عادة في الجنس الدرامي ليس بشكل تلقائي – ذاتي، أو مفاجئ، أو مرة واحدة، وإنما تظهر بشكل دوري طوال الحدث، أو بالقرب من البداية – لكي لا تُتنتج أوهاما. وكأن هذه المقتطفات قد ولدت أثناء تطور الحدث كنتائج ملموسة له. في الجزء الأول من «روميو وجولييت» يوجد أيضا ميركوتسيو المرح والمرضعة الشجاعة. ولكن بعد ذلك يبعدون واحدا منهما من الحدث بأكثر الطرق تراجيدية، أما الأخرى فتبتعد إلى الخلفية – هناك يصبح من الصعب الوصول إليها. هاملت أيضا يسخر ويقلد المجنون بخفة ظل حاذقة للغاية ولكن في البداية فقط، أما بعد ذلك فهو يتبادل الحديث مع أوزريك في تهكم ثم يصادف حفاري القبور بعدها. السخرية الهاملتية تسكب المياه على طاحونة التأملات التراجيدية، وكذلك الأحداث التراجيدية. وهذا ما يحدث أيضا في الكوميديا، يمكن أن تظهر باستمرار مشاهد محزنة، بل وحتى التذمرات والتشكيات الدراماتيكية المبالغ فيها جدا للأبطال الذين يقاسون التعاسة – مثلما على سبيل المثال في «البخيل» لموليير، إلا أن هذه النوتات لا يمكنها، ولا تستلزم أيضا هز التنغيم الكوميدي العام. وفي واقع الأمر، يمكن تقسيم الأعمال ذات الجنسية الدرامية إلى مجموعتين. الأولى – نصوص مسرحية، حيث توجد اللحظات البارزة، بل وحتى القوية، على اعتبار أنها ضرورية من أجل الإحساس بالتناقضات الداخلية، الديناميكية، والتنوع في حدود جنس درامي واحد. في تلك النصوص المسرحية تجري عملية كما لو أنها عملية صراع الجنس الدرامي مع مقتطفات من الأجناس الدرامية الأخرى. والنوع الدرامي كما لو كان يثبت حقه، أو يدافع عن رأيه بالذات في نظرته إلى العالم. يدافع عن إمكانية احتوائه على جزئيات من الأجناس الدرامية الأخرى على أساس قوانين الأجزاء «الأحدث» الخاضعة والقابلة للتحول، في الدرجات والمراحل الفكرية للنص المسرحي. المجموعة الثانية – نصوص مسرحية حيث لا توجد المقتطفات البارزة. مثلما على سبيل المثال في تراجيديات راسين. فهي مكتوبة بقصد السعي إلى الوحدة المطلقة، الكاملة، المترادفة مع تكرارية الجنس الدرامي – ولكنها لم تعد، مع ذلك التوجس الخفي من ذلك التوحد، تأتي بنتيجة، وراحت تعمل بوسائل أقل راديكالية. الجنس الدرامي هنا يبدو وكأنه محبوس في غرفة مقفلة

- ليس هناك أي نموذج لجنس درامي آخر يدق عليه الباب، وهو من ناحيته لا يترك أي أثر أو انفعال. ومن ثم يبدأون في عملية حماية الحماسة، وبغيرة شديدة، من خفة الظل والعكس. والكلاسيكية توصل فكرة الجنس الدرامي إلى نقطة الذروة، ولكنها بذلك تجردها في الوقت نفسه من شذى غموضها، وتوترات «التحول» الدوري للمقام. القارىء والمتفرج، بالطبع، ينفعلان عندما يراقبان التطور التراجيدي للأحداث. وينفعلان عندما يشعران باستمالة أي «تبدلات» في الأجناس الدرامية الأخرى مع الاتجاه الآخر الذي يجري. ولكن من ناحية أخرى، فهذا الإحساس بانعدام الأمل يسير متأبطا ذراع الإحساس بالراحة والتراخي. هنا لا داعي للحذر، هنا لا يترصدون لأية أحداث هزلية، هنا لا يثيرون أية أوهام لـ «لتقلبات المصير». في التراجيديا الكلاسيكية المنطقية تقوم قوانين الجنس الدرامي بدور القدر اللحوح المتسلط الذي يخضع كل شيء، والذي لا يمكن لأحد أن يفعل شيئا ضده حتى ولو بطعنة ضعيفة.

كوميديا موليير الراقية - «الموحش»، «دون جوان»، «طرطوف» - تناضل ضد هذه الحالة ساعية بشكل أو بآخر إلى تحرير الجنس الدرامي. وكوميديات موليير تستوعب في داخلها، وتوطن على طريقتها في نبرة تراجيدية - بشكل جزئي مثلما تتضمن تراجيديات شكسبير في داخلها ببساطة على العنصر الكوميدي. هذه النصوص المسرحية تدلل على أن التراجيدي والهزلي لا ينفيان بعضهما البعض. وهما يوجدان في علاقة دياليكتيكية معقدة. ومن الممكن الاعتراف بأن التراجيديا توجد - هناك حيث كل شيء في عمومه وكليته حزينا وكئيبا على الرغم من إمكانية وجود الهزلي بصورة «موضعية». التراجيديا - هناك حيث توجد حماسة اكتشاف النطاق الحقيقي للتنافر والصدام. ولكن الكوميديا - ليس من الضروري إطلاقا أن توجد هناك حيث المرح والتسلية والضحك. في الكوميديا، من الممكن تماما أن توجد العديد من «الأماكن» المنطوية على هزل شديد للغاية، ولكنها في عمومها وكليتها تكون على أية حال لوحة كئيبة للغاية. يبدو الأمر وكأنك تضحك أكبر فترة من الوقت، لكن لو تتأمل - من المدهش على سبيل المثال أنه في التراجيديا يوجد كشف تدريجي لجميع أعماق التعاسة والخلاف - توجد كوميديا، بالطبع، حيث التسلية والمرح. ولكن مع الكوميديات السوداء التي يوجد بها هزل، نجد أن تلك النصوص المسرحية ترتبط ببعضها البعض بمبدأ التناقض. مسلٍ وهزلي - شبه تناقض تقريبا.

ولذا فـ «الموحش» لموليير تقف أبعد بكثير من «مدرسة الوشايات» لشريدان، وأقرب إلى «هاملت». ولذا أيضا فبين «زواج فيجارو» و«أخطاء ليلة واحدة» لجولد سميث - مسافة محسوسة للغاية. كما أن جميع الكوميديات الروسية العظيمة للقرن التاسع عشر تختلف عن

سابقاتها في القرن الثامن عشر ككوميديات سوداء - بأن الأولى مرحة. والتعريف الشهير لجوجول - «الضحك من خلال البكاء» - ليس دقيقاً تماما. الأصح أن تقول، «الدموع من خلال الضحك». إذ إن «صاحب العقل يشقى» و«العرس» تولد ضحك الناس الذين اكتشفوا لأنفسهم في جوهر الضحك والهزل يأساً لا يقهر، وحزناً وقنوطاً. عندما نضحك - كأننا آنذاك نقوّم فنية التنافر والتعارض بهذا الرد فعل من الضحك - نتحرك صوب النهاية الأليمة، نحو الكارثة. وعموما فبالنسبة للنصوص المسرحية ذات الجنس الدرامي تكون النهاية في غاية الأهمية والخطورة. فهي لا يمكن أن تكون «مفتوحة». ويجب أن تفصح بمنطق جيد، وتجمل وتعمم فهم وإدراك المؤلف للوجود - الحياة -، وتصبح آخر كلمة حول طبيعة نوعية الصراع الذي لا يقهر أو التجانس والوفاق.

مقام النهاية - صوت المؤلف

عندما يكون الجنس الدرامي في عنفوان قوته وسعيه إلى ذروة التحقق، يتطابق موضوع ومقام النهاية كليا، كقاعدة، مع الخط الرئيسي للحدث. ففي التراجيديات تحدث كارثة تراجيدية، ويتنامى الإحساس بأقسى مشاعر عدم كمال العالم والإنسان إلى ذروته. على سبيل المثال كما عند سوفوكليس وأسخيلوس. وفي وقت متأخر، عندما يحاول الجنس الدرامي في الوقت نفسه أن يحافظ على وحدته، ولا يدفع بها إلى الألحان الأخيرة المفجعة، يظهر «المطلق» المزعوم من «الماكينة»، البعض يعتبر إبداعات يوربيدس في هذا المجال إحدى أشكال التعطش إلى الحل الوسط الذي يقدم نهاية شيخوخة الجنس الدرامي. وانحطاطه. ومع هذا ففي ذلك حكمة خاصة - فهم النسبية، ولو حتى النسبية القليلة لأية نتيجة للموضوع. وإذا كان الموضوع مصطنع إلى درجة ملموسة، فهذا أمر بديهي. وهو لا يلغي كل تلك اللوحة الخاصة بتنافر وتناقض الوجود، التي كانت قد رسمت في النص المسرحي، ولكنه يعبر فقط عن حلم المؤلف في كيفية تصحيح وتعديل تلك اللوحة.

النهاية - الخاتمة الجبارة للأحداث، حيث الحضور الناضج، بشكل أو بآخر، لإرادة المؤلف أقوى بكثير من التطور المتواصل للحدث. النهاية، بالطبع، تتمم مصائر الأبطال، تقدم حل الأحداث وختامها - تسرد ما انتهت إليه القصة كلها. ولكن بدرجة أقل تعتبر النهاية - هي حكم المؤلف على العالم الذي يمكن أن يكون إما قد لعن وندب عليه، وإما قد تم التغني والتغزل به، أو العفو عنه والغفران له. تقويم المؤلف هذا للإمكانات المحتملة للعالم يكون أفضل أو أسوأ مما تم افتراضه منذ البداية. وهذا اختيار لشكل النتيجة أو الإجمالي المطلوب.

«السيد» لبيير كورني - تراجيديا بنهاية موفقة. هنا تقدم للعالم ملاينة واضحة. ولكنها ليست شديدة إلى تلك الدرجة التي يمكنها أن تخلص من الإحساس بالتوتر التراجيدي. معنى ذلك أن ظاهرة «القوة الثالثة» للسلطة المطلقة

المثقفة، على أية حال، لا تفهم كعامل منسق - مهرمن - عام على الإطلاق. الأبطال أنفسهم، في عالمهم الخاص، غير قادرين على حل خلافاتهم بإيجاد حلول وسط مناسبة. إضافة إلى ذلك أيضا إيجاد تبريرات لائقة لهذه الحلول الوسط. وهذا، وهو الأمر الأهم، ما يجب أن يمزق - يعذب - المتلقي. إن أبطال الكوميديا السوداء «طرطوف» يظهرون في مواقف مشابهة. فقد، بدا أنهم انتصروا عندما كشفوا في نهاية الأمر النفاق بصورة واضحة. واعتقدوا أن الأمر كله يتلخص في العثور على حقيقة الإنسان وإظهارها، وفي أن يؤمن المخطئون والغاوون بهذه الحقيقة. في ذلك الأمر يتم استهلاك جميع القوى. ولكن يتضح أن إدراكهم غير كاف لتغيير أي شيء من عالم مؤتمت. والحقيقة بالنسبة لدائرة الشخصيات ليست بعد هي الحقيقة المطلقة بالنسبة للجميع. ويمكن القول إن الأبطال يخسرون مع طرطوف في المعركة، وليسوا هم أنفسهم في حالة تسمح لهم بتوبيخه. يجب أن يظهر رسول الملك لكي تقال الكلمة الأخيرة - الفاصلة - في صالح الأبرياء والمظلومين. ومرة أخرى تفشل المبادرة الخاصة من دون مساعدة النظام الملكي، من دون القوة الرسمية. الصراع يحل ليس من داخل عالم الأبطال، ولكن من مكان ما من الخارج. ذلك يعني أن عالم الأبطال غير كاف في حد ذاته، ولا يمتلك الطاقة اللازمة لتنسيق وهرمنة ما يحدث.

تلك النهايات «الموفقة» تنطوي على أحزان أكبر بكثير من سعادة الحلول الميلودرامية وهنائها. هناك، كقاعدة، عالم الأبطال الخاص نفسه، يبحث في نفسه عن القوى الإيجابية من أجل حل الموقف. في نص إدوارد بولفير - ليتون «سيدة من ليون، أو حب وكبرياء» (1838م)، يعود البطل بعد طول غياب، بالضبط في تلك اللحظة عندما يحين منع الزواج البغيض الذي يهدد البطلة. وفي نص برنارد شو «تلميذ الشيطان» تصل المساعدة في الوقت المناسب إلى البطل، وفقد في ذلك الوقت عندما يكون قد وقف تحت المشنقة والأنشوطة في رقبته. تلك الأساليب -ليست على الإطلاق مجرد استدرار رخيص للتوتر والقلق. هنا من المهم توضيح أن «المطالبات» بالنهاية السعيدة، وغير السعيدة تتعايش مدافعة في الوقت نفسه وبشكل متزامن عن حقها في التجسيد. عندئذ يتضح أن الاحتمال غير السعيد كما لو أنه يستفز ويدفع على تنشيط الاحتمال السعيد. وبمجرد أن تصبح الكارثة تقريبا حتمية ولا مفر منها، تقوم القوى الخيرة بضربتها. إلى ذلك الحين تبدو تلك القوى نائمة أو مخدرة - هي لا تستيقظ من دون حدث مضاد ملائم وجدير. مثل تلك الحلول لا تظهر ضعف الشر بذلك القدر الذي تحدد به «سيكولوجيا» وإيقاع ظهور الخير. فكم من الصعب عليه أن يكون هكذا وظيفيا.

من عملية التزامن ينشأ مدخل إلى التتابع - إلى الحل، وفي تقدم ما وازدياد سوف تعمل مصادر الجيد والسيىء على إظهار إمكاناتها. فالمساعدة القريبة والحاسمة يمكن - وأسفاه - أن تصل في وقتها، ولكن بعد الإعدام الذي يكون

قد تم تنفيذه. ومن الممكن أن يعود الحبيب بعد انتهاء عقد قران خطيبته على آخر. ففي نص بيرس بيش شيللي «تشانتشي» تعزم الفتاة الشابة الفاضلة، التعيسة، بياتريتشا على قتل أبيها الشرير الفظيع، المستبد. وبعد دقيقة من تنفيذ عملية القتل هذه يظهر حماة القانون الذين قرروا في نهاية الأمر القبض على المجرم. (في الميلودراما نبهوا إلى مبادرة البطلة وإن كان لنصف ثانية) وبدلا من تشانتشي يلقون القبض على بياتريتشا التي يقومون بإعدامها بعد ذلك متهمين إياها بقتل الأب. في هذا التقاطع من الاحتمالات المتوقعة والتي تحققت بالفعل - السخرية القاسية للمؤلف، وأكمل وأتم عملية تجريد للكون كله من الاحترام والمجد. ولكن بموت بياتريتشا البشع، وبشكل متناقض ظاهريا يبدو كما لو أن شيللي ينتقم من العالم متهما الدولة والحظ بالجور وسفك الدماء إلى حد التطرف. وهناك الجملة الشائعة جدا: «المؤلف قتل بطله / بطلته». ولكن من المهم جدا أيضا بأيدي من فعل ذلك - بأيدي مجرم متمرس في الإجرام، صديق، حبيب / حبيبة، الدولة، مصادفة مهلكة... وهكذا. ذلك يتوقف على مدى يأس المؤلف من الواقع - ودرجة مشاطرته ليس فقط للمقتول، ولكن لمن يقتل أيضا (أو أن غياب أية مشاطرة هو ما يبسط على الفور مجمل التركيبة الفنية). فإذا كان ياجو هو الذي قتل ديدمونة، لما كانت هناك تراجيديا، وإنما ظهر ما يسمى بـ «الدراما الدموية».

درجة المشاطرة يمكن أن تكون معلنة في النهاية ولا تأتي على مستوى الحدث، وإنما منطوقة عن طريق الملاحظات والردود. وهذه الملاحظات والردود قادرة على التأثير الشديد من أجل التحكم في الإدراك، وكأنها مجبرة مهما كان الأمر على التحديد - مع من يجب على المتلقي أن يتحد ذهنيا، وكيف تتم معالجة الماضي، وإلى أي جنس درامي تنتسب. بعد مشهد انشقاق الأرض وابتلاعها لدون جوان، نرى سجاناريل وقد أخذ يقرأ في أثره شعرا غيبيا: «آه، مرتبي، مرتبي!» هذه النهاية الفريدة من نوعها والتي ترغمنا بقوة مضاعفة على مشاطرة دون جوان، هي بالنسبة للبطل كئيبة على وجه الخصوص، وكوميدية أيضا. الفاجر قد عوقب - ولكن الذين بقوا أحياء يشعرون بالخزي والعار، ولكن بدلا من سجاناريل ببراجماتيته الشحيحة كان من الممكن أن يدخل أحد ما آخر كممثل لذلك العالم الذي مازالت الأرض تحمله.. على سبيل المثال، السيدة الفيرا، والأفضل أخوها الذي أنقذه دون جوان منذ قليل. أو ربما كان دخول التماثيل من شأنه أن ينهي الأمر. ولكن لا يوجد ذلك العطف تجاه دون جوان والذي يمكنه إرغام موليير على إخراج غيظه في الأحياء لكي يكللهم بالخزي والعار في رشاقة وكياسة، وفي لمح البصر.

وفي كوميديا أخرى سوداء «صاحب العقل يشقى» تبدو أيضا صيحة فاموسوف «آه، ماذا يمكن أن نقول للأميرة ماريا ألكساندروفنا»! كما لو كانت تبرز عدم التناسق التراجيدي في روح

كل من تشاتسكي وصوفيا. إلا أن خط فاموسوف كله هنا مليء بالحوادث بدرجة ما، وقائم بذاته مما يجعل كل ما يحدث ليس مجرد عملية «هبوط»، وإنما عملية انتقال إلى مقام آخر. في المقدمة يخرج، مرة أخرى، الناس الذين يعرفون كيف يعيشون، ومن ثم تنتهي آلام وعذابات تشاتسكي. تشغلهم مشاكل أكثر تفاهة – تشغلهم بشكل وبائي معد للغاية. إن جريبويدوف، عن طريق ردود وملاحظات فاموسوف، كما لو كان يعرقل الإحساس بالتنافر الكامل، وإدراك أن كل الفظاعة – في قوة الدفع الذاتي للحياة المتواصلة، وفي عاداتها التي لا يمكن لأي شيء أن يبطلها ويلغيها. وفي أن هذه الحياة تمتلك حق الوجود بغض النظر عن أن تشاتسكي ليس له فيها مكان. وإدراك كل ذلك – وفهم أنه بدلا من البغض والكراهية فإن عالم فاموسوف يحصل منا على الرفق والتسامح. لأنه من الممكن جدا أن يكون جديرا تماما بالرفق والتسامح.

إن عدم إمكانية تمركز الحزن والضحك كليا في خندق ممثل ما واحد تنهي وتتوج نص مسرحية جريبويدوف، لأن خلف كل واحد منهما – الحزن والضحك – يقف عالم بأكمله. والإحساس بالحزن المتفجر بصورة لا داعي لها ينهي «العاصفة» لشكسبير عندما يتركز في أشعار النهاية. من دون شك، فكل شيء قد تم بشكل جيد، أقيم العدل والأبطال ينطلقون لاستقبال الحياة السعيدة. ومع ذلك فكل جوهر دراما الباروك يكمن في أن الجنس الدرامي كما لو أنه يشعر بنقيصته الذاتية. وهي تتلخص في العجز، بشكل عضوي كبير، في الابتكار الحر وتطوير الخط مع حل موفق للصراع. وفي دراما الباروك، وعلى العكس من كوميديا عصر النهضة المبكر، يظهر إحساس بأنه كلما كان السعي إلى حل موفق أقوى، قل اليقين في وجوده بالعالم الواقعي. إن الجنس الدرامي، وكأنه، يرى بنفسه أنه عندما يصمم نموذجا للعام، فهذا النموذج يختلف كثيرا عن الأصل، الفنتازيا هنا منطقية ومطلوبة – إذا كانت الحياة لا تستطيع ذلك (ونحن نعرف أنها لا تستطيع)، فعلى الأقل نصنع نحن تلك المواقف ونقوم بحلها. هكذا «يقول» الجنس الدرامي لنفسه. والنبرة السوداوية للنهاية تظهر لأنه تأتي لحظة الافتراق مع النموذج الفني المصطنع، ومع جلسة الهارمونيا والتجانس، والتي من الواضح أنها لا تمتلك استمرارية في فراغ الحياة العادي.

دراما الباروك الشكسبيرية تحصل، من ناحية، على مشاعر مريحة نفسيا. لأن جميع التقلبات التي ليس لها مثيل في الحياة العادية مع النهايات السعيدة مقنعة جدا ومغرية. وهي ترتكز على التعطش والحاجة لكي تشحن بالذات في ذلك الواقع. ومن ناحية أخرى، من الصعب ألا نبدأ الشك في هشاشة وضعف اللوحة المتخيلة. من الصعب ألا نرى كيف يحافظ المؤلف بعناية على كمالها الجمالي – الاستيطيقي – والأسلوبي، وعلى انعزالها وانطوائها على نفسها.

عموما، فأي جنس درامي يحصل على مشاعر الراحة – وبالذات الراحة، وليس الاسترخاء والنوم. الراحة تتلخص في أنه من أجل تفسير العالم لا يجب إفزاع المتلقي من هذا التفسير، لكي يكون المتلقي قادراً على تقبل أكثر اكتشافات الجنس الدرامي من حيث الرعب والسعادة – بإلهام ومن دون خوف، ومن أجل أن يظهر، إذا كان ذلك ضروريا، الإحساس باليقين في عدم إمكانية التغلب على الصراعات – ولكن إطلاقا ليس إحساس عدم الثقة المرهق الذي يقبض النفس من كل ما هو موجود.

ليست مصادفة أن التراجيديا تفترض وتطرح عملية التطهير. ففي التراجيديا، البطل – ونحن أيضا – يجب أن نعيش الإحساس بعدم الهارمونية والتنافر الكلي، ويجب المرور بذلك الإحساس. وليفرغ العالم على خشبة المسرح كل ما هو فظيع – ولكن فقط من الأفضل، من دون بقايا لكي نعرف أن أسوأ شيء لا يتوارى في مكان ما في مكمن، وإنما هنا، أمامنا، البطل «يأخذ على عاتقه» الضربة التي يجب أن يتلقاها على أية حال أحد ما آخر. والضربة حتمية لا مفر منها، ولكن في مقابل ذلك يكون البطل في عمق مركز الكون. لأن التراجيديا تكشف أن في مركز الكون – دائما الصراعات المفجعة التي تفتت القلب. وأن تكون بطلها – تكون رمز الإنسانية، تكون الأول، والمتفرد. إن حماسة الانفعال بالأحداث ذات النطاق الضخم، والنهاية التي تضع نقطة لهذه الانفعالات، والتي توصلها إلى الدرجة القصوى التي تبدو كاملة ووافية – هي أشياء ضرورة للتطهير، وللتنوير والتخفيف. لا يجب أن يكون هناك أسف أو حزن حقيقيين على الأبطال التراجيديين الشهداء، حيث إنهم سيكونون موضع العطف والشفقة إذا ما بقوا أحياء. هل من الممكن طويلا احتمال هذه العذابات والآلام؟ ألا يستحقون انتهاء الآلام، والنهاية المطلقة للمعاناة؟ وهل هم في حاجة إلى تقدير ما، أو وسام ما. لا داعي لأي شيء، فليس هناك ما يعجبهم أو يرضيهم. إنهم يستطيعون بشكل كامل وتام وملائم أن يحققوا أنفسهم فقط في المواقف التراجيدية. ولا يوجد لديهم، ولا يفترض أن يوجد طريق آخر.

وعلى العكس، فكل راحة الميلودراما ليست إطلاقا في التوجه الأحادي القاطع والنهائي للحدث، وإنما في الحلم باصطياد أرنبيين في وقت واحد، بنموذجين لجنسين دراميين و«تقاطعهما». فمن ناحية، يوجد تعطش إلى الارتباط بالكوارث والعذابات – ولكن ليس إلى حد المصير الأليم بتضمين كل شيء (كما في التراجيديا)، وإنما بـ «الاستثناء»، تاركة لنفسها إمكانية العودة إلى العالم الاعتيادي الساذج. هنا يظهر الشعور المدغدغ الخاص بعملية الإفلات الموفق من الخطر، ومقدرة الظهور فجأة من خضم عواصف الحياة. هنا يتملقون الإنسان عندما يهدون إليه دور المنتصر. إن البطل التراجيدي ليس بحاجة إلى تلك الأدوار – يحسدونه على مصائبه مدركين قيمتها العظيمة

وعدم إمكانية توافرها لكل واحد ولأي واحد. التراجيديا تسحب وتصادر مفهوم النجاح في الحياة من قائمة المقاييس التي تنطبق على ما يميز نطاق الهوية الشخصية واستحقاقها. والميلودراما تناضل من أجل عالم خال من السآمة والملل. وليكن ما يكون من الكوارث والحرمان والآلام. فمهما كان لا يجب أن يعيش الأبطال في ملل - وأن يرتبط المتلقون بذلك الوجود الواضح فحسب.

يبدو أنه من البديهي أن الكوميديا المرحة يجب أن تشحن الجو بالراحة. إلا أن صنع الإحساس بالراحة هنا ليس بالأمر السهل - علينا أن نصنع مصدرا إيجابيا مفهوما للجميع، وأن نحرص على يقينيته وإقناعه، وطبيعة كماله، ونهايته. إذ إنه من المفهوم أن التراجيديا يجب أن تنتهي بمقتضى أسباب معينة واضحة. ولكن لماذا بشكل عام يجب إنهاء الموضوع المرح، إذا كان كل شيء فيه جيد بهذا الشكل؟ التراجيديا تنتهي نظرا لأن القوى الروحية والبدنية للأبطال ليست أبدية. والكوميديا تنتهي نظرا لأن الهارمونية التي أقاموها تضايق وتجهد بشدة، طوال الوقت، الديناميكية اللانهائية - يمكن أن تنهار. والرهبة الخفية تفقد الهارمونية عندما تبدأ التمعن فيها وتأملها، وتضع البناء الشائع شرطا للكوميديا المرحة. وكقاعدة، فهذا هو الطريق المرح إلى الهارمونية المرحة. وتلك الرغبة لـ «الاحتفال بالعيد» هي بداية مرحلة حياتية ما محددة لن تكون أبدا وسيلة للكوميديا. ودع الجميع يفرحون، يتحامقون، وفي النهاية سوف يتجمدون في خضم السعادة التي حصلوا عليها للتو. ويكفي أن الجنس الدرامي ليست لديه إجابة عن ما بعد ذلك. هل سيحافظ الأبطال على السعادة، ألن يسأمونها، ألن تنهار تحت ضربات القدر؟ إذ إن هناك العديد من المخاطر. مثل الوجود الدائم للموت، لأنه في الكوميديا «فيما بعد - هو الصمت».

عندما يكتب بومارشيه «زواج فيجارو» بعد «الحذر عديم الجدوى»، وبعد ذلك «الأم المذنبة أو طرطوف الثاني» يصبح من الواضح فورا مدى الصعوبة التي تقف أمام الأبطال، وأمام عالم الكوميديا كله، في عدم فقدان حماستهم وتوقدهم، وبداياتهم المضيئة. وطاقة التمسك بالمواقف الحياتية اليقينية. إن الحفاظ على الهارمونيا وإعادة إنتاجها أمر يصير أكثر ثقلا وكآبة. فالثنائيات المثالية السابقة تكف عن الظهور كما كانت في حالتها السابقة، أو تفقد فعليا بريقها. وعلى خشبة المسرح يجب أن تدخل الثنائيات الجديدة التي تتعهد أن تكون مثالية. إلا أن إمكانية أخذ نفس جديد تصير أصعب - في النص المسرحي الثالث يتضح أن أمتع وأهم بطل ليس الشخصية «الإيجابية»، وإنما الميجور بيجيارس، طرطوف الثاني. الكوميديا الأولى - كانت لعبة بارعة. والكوميديا الثانية - كانت اقتران الاضطراب المحموم لـ «يوم مجنون» بالدفاع الحماسي عن الشرف. والكوميديا الثالثة - كانت الصراع مع آثام الماضي، والصراع من أجل «البقاء الأخلاقي»، و«الصداقة ضد المحتال».

الكوميديا السوداء لا تعطي المتلقي إمكانية رصد وتأمل جبل الجثث في النهاية. وتترك الأبطال يواصلون الحياة، ولكن بالذات من أجل الإحساس بأن وجودهم لن يدخل إلى مجراه الطبيعي. سوف يظلون أحياء من أجل أن يشعروا - أنهم لا يستطيعون الاستمرار في الحياة، وأنهم أيضا لا يستطيعون الفعل والتأثير. لا يزال هناك وقت بعد، ولكن «النابض» الروحي الداخلي قد كف عن العمل. وهكذا يظهر المشهد الأخرس المشهور لـ «المفتش العام». من الممكن أن يكون المأزق الحياتي مسليا على طريقته. كما أن عملية «الإدراك» المؤلمة من الممكن أن تكون هزلية للغاية. وهذا ليس من الضروري أن يكون بأسلوب «التناقض»، ولكن أن تكون اللعبة في انسجام وتناغم. وكان من الممكن ألا يكون كل ذلك هزليا ومضحكا لو لم يكن محزنا وكئيبا إلى هذا الحد.

ولعل الكوميديا السوداء بالذات تتلاصق تماما مع الحد الذي يكف بعده الجنس الدرامي أن يصبح جنسا دراميا. وليس مصادفة أن تشيخوف كان يحب تسمية نصوصه المسرحية كوميديات على وجه التحديد، على الرغم أنه مع مثل تلك النجاحات يمكن أن نطلق عليها أيضا تراجيديات. ولكن في الكوميديا الدرامية السوداء في الوقت الحاضر لم يفقد بعد تطابق كل نبرة مع نفسها. الهزلي فيها - هزليا، الكئيب - كئيبا، المرح - مرحا، اليأس - يأسا وليس أي شيء آخر، والنوتات المنخفضة والحماس يتواجدان معا ويمتلكان الحق في ألا ينسكبان في آن واحد، وألا يحاولا نفي بعضهما البعض. نعم، من الجائز تماما أن الاستنتاج الوارد في نفس تلك الكلمات والمواقف والأفعال يمكن الإحساس به على الفور وفي الوقت نفسه. إلا أنه يوجد صفاء، وفصل لكل لون على حدة. وهناك يقين بأنه يوجد لكل تلك الألوان مسميات معروفة محددة. ففي نهاية «لكل حكيم هفوة» لأستروفسكي، يكون الإيقاع والحالة النفسية في غاية التعقيد، ولا يمكن تحديدهما. في الماضي كان جلوموف يمرر مغامراته عابثا ومداعبا من خلال نجاحه وتوفيقه، من خلال تفوقه، ومن خلال ازدواجيته ونفاقه. الآن همد عن كل ذلك، وفي الوقت نفسه اشتعل بأحاسيس جديدة حادة - يعبث من خلال وضوحه شبه الاضطراري، من خلال الفشل والإحباط، ومن غياب الإحساس بالانسحاق الموجود. أما الآخرون فيتلقون فكرة جلوموف عن نفسه بحيرة وذهول، وأيضا بتبصر، وغضب، وبقسوة مستهترة وقحة. يحدث إخراج عملي - متيبس من حيث الإيقاع، غاية في التقشف والزهد للبطل من دائرة معارفه والمحيطين به - قبل ذلك جرت عملية إدخال هوجاء، مليئة بشعور النشاط والخفة، فيها حماية ساذجة للبطل في وظيفة «الشخص التابع له». وفي النهاية، يظهر أفق محتمل لعودة البطل، وتكرار إدخاله في دائرته. وشجار علية القوم لا يتناقض مع الإيقاع القريب من حديث الاختصاصيين - البراجماتيين، الذين لا يريدون السماح بانصراف شريك قوي مهما كان ثرثارا وقحا.

ولكن كيف يسير الأمر بالنسبة للصفات النسبية المعقدة للنهاية، على سبيل المثال في «الشقيقات الثلاث»! تشيبوتيكين يخبر أولجا، هامسا في أذنها، بموت البارون – لماذا، إذا كان الأمر صعباً عليه، إذا كان متعبا ومحسورا وليست لديه قوة على احتمال ذلك؟ أم حقا تبذل آخر القوى لكي لا «تتشتت» نقطة الذروة الحماسية؟ وربما تتعلق ملاحظة «أليس سيان!» – الخاصة بالقتيل، برد فعل الشقيقات؟ لماذا «فليبكين قليلا»؟ بمعنى أنه يمكن أن يبكين، ويمكن ألا يبكين؟ وهذا بالفعل ما يحدث. ماذا تعني الكلمات الأخيرة، المونولوج الختامي، التعطش إلى الحياة، انبعاث غريزة مواصلة الوجود واستمراريته؟ أم أن ذلك هو حقا مجرد محاولات لإقناع النفس. فالشقيقات في واقع الأمر كن يشعرن بما حدث للبارون الأمر الذي جعلهن يمتن أيضا بدرجة ما. وأن موت توزينباخ – أحد رموز انعدام حياتهن. فلماذا نسمع في الكلمات – التفاؤل، الثبات، الإملاء المسبق للكلمات التي يجب أن تنقش على أضرحتهن؟ هل تقنع كل واحدة منهن الأخرى... إما الحياة أو عدم الخوف من الموت؟ – لا أستطيع الإجابة إلا بآخر ملاحظة «لو أننا ندري، لو أننا ندري»، وذلك نظرا لأنه من الصعب الانفصال عن الإحساس بأن جميع الاحتمالات والتفسيرات غير مجدية أو دقيقة. ومهما قلنا أو فكرنا فالأمر سيان، لن نصل إلى جوهر الموضوع. من الممكن التفسير والتأويل طويلا، ولكن على أية حال لن نصل لا من بعيد ولا من قريب إلى المعنى الموجود.

وبشكل عام، فمن مع من يتحدث؟ ومن يقول كل ذلك لمن، ومن أجل أي شيء يقوله؟ لماذا لا يعمل أي أحد أي شيء؟ لماذا لا يناقشون الموت نفسه بدلا من الدخول سريعا إلى مناقشات عامة؟ حقا! فقد وجدوا الزمان والمكان المناسبين للفلسفة! ولكن حسنا، لنفترض جدلا أن نص «الشقيقات الثلاث» قد سمي دراما. ولكن «النورس» – كوميديا، فيها تثبيت وتقرير للموت، للانتحار الذي اندس في الأحاديث عن هذا وذاك، وعند هذا الحد يتم كل شيء وينتهي. مثل تلك النهايات خارج الكتابة المسرحية ذات الجنس الدرامي تكون إحساسا بالانعدام العام والمليء بالراحة. وتبقى جميع المشاعر غير معبر عنها حتى النهاية، وغير واضحة أو مفسرة، ومحبوسة ومحاصرة في الداخل بشكل أقوى حتى مما كانت عليه في البداية. فلا أحد يبدي أفكارا حول أي شيء بشكل مباشر وصريح. والعملية الدرامية لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تنسكب من تلقاء نفسها، و«تنفجر» بإيقاع جبار. ويبقى انطباع عدم إمكانية تحقيق الصراعات في الأحداث وفي ردود أفعال الشخصيات. حتى يبدو وكأن الحدث التراجيدي الخارق للعادة غير مرئي أو ملاحظ، ولم «يتمكن» منه الأبطال، بل وفقدوه على المستوى الروحي. عندئذ يجب على المتفرج أن يقوم باسترداد كل ما فقد ويمرره من خلال نفسه. وانتظار العون من الشخصيات أمر غير ذي جدوى – سوف يكون رد فعلهم «ليس منهم، ولا من عالمهم». وذلك مثلما لو أن عطيلاً عندما خنق ديدمونة، كان

بإمكانه أن يقول: «آه، من المحتمل أنه في هذه الـ... أفريقيا الآن حرارة شديدة - شيء فظيع!».

العلاقات المتبادلة في الفراغ والزمن

الجنس الدرامي يضع لوحة لذلك العالم الذي مازال يوجد فيه بعد الحد الأدنى من العلاقات الطبيعية المتبادلة. ومن البديهي أن الشخصيات يمكنها أن تتخاصم وتتشاجر، وتستخف ببعضها البعض وتهين، وتصب اللعنات. ولكنها، كقاعدة، تستمع، بل تصغي إلى بعضها البعض - وإن كانت لا تسمع دائما بشكل صحيح لكي لا تفهم أو تفسر. ومع ذلك يوجد إرشاد أولي بأنه من الضروري أن تسمع المتحدث، وأنه من الضروري أن تتحدث متوجها إلى أحد ما - إلى الشخصية الأخرى، إلى المتفرج، إلى النفس ذاتها. وليس مصادفة أن النص ذا الجنس الدرامي التقليدي يسجل بشكل خاص الملاحظات في جانب - وهذا استثناء من القاعدة. حيث إن ذلك الجزء من النص قد تم وضعه عمدا ليس من أجل شخصية بعينها، وإنما إما للمتفرج بشكل واضح وصريح، وإما من أجل التسجيل الذي لابد منه في الواقع الموضوعي بهدف التصوير في الفراغ الخارجي.

في الجنس الدرامي، من المهم للإنسان ما يقوله بالذات - مهم على الدوام. ومهم أيضا حماس التظاهر الذاتي الفردي - حماس الخروج إلى خارج الأفكار الداخلية والمعايشة. في الحقيقة يبدو العالم الداخلي عموما كما لو أنه قد كف لفترة زمنية ما عن الوجود النشط في مواجهة العالم الخارجي. هذا التقسيم لم يعد صعبا أو ذا أهمية خاصة. المسرح ليس في حاجة إليه. أهم شيء على الإطلاق أنه من الضروري أن يتم التعبير والإفصاح عن كل شيء - حتى وإن كان بصورة مدوية، حتى لو «ترك في حفظ» الفراغ المحيط وساكنيه. لأن هذا الفراغ وسكانه - هو الحقيقة الموضوعية الوحيدة للعالم المسرحي.

عند صياغة جماليات «التيارات الغائصة»، أي ما بين السطور، يكف الفن الدرامي المسرحي عن الاعتراف بأن العالم المسرحي البديهي - الواقعي - المعطى لنا من خلال أحاسيس مباشرة - هو منظومة واحدة عامة وشاملة، مفتوحة من أجل الإدراك المباشر. الجنس الدرامي يسعى لفتح ثغرة، والدخول إلى جوهر الكون، وعرض نموذج لهذا الجوهر. أما ما هو خارج الجنس الدرامي فيعطى مفهوما بأن الموضوع الرئيسي للدراما - هو إخفاء الجوهر، العجز الحتمي للواقعية عن تقديم هذا الجوهر بصورة مباشرة في شكل جاهز محسوب، وخال من المصادفة. ولكن ماذا ترون بخصوص التصرف مع ملاحظة «وفي باريس طرت في منطاد»؟ ماذا تخص؟ كيف وأين يمكنها التأثير والتطوير في الأحداث فيما بعد؟ لا كيف، ولا أين.

إن علاقة الشخصيات في الجنس الدرامي، كقاعدة، أكثر إمدادا بالمعلومات مما في النصوص التي خارج الجنس الدرامي. فهذه الشخصيات لديها هدف تعبر عنه بشكل واضح و«قوة

موجّهة» للردود والملاحظات - المشاركة في الانفعالات والأخبار والمفاتحات، والمعرفة والتوصل إلى شيء ما، والاستمالة والتحريض ضد شيء ما، الاستفزاز، توضيح شيء ما، الاتفاق على نحو ما. تلك الردود والملاحظات تعني فعالية الدوافع ونشاطها، شحذ الإرادة، الاهتداء إلى المرسل إليه. وإذا كان هناك ما يمكن قوله، فمن الضروري التحدث - لأنه إذا كان المضمون غير موجود في العالم الخارجي، فهو ليس موجوداً في أي مكان آخر. يبدو وكأنه غير موجود، ولكنه يولد عندما يصاغ أو يشكّل في ديالوج أو مونولوج واقعي. ولا يمكنه أن يوجد بشكل آخر.

من الواضح أنه في الجنس الدرامي لا يوجد أيضا موضوع العزلة بشكل حقيقي. من الممكن دائما التحدث مع أحد ما هناك - حتى ولو كان من المستحيل التوصل إلى اتفاق أو التفاهم فيما بينهما. حتى وإن كانت العلاقة مليئة بالصراعات الحادة. وتدل على عدم فهم البطل للشخصيات الأخرى. ومع ذلك فالعلاقة المتبادلة تكون أكثر قوة مما في الأعمال الخارجة عن الجنس الدرامي. إن «ألتسيس» يجد من يتبادل معه الملاحظات اللاذعة، ويرد عليه بسخرية، ويوبخه، ومع من يتقاتل، تناقضات مواقف الحياة المختلفة تشكل مشادات صدامية، وارتباطات، وخصومات «مدججة بالسلاح». العلاقات المتبادلة موجودة في حالة تشبع -بكثرة في «الموحش».

أما الأعمال الدرامية التشيخوفية فمن طبيعتها الإحساس المضجر بعدم إمكانية إجراء ديالوج مباشر وصريح. وكأن الشخصيات من دون أي داع، وبلا ثقة في إيجاد سبب، ترسل الملاحظات والردود في الفراغ. ليس من أجل الإبلاغ بشيء ما. ولكن، على نحو ما، من أجل إيجاد رد ما قريب، أو شريك في الديالوج. فكم هي في حاجة ملحة وضرورية إلى علاقة وطيدة - وكم تلك العلاقة غير موجودة. من الضروري التنويه عن طريق وسيط بحالتهم الداخلية التي لا توفق إطلاقا في الظهور إلى الخارج. وكأنهم يعانون من عدم امتلاكهم لعالمهم الداخلي - لا يمكنهم امتلاكه والتصرف فيه، ومن ثم «منحه» لأي أحد آخر. إنهم، بالحرف الواحد، معزولون ووحيدون - لأنه في أغلب الأحيان لا تصل ردود وملاحظات الواحد منهم إلى الآخرين، تتعلق في الخواء، تضل وتتوه في قلق دون أن تجد لنفسها مكانا بين الردود والملاحظات «الضالة» أيضا. وتلك الردود والملاحظات ماهي إلا مجرد أشياء غامضة، غير مفكوكة الرموز، وجزئيات من السرية والخفاء. الروح مثل البيانو المحبوس في مكان، والمفاتيح قد ضاعت - وهذه ليست مقارنة مغالية في التزويق. إنها الصيغة التي تحدد بالضبط خصوصية بناء النماذج الشخصية. فتدمير منظومة الاتصال يقود إلى أن سبب «فجوة» الإفصاح الذاتي في الجماعة المتلاحمة - الكثيرة بالضبط مثل سبب الإنصات، يختفيان عمليا. وهما غير ضروريين حيث انعزال الشخصيات بعضها عن البعض الآخر، وحيث

يهيمن انعدام سببية الإفصاح مع غياب جدوى الحبكة.

على العكس من ذلك، فالجنس الدرامي شغوف جدا بمثل هذه الأساليب - الأسباب. فقوة العلاقة المتبادلة المباشرة للذي يجري في العالم الخارجي شديدة للغاية، الأمر الذي يتطلب بشكل دائم تكييف الزمن الواقعي والفراغ للمتطلبات المسرحية. الزمن والفراغ يلتصقان، يصبحان مثل أدوات التمثيل المسرحي. يظهر فيهما شيء ما، أكثر من كونه ماديا محددا، مطاط - حيث إن المسرح يوجه الزمن والفراغ كشكل ديناميكي مرن. ويتحقق انتصار على عدم قابلية التجزئة للمجال الجوي الذي يكون فيه مدى سماع الصوت - شيئاً ما غير موجه. انتصار على اللامحدودية، وعدم إمكانية الرؤية، أو الانعزال وضيق الفراغ. وسوف يكون كل شيء بالضبط كما تتطلبه الدراما. وسوف تختفي الصفات الواقعية للوسط الخارجي. ويظهر إحساس ما بالقوة الإبداعية، الذي سيملي على الفراغ خصوصيته. ولو المؤلف في حاجة إلى مونولوج مطول يقال في حضور أشخاص غرباء، فلن يسمع أحد. وعندما يكون من الضروري همس ماكر، فلن يتنصت أحد إطلاقاً، ولن يرى الشخص الثالث الموجود هنا بالفعل. أو العكس، تجري عملية تنصت. وعندما يكون ذلك في صالح المؤلف الدرامي، تظل الشخصيات لفترة طويلة لا تلاحظ بعضها البعض على الرغم من أنها موجودة في فراغ واحد. والعكس، ترى بعضها البعض إذا كان ذلك ضرورياً لتطور الحدث. وهذا نفسه ما يتعلق عموما بفهم الجنس الدرامي الخاص بأي إمكانات عضوية - نفسية للإنسان. إذا كان من الضروري، فالشخص سيقدم نفسه في صورة أي إنسان آخر مهما كانت صفاته المرئية بعيدة عن الأصل المعلن عنه. ولو كان ضروريا - فهم يعرفون البطل ويستدلون عليه بوضوح تام. أو لا يعرفونه. أو - يعرفونه ولا يظهرون معرفتهم، ولن يبوحوا بأي شيء عن اكتشافهم. إن إشكاليات ردود الأفعال النفسية المباشرة، وعدم إمكانية التحكم في القدرات الخارجية الأولية، ومحدودية الإمكانات العضوية - كل ذلك في حد ذاته لا يثير اهتمام الجنس الدرامي. وكل الاحتمالات والأشكال الأخرى ممكنة. الجنس الدرامي لا يتأثر بالتقدير الحتمي المسبق لصفات الإنسان الفيزيولوجية والنفسية. فليس هناك من حكم عليهم أن يكونوا هم أنفسهم فقط، أو أن يعيشوا بإحساس أنهم لم يكونوا، ولن يكونوا أنفسهم دون أن يدركوا من هم. الفقراء يلعبون أدوار الأغنياء، المسنون يلعبون أدوار الشباب، المشوهون - وسيمون، الأشرار - خيرون، الجهلة علماء، والعكس. نجاح مثل هذا المشروع يتوقف على إرادة الفنان. حيث إن التخصيبات النفسية تصبح مجرد وظيفة للجنس الدرامي عندما تفقد قيمتها وقوتها. إن الكائن البشري يمتلك تلك الحرية غير المتوقعة التي من الواضح أنها منزوعة منه في الحياة العادية.

إن الفرد ذا النشاط المتزايد بشكل عام في الجنس الدرامي لا يتأثر فقط بالجوانب الإيجابية والسلبية للحياة، وإنما أيضا بالعلاقات العاصفة المؤثرة. المتبادلة – مع الزمن والفراغ ونسيج الحياة. الجنس الدرامي يقدم للبطل المواقف المختلفة عن مثيلاتها في الحياة. وهي تستحوذ على المتفرج – القارىء وتجتذبه تركيبتها الشجاعة وخطرها. دون جوان يتحدث بشكل متواز مع اثنين من الفلاحين. وهذان، يرى كل منهما الآخر، وهما في الوقت نفسه يقفان بالقرب تماما منه – لكن التيار الزمكاني يبدو كأنه ينفصل طبقة طبقة. يبدو وكأن الأبطال إما يوجدون في فترات زمنية مختلفة، وإما في فراغ متهشم إلى أجراء صغيرة، ومستغلق على العيون والأسماع الغريبة. الفتيات «منومات مغناطيسيا»، عمياوات. صماوات، تحت تأثير دون جوان. وفي «زواج فيجارو» يختبىء عدة أشخاص، في وقت واحد، في فراغ المقدمة الصغير الضيق في حين يوفقون في تبادل «مخابئهم» – واحد فقط يترك الأريكة ويذهب إلى هناك ليغطس واحداً آخر في ذلك «المكمن» وفي «مدرسة الوشايات»، في حدود غرفة واحدة يمكن لبعض الوقت إخفاء الناس الذين لا يجب أن يتقاطعوا مع بعضهم البعض. وتلك الشخصيات المخبأة تطل بالتناوب من مخابئها. ولكن ماذا لو طلوا في وقت واحد؟ في نهاية «زواج فيجارو» تحدث بلبلة طويلة مع تبادل للأحاديث – الأبطال يتسللون إلى هناك، ثم يطلعون إلى الخارج صوب الدهشة العامة وكأنهم يشاركون في خدعة الصناديق «السحرية» بالسيرك.

من الممكن ألا نلتقي مع من اختفى خلف إحدى الآرائك. وليس من الجائز أن نمر بأحد أثناء تجوالنا في عاصفة بالبرية. الملك لير، البهلول، إدجار، كينج، جلوستير، كما لو أنهم استعدوا لحفل استقبالهم التراجيدي. ولكن كان بإمكانهم أن يظهروا كلاً على انفراد في لحظة ذروة المأساة. هاملت في بداية تبادل الحديث بالذات مع هيرترودا يقتل بولونيا، بعد ذلك يجري أيضا ديالوجا طويلا مع الملكة. كل ذلك في وجود الجثة التي، على ما يبدو، قد صارت منسية، وكأن هاملت لا يرى بولونيا القتيل. هو يرى شبحا، يتحدث معه، وكأنه حي. وبعد ذلك يجر الجثة على نحو وكأنه لا يرتعد خوفا أمام منظر الموت. يبدو وكأن البطل يعيش في عدة حالات نفسية في وقت واحد. كل لحظة، وكل حدث بالنسبة له – منفصلة عن بعضها البعض. ولكن مع ذلك فالمشهد كله يتطور في فراغ ضيق، في مقطع زمني قصير جار ومستمر.

الجنس الدرامي يشكل لدى المتلقي انطباعاً مزدوجاً حول حرية الإنسان واستقلاليته. الإحساس بالحرية متوتر في أمور عديدة. القارىء – المتفرج يتابع باستمرار كيف أن العديد من الأفعال وردود الأفعال مشروطة، لا تشبه ما في الحياة، وكيف أن البطل لديه القدرة على تحمل الكثير، وكيف أنه قادر على تحقيق الكثير.

الأبطال يستطيعون مناقشة عدم جدوى الكون، ولكن في حدود الموضوع تتجلى على الدوام إمكانية توجه ديناميكية لكل ما يحدث. إن التجريدات العالية، كقاعدة، ترتكز بصورة ثابتة على الواقعة البسيطة المحددة للموضوع المفهوم للتفكير العادي. ولو كان الهدف الوحيد المناط بهاملت إعادة بناء «الاتصال المقطوع للزمن»، لما صار النص المسرحي شهيرا ومعروفا بوجه عام. من الضروري أيضا في النص أن يسعوا إلى عقاب الشرير - المغتصب للسلطة. ربما لا تخلو النصوص المسرحية ذات الجنس الدرامي من التعقيدات والمصاعب - ولكنها تصنع وهم إمكانية وضوحها وفهمها. سهولة الإدراك تقوم بشكل لا إرادي بعملية هرمنة انفعال المتلقي حتى ولو كان الحديث يدور حول تراجيدية فظيعة.

من ناحية أخرى، فإمكانية تصميم الجنس الدرامي للفعل، و«تماسك» الحدث للصراعات الضرورية، واللقاءات والاستعدادات «المفاجئة»، النجاح والفشل، وخلافه - تولد نموذج البطل - الدمية الخارقة التي يوجهها المؤلف كما يشاء. البطل يستوطن، أو يعيش بصورة عضوية أية حالة معطاة. الإنسان - كوحدة جمالية - يوجد في الجنس الدرامي تحت المراقبة العلنية والصارمة للمبدع. والأخير يسهر من أجل ألا تكون حياة البطل خاوية أو فقيرة بالأحداث. أما الدراما التي خارج الجنس الدرامي فتحاول القيام بصنع وهم الشخصيات الحرة، وكأن المؤلف قد نسيها. لا تعتمد على أي شيء آخر سوى على بعضها البعض وعلى العالم القاسي. الجنس الدرامي كا لو أنه على استعداد بصورة واعية للاشتراك مع الواقع في تحمل المسؤولية كاملة عن منح الأبطال حمل التبعية الثقيل، ومحدودية الإمكانات. والاعتماد على قوة خارجية ما غير موجودة للبطل وللمتلقي يدل على القيود المفروضة على الشخص الفاعل - وكذلك على عدم وجود حدود لتفكير - أفكار - المؤلف. التبعية في هذه الحالة - هي أيضا الإحساس بأنك مثبت في منظومة ما، في شيء ما كلي.

الجنس الدرامي يتعامل مع القارىء - المتفرج إلى حد ما كطفل. ويهتم بأن يستوعب المتلقي بسهولة النموذج الفني المطروح للعالم، دون أن يتمكن من الخوف من تناقضاته، ودون أن يلاحظ خلفيته الفلسفية الكئيبة، حتى وإن ترسبت جميع تفاصيل المضمون التي «لا تنضب» بأي شكل على المستوى الوراثي. أما الدراما التي خارج الجنس الدرامي - فهي فقط للكبار البالغين الذين لا نخشى أن نصيبهم بشيء. حيث يجب عليهم بوعي تام وليس بشكل عابر - بصورة مستقلة ومن دون تلقينات ومواعظ المؤلف - أن يدركوا مدى صعوبة وتعقيد العالم الإنسان إلى درجة لا يمكن تفسيرها أو التعبير عنها.

مرجريت دوراس
وحقيقتها المستعصية



بقلم : دانيال لوران
و باسكال فراي

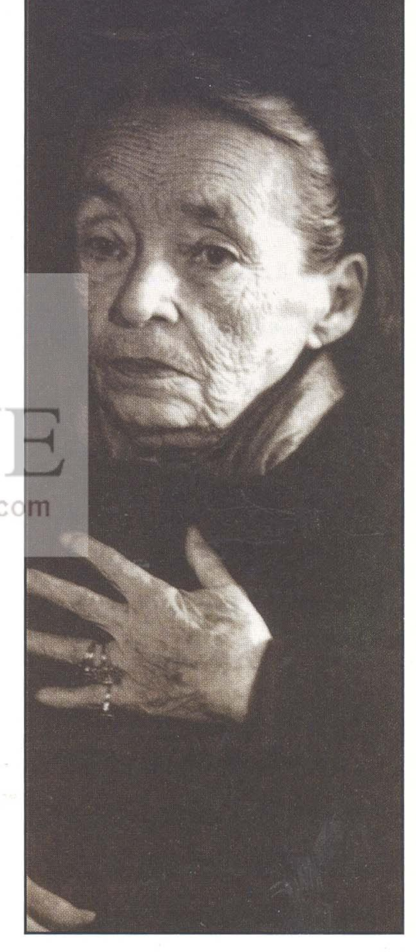
ترجمة : حليم أحمد طوسون

ماذا حدث عندما تحررت فرنسا؟
ومن هو العاشق الصيني؟
ومن كانت هي ذاتها؟
عودة إلى خطوات مرجريت دوراس
لقاء مع حفظة ذكراها
ومع كاتبة سيرتها

البيت الريفي الذي ورثه جان ماسكولو عن أمه مرجريت دوراس، بيت اسطوري لايزال مشبعا بشخصها، وبقاعة البيانو التي شهدت مولد موسيقى فيلم «الأغنية الهندية» الشهيرة، ودستة غرفه ووسائده المتناثرة في كل مكان لاستقبال الأصدقاء. هذا البيت القديم في نوفل لي شاتو المبني بالحجارة، اشترته دوراس في أواخر الخمسينيات بفضل حقوق نشر كتابها المعنون «سد في مواجهة المحيط الهادىء» التي باعتها للسينما. وقد صورت هنا، وسط باقات الزهور الجافة التي لا تحصى وأغطية المصابيح المتعذر عدها المصنوعة من أقمشة قديمة، والعديد من المرايا، عدة أفلام: ناتالي جرانجيه مع جان مورو وجيرار ديبارديو في 1972، والشاحنة، مع جرار ديبارديو أيضا في 1977... ولايزالون يرددون في نوفل لي شاتو: غرفة مرجريت، شجرة ورد مرجريت... وهؤلاء هم نجلها والأصدقاء ورفاقها الحميمون. وفي المدخل ملابس قديمة من الصوف معلقة على مشاجب لوقاية الجميع من نسيم الليل على السطح. ومن بين تلك الملابس

العنوان الأصلي للمقال:
L'impossible vérité sur Marguerite Duras
ونشر في مجلة Lire عدد يونيو 1998

السترة ذات المربعات السوداء والبيضاء الخاصة بمرجريت والتي خلدتها صورة شهيرة التقطت لها وهي جالسة على دكة في مؤخرة حديقتها التي كانت تقول عنها «المنتزه». وقد حرصوا على أن يضعوا على كتفيها تلك السترة في اللحظة المناسبة.



عندما وصلت إلى نوفل عصرا في صحبة الكاتبة ميشيل مانسو، جارة دوراس وصديقتها طوال ثلاثين سنة، كان ابنها جان ماسكولو، الشهير بأوتا، يسوي الأعشاب ويبدي استياءه من آلة الجز الجديدة وسوء أدائها. كان يرتدي تي-شيرت ممزقا وسروال جين به ثقوب ويتصبب عرقا. وقد حدجني ولفافة التبغ في فمه، فتجاهلته.

من المعروف أن جان ماسكولو لا يدلي بأحاديث، وقد نطق بالكاد بكلمتين في استوديو قناة فرانس – 2 التلفزيونية أثناء برنامج مخصص للذكرى الأولى لوفاة والدته في الربيع الأخير، وبعد أن تخلى عن مواصلة حش النجيل وأبدى تذمره الشديد من بائع المجز المحتال، وصاحب الجراج الذي يبيع بنزينا مغشوشا، وفي العالم بأسره... وفي الساعة الثالثة صباحا، وبعد أن تجرع كأس العرقي (الأوزو) وتناول وجبة وفيرة مصحوبة بالنبيذ وكعكة الكرز، قال لي وهو جالس على دكة مكسورة خاصة بمرجريت في مؤخرة المنتزه: «أنا لست دوراسيا على الإطلاق».

وفي اليوم التالي، وبعد وجبة غذاء من السجق المشوي مع الأصدقاء وابنة خالته جان وزوجها وأطفالهما، أسر في أذني: «فيما يتعلق بالإدلاء بحديث، سنرى فيما بعد». وعندما كنت أستعد للعودة إلى باريس قال لي: «غدا عندي في شارع جاكوب» وهناك تحدث عن أسئلتي الثلاثة عندما توجهت إلى مسكنه بعد الظهر، بينما كانت تعزف مقطوعة لباخ على البيانو.

«ماذا تقصد بالضبط ياجان ماسكولو، المدعو أوتا، بقولك إنك لست دوراسيا؟» ذلك كان سؤالي الأول الذي أجاب عنه قائلا: «فلنقل ببساطة إنني لست اختصاصياً بخصوص دوراس». وقد نهض من مكانه وتناول كتيبا عنوانه «مرجريت دوراس، القدر والمكتوب»، فوق كومة من الكتب... وهناك كتب من تأليفها وكتب عنها في كل مكان بالمسكن.

فمنذ أن ماتت دوراس، لم تتوقف الندوات

والمطبوعات... فهنا ترجمة جديدة لسيرتها من تأليف آلان فيركوندليه، مزودة بصورة لم تنشر من قبل، مأخوذة بالذات من مجموعة جان ماسكولو. وهناك مؤلف تحليلي لأعمالها بقلم ميشيل دافيد، اختصاصي التحليلات. ثم هناك بالطبع كتاب «الصديقة» لميشيل مانسو، صديقة دوراس التي رافقتني إلى نوفل. وعلى مقربة من هذه الكومة عشرات من نسخ كتاب «دوراس» المغلفة التي وصلت حديثا، وصدرت عن دار جاليمار في سلسلة كوارتو: 1764 صفحة، وخمسون سنة من كتابات دوراس، إنها الأعمال الأساسية لها التي تم جمعها. وقدم لي جان ماسكولو كتيبا حديثا عن ندوة حول «مرجريت دوراس، القدر والمكتوب» وراح يقرأ: «رمزية متواصلة للوحدة المفارقة في مخيلة مرجريت دوراس». ونظر إليّ من أعلى نظارته قائلا: «هذا ما لم أقدم عليه أبداً، ولا أقوم به. فهناك دوراسيون للقيام بذلك. أنا لست دوراسيا. أنا ابن مرجريت دوراس. ابنها الوحيد. لقد عشنا سويا تسعة وأربعين عاما. إنها عواطف تسعة وأربعين عاما من الحياة المشتركة، ولكني لست دوراسيا. هكذا أكون قد أجبت عن سؤالك؟».

وردا على سؤالي الثاني: «ما أصعب شيء منذ وفاة والدتك؟» كان رد جان ماسكولو: «أنا مرجريت الآن». وحدثني عن الحرمان أولا، وعن الزوال، فقال: «شارع سان - بنوا لا يزال موجودا على مسافة مئة متر من هنا حيث توجد شقة أمي، بكل حاجياتها، وقلمها فوق مكتبها... لدى صديق يقيم هناك، وينظم دعوات للعشاء في الشقة، وأتصور أحيانا في نهاية السهرة أن مرجريت ستأتي».

والصديق الذي تكلم عنه هو جان - مارك تورين، صديق مرجريت أيضا، ومعاونها في عدد كبير من أفلامها، والقارىء المفضل لمخطوطاتها. وقد استقبلني في الشقة الكائنة في شارع سان-بنوا رقم5.

حول المائدة، في حجرة الطعام، مئات الكتب والمؤلفات عنها، في جميع اللغات ثم ترجمات لكتبها صدرت في العالم بأسره. كانت تحب أن تقول عن نفسها إنها «نجمة عالمية» منذ أن ظهرت رواية «العاشق» التي حصلت على جائزة جونكور في عام 1984، حيث أصبحت الكاتب الحي صاحب أكبر عدد من القراء في العالم، ومايربو على مليونين ونصف المليون من النسخ المباعة.

وهناك في خزانات قاعة الاستقبال كيلوغرامات من الورق: مخطوطات، وخطابات ومختلف الوثائق مكدسة في أكياس من البلاستيك. مخطوطات دوراس معبأة في أكياس تحمل اسم محلات مونوبري! ويتولى جان - مارك تورين تصنيف كل ذلك بناء على طلب أوتا. وقبل أن يبدأ بترتيب أكوام الورق، استعرض تورين أقوال دوراس في الإذاعة حول كتبها وحول شخصها، وحول حياتها، وحول السياسة، وقد تحول كل ذلك إلى ألبوم مكون من كتاب وتسجيل على



اسطوانة كومباكت عنوانه: «مرجريت دوارس: نشرة الكلمة»، توجته أخيراً أكاديمية شارل كرو ذائعة الصيت. وعلى مدى خمس ساعات يستمع المرء إلى ماتقوله كاتبة رواية «نشوة لول شتاين»، عن مختلف مراحل حياتها وأيضا عن اقتباسات أعمالها في المسرح والسينما، وشهاداتها، والكل مصحوب بموسيقى لم تعزف من قبل. وقال لي تورين: «كنت هنا، أستمع إلى الشرائط... مئة وعشرون ساعة من التسجيلات». لم أتخلص من أي شيء. وكل هذا موجود هنا في غرفة واحدة.

ويستعد جان - مارك تورين لإخلاء هذه الشقة التي أقامت فيها دوراس مايربو على خمسين سنة، بالتعاون مع أوتا. وفي هذه الشقة ماتت دوراس في الثالث من مارس 1996 وهي في الحادية والثمانين من عمرها، بعد حياة مشتركة دامت خمس عشرة سنة مع يان أندريا، رفيقها الأخير الذي يصغرها بتسع وثلاثين سنة ولا يعرف شيء عنه منذ أن تم دفنها.

وانتقلنا إلى غرفة الاستقبال. قال لي «أنتِ جالسة على مقعدها... وترين هناك على جهاز التدفئة محارات وأحجاراً في كل مكان... كانت مرجريت تحب أن تكون محاطة بأشياء صغيرة... ولم يُحرك شيء هنا، ولم يتم طلاء الشقة منذ عام 1943».

في عام 1943، سنة صدور أول رواياتها «الصفيقون» كانت مرجريت دوراس تقيم هنا مع زوجها روبير إنتلم. «هنا في السقف تجدين آثار شامبانيا بلاشك... كانت مرجريت تقيم حفلات مدهشة. كان يأتي إلى هنا بوريس فيان، وجاك تاتي الذي كان يستثير ضحكاتهم وكذلك أيضا كونو، وباتاي، ولـيـريـس، وبلانشو، وإدجار موران بالطبع، وكلود روا، وجاك فرنسيس وفيتوريني»..

مع يان أندريا في عام1994.

كانت لقاءات ودية بين أصدقاء، ولقاءات أدبية، وأخرى سياسية أيضا. وقد أخرج جان - مارك تورين مع جان ماسكولو فيلما يمتد عدة ساعات عنوانه: «روح التمرد: حول مجموعة شارع سان - بنوا» وسلسلة من حلقات الإذاعة موضوعها «كافة اللقاءات حول حرب الجزائر دارت هنا». وهنا عاد روبير إنتلم في 1945 بعد احتجازه في معتقل داخاو، وهنا نزل ميتران أثناء الحرب، عند رجوعه

من لندن حينما ضم دوراس وإنتلم وماسكولو لصفوف المقاومة.

والمقصود بديونيس ماسكولو، والد جان، ورفيق دوراس طوال نحو خمس عشرة سنة، والصديق الدائم مع ذلك لزوجها روبير إنتلم الذي توفي في عام1990.

وصحبني جان – مارك تورين إلى ديونيس ماسكولو، الجالس مع ابنه في حانة، وهي الحانة نفسها دائما الواقعة على بعد خطوتين من بيته ومن بيت دوراس أيضا، وخطوتين بالطبع من بيت أوتا. وقدم لي الرجل كوبا من النبيذ الأبيض وأخذ نفسا من سيجارتي «الكندية» وحدثني بحنين إلى الماضي عن حديقة الورود الخاصة بمرجريت: «أنا الذي زرعتها..».

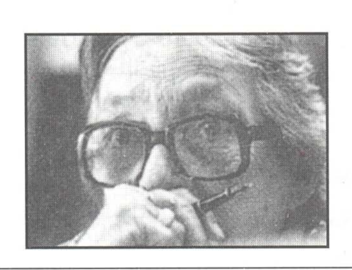
وديونيس ماسكولو فيلسوف له عدة مؤلفات من بينها «من أجل فكر شيوعي»، وهو في الثانية والثمانين من عمره. «لقد عرفت مرجريت أثناء الحرب في 1942. كنت أعمل لدى دار جاليمار للنشر، وكانت هي سكرتيرة اللجنة التي تمنح الورق للناشرين. وتطابق فورا إعجابنا أو ازدراؤنا لبعض الكتب. أي أنه كان هناك تفاهم جمالي بيننا. كان التفاهم بيننا في كل شيء، بما في ذلك المقاومة. كانت النساء نادرات في صفوف المقاومة، وكانت هي من المناضلات، مما جعل التفاهم بيننا كاملا، لم تكن مرجريت «فتاة هاتف»، كانت جذابة بذكائها. وكان حبنا قويا».

وبعد لحظة صمت، «كانت تريد أن يكون لها طفل» مشيرا إلى أوتا الذي يستمع إليه. «لم يكن ابن مصادفة، بل بمحض إرادتنا. قالت لي: «أريد أن يكون لي طفل..» وأنا وافقتها».

وقد كتب دوراس في مؤلفها «الكتابة» الصادر في 1993: «تجيء في الحياة لحظة أعتقد أنه لا مفر منها، حيث يرتاب المرء في كل شيء: الزواج، الأصدقاء، وبالأخص أصدقاء الزوجين، أما الطفل فلايكون أبدا محل شك». ويوضح ديونيس الأمر: «هي التي هجرتني. فقد وقعت في حب شخص. ولم نكن متزوجين بالطبع!».

وكانت هناك جملة لدوراس «ما هو الإخلاص إن لم يكن الإخلاص للحب..» وازداد ماسكولو توضيحاً: «عندما كانت مرجريت تعيش مع روبير، كان لديها عشاق، وكانت لديه عشيقات، أي أنني لم أخدع روبير إنتلم».

وعندما طردت دوراس من صفوف الحزب الشيوعي في عام1950، كانت من بين الملاحظات التي وردت في تقرير الحزب الشيوعي: «تعيش مع رجلين». دامت صداقة ماسكولو وإنتلم طوال حياتهما. «لقد ذهبت مع جورج بوشان إلى معسكر داخاو في عام1954 لإحضاره بفضل أوراق زودنا بها ميتران». وفي «الألم» الذي صدر في1985، وهو مؤلف يعيد صياغة يومياتها عن الحرب إلى حد ما بقدر من الأمانة، وهي اليوميات التي عثر عليها في دوليب بنوفل، تحكي دوراس توقعاتها المثيرة



للقلق، ثم عودة ذلك الرجل الذي لم تعد تتعرف عليه. ويؤكد ديونيس ماسكولو قائلا: «كان روبير يزن 35 كيلوجراما، بعد أن فقد خمسين كيلو، كان يحتضر. هل قرأت كتابه؟» يحكي روبير إنتلم في كتابه هذا المعنون «الجنس البشري»، الصادر في عام1947 وأعيد طبعه أخيراً عند جاليمار، يحكي بلا استدرار للشفقة على الإطلاق، تجربته اليومية في المعتقلات، مع إلقاء الضوء على «ذلك الإحساس النهائي بالانتماء إلى الجنس البشري» الذي تكشفت له من خلال الترحيل إلى المعتقلات.

وقبل لقائي مع ديونيس ماسكولو في الحانة، وبينما كنت مع جان - مارك تورين بشقة شارع سان - بنوا رقم 5، دخلت مونيك إنتلم، أرملة روبير، كالإعصار: «جئت لأحصل على مخطوط «الجنس البشري». لابد أنه يوجد هنا. فهو لا يوجد في أي مكان آخر. وكذلك خطابات روبير لمرجريت. لقد طلب مني قبل أن يموت أن أعده بألا تنشر تلك الخطابات. كما أني أبحث أيضا عن قصائد روبير التي لم تنشر». وأشارت إلى بقعة خاوية في الصالون بجوار المدفأة. «كان يوجد هنا صوان. وكانت قصائد روبير داخله. لقد دلني عليها. وكانت هناك جملة في بداية قصيدة تقول: «أنت تقتلينني، وتحسنين صنعا بذلك».

«أنت تقتلينني وتحسنين صنعا بذلك»: إنها اللازمة المتكررة في رواية «هيروشيما، حبي» التي كتبت دوراس سيناريو قصتها هذه بناء على طلب آلان رينيه، ليصنع منها فيلما في عام1959. وعن طريق هذا الفيلم الذي حقق نجاحا هائلا، دخل جان - مارك تورين عالم دوراس قبل أن يندفع

بكل جوارحه في كتب دوراس، شأنه في ذلك شأن العديد من الشباب. وقد عرض عليها بعد ذلك أن يعمل معها في السينما.

وألحت مونيك إنتلم قائلة أمام تورين الذي



في سادك في الهند الصينية في عام1932.

انتابه الذهول «لقد سرقت مرجريت هذه الجملة من روبير. كانت مرجريت فظيعة! فظيعة... وكانت نابغة».

وبعد أن خرجت السيدة صفر اليدين استطرد جان - مارك تورين: مرجريت كانت نابغة بذكائها وموهبتها وبساطتها، وكانت في الوقت نفسه فظيعة. فظيعة لأنه كان بوسعها أن تكون قاسية


في 1943، مع أخيها.


في 1947، مع ديونيس ماسكولو.

وظالمة وشريرة».

وقد تصادمت دوراس مع العديد من الناس في حياتها: نساء ورجال وناشرين ومخرجين... وأصدقاء، بما في ذلك تورين الذي أضاف: «لقد تشاجر الجميع مع مرجريت. وليس هناك شخص واحد لم تصده مرجريت». وكانت ميشيل مونسو قد قالت لي الشيء نفسه قبل أن تصحبني إلى نوفل.. «كانت هناك دائما لحظة تصورت فيها أنها مستغلة، وكانت كلمة «مستغلة» هذه تذكرها بمصير أمها في الهند الصينية، حيث استغلها الأعيان الذين باعوا لها أرضها مغمورة بالمياه وغير صالحة للزراعة».

لقد كتبت مرجريت دوراس تقول في «العاشق» «تاريخ حياتي ليس له وجود». وكل من حاولوا الاستيلاء على اسطورتها وهي على قيد الحياة دفعوا ثمن ذلك، فقد تبرأت من فيلم جان – جاك انّو بميزانيته الضخمة والمصور انطلاقا من «العاشق»، وتعقبت فردريك ليبيلي أمام المحاكم بسبب السيرة الرومانسية التي كتبتها تحت عنوان «دوراس أو قيمة الكلمة» (الناشر: جراسيه). ولا أكاد أتجاسر فأتصور رد فعل مرجريت دوراس إزاء الكتاب الصادر أخيراً باللغة الإيطالية وعنوانه «الصيني ومرجريت». ويزعم المؤلف أنجيلو مورينو أنه على نقيض ما كتبته مرجريت دوراس في «العاشق»، أنه لم يحدث أبدا أن كان لها عاشق صيني عندما كانت تعيش في الهند الصينية التي نشأت فيها، وأن أمها، تلك الأم المجنونة في رواية «سد في مواجهة المحيط الهادىء» هي التي عاشت تلك المغامرة العاطفية العجيبة. أما مرجريت فكانت ثمرة تلك الخيانة الزوجية!.

أما سؤالي الثالث لجان – مارك ماسكولو فكان: «ما أهم ما ورثته عن والدتك؟» فقال «يبدو لي أن الجانب المشترك بيننا هو ذلك التمرد المتأصل. كانت مرجريت فظة، ولم يتمكن أحد أن

يغير طابعها هذا أبدا. والدليل على ذلك أنها بدأت تكتب في عام 1943 وحصلت على جائزة جونكور بعد ذلك بأربعين سنة، ولكنها ظلت تكتب دائما وأقدمت بالضبط على فعل ما كانت تريد، بعيدا عن الموضات... لقد لقنتني حب الحرية وربما أيضا عدم اليأس إطلاقا».

وتقول دوراس في فيلم «دوراس تصور» الذي أخرجه ابنها بالتعاون مع صديقه جيروم بوجور في 1981 إنها تصور هي أيضا في الوقت نفسه فيلم «أجاتا» وتضيف قائلة: «أنا أعرض الجدير بألا يعرض، وهذا مايهمني».



مرجريت في شارع سان - بنوا بباريس في عام 1955.

وكانت تقول في أيامها الأخيرة: «الحاصل أني نابغة. وقد اعتدت ذلك الآن». ولكن فيم تكمن عبقرية دوراس؟ لم يتمكن أحد من تقديم إجابة عن هذا السؤال.

دانيال لوران



المطبخ في نوفل لي شاتو في 1990

من يتذكرها في سادك؟

إحداهن تتذكر عشيقها الذي مات في عام 1972. والأخرى، وهي سيدة طاعنة في السن، تحكي بعض الذكريات عن مدرستها وعن مرجريت.

سادك بلدة صغيرة وسط مياه موحلة في دلتا نهر الميكونج، على مسافة 150 كيلومتراً جنوب مدينة هوشي مينة – فيل (سايجون سابقا). وكانت هذه الدلتا تسمى فيما مضى «حديقة كوشانشين» لخصوبة أراضيها. وفي سادك طريق عريض تحف أشجار النخيل بجانبيه ولاتزال توجد به بعض البيوت ذات الطراز الاستعماري التي زال رونقها. وهناك أيضا زقاقات مزدحمة بأكواخها المتلاصقة، وسوق وفندق يتبع الدولة ومطعم أو مطعمان، وكذلك معبد أحمر اللون وبيت جدرانه مغطاة بخزف أزرق، ومدرسة قديمة للبنات أصبح اسمها تريونج تيو هوك ترونج فويونج منذ عام1975.

قالت لي على الفور إحدى معلمات تلك المدرسة التي استؤنفت دراسة اللغة الفرنسية فيها منذ سنوات أربع أو خمس مع اندفاعة إنشاء فصول للغات في فيتنام: («العاشق»، هذا صحيح). واستطردت قائلة: «قرأت الكتاب وشاهدت الفيلم. والفيلم لا يعكس بدقة حياة الصيني. لقد عرفت العاشق هوينه – ثوي – ليه، كان رجلا لطيفا. وكان واسع الثراء ولديه أملاك عديدة في سادك. وقد توفي في عام1972». ويقيم ابن أخ العاشق في المعبد الأحمر وسط سادك. والمعبد عامر بالزخارف المذهبة والتنينات والجرار المغطاة بالغبار، وقد أقامه الصيني الغني من أجل أسرته. وحصلت على تصريح باجتياز السوق حتى البيت الكبير بشرفاته الرحبة ذات الأسوار المكونة من أعمدة الخزف الأزرق، والمطلة على النهر. ولكن «ممنوع الدخول أو التصوير» والبيت الذي عاش فيه الصيني في حالة تدهور متقدمة وقد صادرته الشرطة الشيوعية.

وفي مدرسة البنات القديمة بسادك، حيث قُدِمَ الشاي، عرضت عليّ المعلمة كتابا كبيرا يحكي تاريخ المدرسة. وقد أخرجت منه عدة صور، صور مدام دوناديو، وابنتها مرجريت الصغيرة وقالت: «أنا لم أعرف مرجريت، كنت مأزال صغيرة للغاية عندما انتقلت إلى فرنسا. ولكن هناك امرأة في سادك، كانت تلميذة سابقة عند مدام دوناديو وعرفت مرجريت».

وهي امرأة طاعنة في السن متغضنة وذات شعر ناعم، إنها



مع أمها

فيتنامية عجوز، أسنانها سوداء وظهرها مقوس، اسمها مدام لي. وقد أجلسوها فوق سريرها ذي الملاءة الباهتة اللون، خلف ستار بال. وتتأرجح قدماها المشوهتان في الفراغ، وهي تضحك. وراحت تتذكر بينما يترجم مرافقي هونج حديثها: «كلما كنت أرى مرجريت خارجة مع عشيقها الصيني، كنت أبلغ مدام دوناديو». ويتمايل جسمها الضامر «كان الكل يحب مرجريت. كانت لطيفة. وكانت صديقتي. ولكن عندما كانت تخرج مع عشيقها الصيني، كنت أقول ذلك لمدام دوناديو، لأن مدام دوناديو كانت مدرستي!» وكانت تسرع في كلامها لكي توضح لي كم كانت مرجريت حرة. «لم تكن مطيعة، ولا كانت تصغي لما تقوله لها أمها. وكثيرا ماكانت لا تواظب على الحضور إلى المدرسة. كانت تفضل عشيقها... وبعد ذلك كانت مرجريت تعود إلى البيت حيث تعاقبها والدتها». واكفهرت نظرة الصديقة القديمة. «مدام دوناديو كانت لاتقبل العاشق الصيني. كانت لا تحبه، ولا تريد أن تراه مرجريت. لم تكن مدام دوناديو تحب الصيني لأنه بلغها أن عائلة ليه لا تقبل مرجريت. وكانت ذلك بمثابة مسألة اعتداء على كرامتها. فحسب التقاليد الشرقية كان يتعين على الصيني أن يتزوج صينية».

وتحتفظ بالأخص التلميذة السابقة بمدرسة البنات في سادك لمدرستها بصورة المرأة السمحاء. «مدام دوناديو كانت صارمة مع ابنتها فقط، وليس مع تلميذاتها. كانت تصنع الكعك للبنات وتطبخ لهن. كانت فقيرة نوعا ما. نعم كانت فقيرة باعتبارها فرنسية أو أجنبية، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للفيتناميين».

وتقول الفيتنامية العجوز إن مدام دوناديو كانت امرأة شجاعة «كانت تتولى وحدها رعاية أبنائها».

وتقاربت مني مدام لي، وهمست بخبث: «ابنها البكر كان داعرا إلى حد ما». وهذه العجوز بلغت الرابعة والثمانين من عمرها، فغدت عندئذ في السادسة عشرة. وراحت تضحك قائلة: «لقد كان أخو مرجريت جميلا ومُلعّباً... ثم كررت القول: «كان جميلا. ولكني لم أكن مغرمة به، لا. لأن أبي كان معلما، ولذا كنت أخشاه. وكان أبي مدرس أخ مرجريت الأكبر، ومدرس مرجريت». واستطردت قائلة: «لم أكن أعلم أن مرجريت كانت تريد أن تكتب. وحتى بعد ذلك لم أعرف أنها كانت تكتب».

لم تر السيدة الفيتنامية المسنّة مرجريت دوناديو بعد ذلك إطلاقا. وأرسلت الكاتبة بعد سنوات من مغادرتها الهند الصينية التي لم تطأ قدماها أرضها مرة أخرى هدية لصديقتها في سادك عن طريق زوجة أخ الصيني التي زارت باريس، وكانت عبارة عن مجموعة من الأمشاط. حدث ذلك في عام1952، ولا تعرف مدام لي ماجرى بعد ذلك. وهي لم تقرأ «العاشق» ولا أي كتاب آخر لمرجريت دوراس. كما لم تشاهد أيضا فيلم جان – جاك انّو.

لا تدري السيدة العجوز أي شيء عن الجملة التالية «إنها مجرد عبور معدية في نهر الميكونج» كما أن قولها: «تاريخ حياتي لا وجود له» يمكن أن يثير ضحكها.

دانيال لوران

حقيقة مرجريت دوراس المعاد تأليفها

تم استخلاص تلك السيرة بصعوبة من خلال وثائق وأحاديث أجرتها لور أدلر مع مرجريت دوراس، حقائق وأكاذيب كاتبة مرموقة.

لور أدلر التي أجري معها هذا الحديث، صحفية وناشرة. كانت مستشارة قانونية برئاسة الجمهورية من 1989 حتى 1992، وهي مؤرخة اهتمت بتاريخ الزوجين (أسرار المخدع) والدعارة (الحياة اليومية في المواخير من 1830 حتى 1930) وبأواخر رئاسة فرانسوا ميتران (سنة الوداع). وهي تقدم حاليا في كل أسبوع برنامج «أحاديث الحلقة الكبرى» (القناة التلفزيونية فرانس – 2) وتحدد اللمسات الأخيرة لسيرة خاصة بمرجريت دوراس تتحرى فيها عن العديد من نواحي الغموض في حياة الروائية.

● كيف قابلت مرجريت دوراس؟

لور أدلر: بالمصادفة، منذ 14 سنة، عندما

دوراس بقلم لور أدلر

نحن نعرف عن مرجريت دوراس رواياتها، والعاشق ذا العيون المغولية، والتزامها السياسي وشطحاتها... ولكن ما كنا نعرفه حتى الآن هو ما أرادت هي أن تفيدنا به، أي الحقيقة من وجهة نظرها. وعندما قابلتها لور أدلر في منتصف الثمانينيات، استسلمت الأخيرة لجاذبية تلك المرأة التي تحدث نفسها عن كل شيء ولاشيء، ولم تنشأ بينهما صداقة أو علاقة حميمة ولكن مجرد تواطؤ ثقافي. وقد بهرت كتابات دوراس لور أدلر التي راحت تكتب سيرة الكاتبة الروائية وهي لاتزال على قيد الحياة. ولكن الأخيرة لا تريد ذلك وتوافق مع ذلك على التحدث معها. أهو سلوك متناقض وملتبس؟ وحياة مرجريت دوراس عامرة بأسرها بالتناقضات والغموض. فهي تصور نفسها على أنها مقاومة كبيرة؟ ولكنها شاركت في المقاومة في وقت متأخر، بعد أن عملت عدة سنوات في جهاز يشرف عليه الألمان. هل كانت مدافعا عتيدا عن استقلال الجزائر؟ لقد وقعت قبل ذلك بسنوات قليلة على مؤلف يساند الاستعمار. هل كانت مغامرتها الغرامية الساذجة مع الصيني الذي ناهز الأربعين سنة غريبة ولا تُنسى في الوقت نفسه؟ لقد باعت جسدها لكي تدفع ثمن المخدرات من أجل أخيها. ترسم لنا لور أدلر لوحة لشخصية مفارقة وكاتبة كبيرة تقع في أسر غواية الشهرة، وامرأة مثيرة للعطف وسخية لم تبرأ أبدا من طفولتها ولفظتها أمها حتى الرمق الأخير.

استعرت كتاب «سد في مواجهة المحيط الهادىء» من مكتبة منزل لقضاء العطلة. كنت قد قرأت بالطبع كتبا لمرجريت دوراس. فأعجبتني، لا أكثر ولا أقل. وفي ذلك الصيف كنت أعاني آلاما بشعة، إذ مات طفل لي. وأوقفت قراءة هذا الكتاب الزمن، وأخذتني بعيدا. فقد مكنتني هذه الشخصية التي توصلت إلى تحويل وحدتها إلى حرية من التطلع إلى الغد. وقد أثار هذا الكتاب ذو الصياغة الكلاسيكية، وذلك العمل اللغوي المعبر عما يعتمل في الجسد، أثار أحاسيس مماثلة لتلك التي أحسست بها عندما قرأت كتابات الروائية الأمريكية كارسون ماك كولرز.

● هل اتصلت بها بمجرد عودتك إلى باريس؟

– كتبت لها خطابا حملته إلى بيتها في شارع سان – بنوا. وقد اتصلت بي في اليوم التالي لكي أقابلها، وهو مسلك عادي إلى حد كبير من جانبها، فقد كانت ترد بطيب خاطر على الرسائل التي تتسلمها.

● كيف جرت تلك المقابلة؟

– كانت في حالة نشوة مهولة، تناقش السياسة، بل وتكلم نفسها بالأحرى. وكانت تمارس نشاطا سينمائيا محدودا ولكنها كانت ساحرة ومسلية لأنها تسترعي الانتباه بمشاعرها الإيجابية أو السلبية تجاه الناس. فقد أحبتني على سبيل المثال لأنني كنت أقيم في حي مالاكوف حيث كانت مولعة بمسرحه التابع للبلدية الذي عرض بعض مسرحياتها! وفضلا عن ذلك كنت أعيش مع شخص أحبته كثيرا. كما كانت تحب الأطفال أيضا، وكان يتعين عليّ أن أصطحب بناتي معي عند زيارتي لها.

● هل طرأت على ذهنك فكرة كتابة سيرتها في ذلك الوقت؟

– لا، فيما بعد. كنت عند الناشر جاليمار مع إيزابل جاليمار وتريزا كريميسي، وكلاهما من كبريات قارئات دوراس. وقد تطرقنا إلى طابعها الذي لا يطاق والمؤثر في الوقت نفسه، وتساءلنا من تكون هي حقا. وطرأ على ذهني احتمال أن تقبل إجراء أحاديث معي الآن وقد تقدم بها العمر وأنها لن تخسر شيئا. كنت أريد أن أفهم أولا من أين جاءت كتاباتها. فقد جرى تحول كبير على أعمالها مع مرور الزمن ويبدو ذلك أشبه بكاتب غيّر جلده.

● كانت هناك مؤلفات ظهرت من قبل حول شخصها

– مؤلفات كثيرة. ولكن هذه الكتب كانت أشبه بصدى لما يرد في رواياتها، وذلك باستثناء كتاب فردريك ليبيلي «مرجريت دوراس أو نفوذ قلم» الذي يشبه مع ذلك دراسة عنها أكثر من سيرة لها. وعلى أية حال فقد بذلت دوراس كل ما في وسعها للحيلولة دون نشر هذا الكتاب.

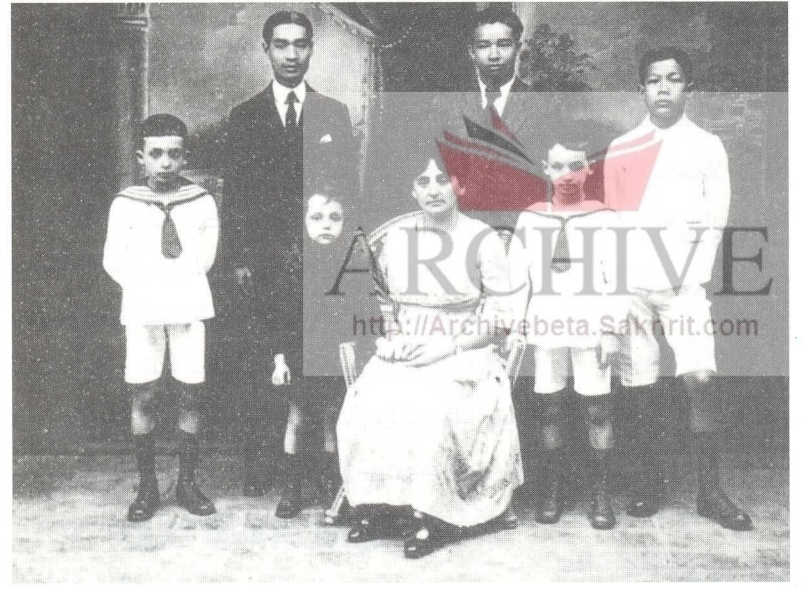
● كيف عملت معها؟

– كانت مرجريت ترفض الكتابة عن شخصها،



فتاة يافعة في الهند الصينية في عام 1929.

أسرة دوناديو، في 1920، مرجريت وأمها وسط الأخين.



ولكنني عدت لكي أقابلها، وقرأت من جديد كتبها حسب ترتيب نشرها، ووجهت إليها أسئلة على أساس تلك القراءات. واستغرقت مناقشاتنا عدة شهور، بمستويات متفاوتة. كنا نتقابل في البداية عصر كل يوم خميس، وعندما بدأت تأليف كتابي حول السنة الأخيرة لرئاسة فرانسوا ميتران، واصلت محادثاتي الهاتفية معها، ولكني لم أقابلها بعد ذلك أبدا. أغلق يان أندريا الباب أمام كل الناس عندما ساءت صحتها.

● لقد فحصت أيضا وثائقها؟

– أطلعت على الوثائق الموجودة عند جاليمار، واتصلت بالأشخاص الذين عرفوها. وقرأت مراسلاتها مع مختلف الناشرين واكتشفت أنها كانت تحلم بأن تصبح ناشرة. وقد اقتفيت أيضا أثر محفوظات أخرى في فرنسا وفي فيتنام.

وسمح لي أخيرا جان ماسكولو، ابن مرجريت، بأن أطلع على ثمانية عشر ملفا تتضمن أوراقا غير مرتبة لم يسبق أن قرأها أحد.

● يتبين من السيرة التي كتبتها أنها شخصية ملتبسة لم يكن موقفها السياسي أو الشخصي صافيا دائما حول الاستعمار مثلا...

– كانت تشارك أناسا عديدين في مشاعرهم وترى أن المستعمرات تشكل ثروة بالنسبة لفرنسا. كانت مؤيدة بصراحة للاستعمار. بل إنها شاركت في التوقيع على كتاب حول تمجيد المستعمرات عنوانه «الإمبراطورية الفرنسية». وهي لم تصبح معادية بشدة للاستعمار إلا أثناء حرب الجزائر، حيث عرضت نفسها لمخاطر إخفاء أسلحة عندها.

● موقفها أثناء احتلال فرنسا لم يكن هو أيضا واضحا؟

– لقد تصرفت هنا أيضا مثل العديد من الفرنسيين، ولكنها تصنعت دائما نسيان ذلك. كانت بالأحرى مؤيدة لبيتان وقبلت المشاركة في لجنة للكتاب خاضعة عن كتب لرقابة الألمان. وكانت مكلفة بصرف أو عدم صرف الورق للناشرين. وقد قللت دائما من دورها، وزعمت أنها لم تكن سوى سكرتيرة بسيطة، ولكن هذا غير صحيح. فحتى نهاية عام1942 تعاونت إذن مع جهاز خاضع لقيادة الألمان، بينما ادعت أنها كانت مقاومة كبيرة.

● ولكنها شاركت فعلا في المقاومة

– لقد عملت كمسؤول اتصال في عام1943. وارتضت المخاطرة بأن تؤوي عندها جاك بنيه الهارب من ألمانيا، وماجرى بعد ذلك كان معقدا بقدر أكبر. فقد ألقي القبض على زوجها روبير إنتلم، وفي هذه الفترة لم تكن معه – فقد كانت على علاقة مع ديونيس ماسكولو – وإن ظلت على ارتباط شديد به. ولم تكف عن البحث عن روبير وذهبت إلى مقر الجستابو للحصول على معلومات عنه. وقابلت آنذاك المدعو دلفال الذي أكد لها أنه ألقى القبض على زوجها. وقد عقدت طوال عدة شهور علاقة خاصة للغاية مع ذلك الرجل.

● جرى عندئذ حدث جديد بمسرحية هزلية خفيفة

– لقد استبسلت عند التحرير لكي يتم إلقاء القبض على ذلك الدلفال. وأرسلت ديونيس ماسكولو إلى بيته. وكان دلفال في السجن أصلا، ولكن ماسكولو وقع في غرام مدام دلفال التي أنجب منها طفلا. ولم تدر مرجريت بذلك أبدا.

● هل كانت تحب الرجلين إنتلم وماسكولو بالطريقة نفسها؟

– أعتقد أن روبير إنتلم كان الرجل الذي أحبته أكثر من شخص آخر. ولكنها كانت تهيم بديونيس ماسكولو. وقد كتبت له خطابات مثيرة للذكريات إلى حد لم أستطع معه أن أنقلها.

● في نهاية الحرب انضمت هي وروبير إنتلم وديونيس ماسكولو لصفوف الحزب الشيوعي. وقد طردوا منه بعد فترة بناء على وشاية.

– لقد أكدوا جميعهم في ذلك الوقت أن جورج سمبروم وشى بهم. وهو ينكر ذلك ولكن الموضوع لايزال حساسا.

● لقد اكتشفت كذلك من خلال فحصك لمحفوظاتها الخاصة أن «العاشق» لم يكن ذلك الشخص الذي تصورناه.

لقد انتقمت بالفعل من أمها بإعادة كتابة القصة بطريقتها الخاصة. لم تكن قصة حب، ولكن أمها باعت ابنتها للعاشق، لا لأنها كانت في حاجة إلى نقود لنفسها ولكن من أجل ابنها الذي كان يدمن المخدرات. ومع ذلك فقد بدا لمرجريت لأول مرة أنه أصبح لها كيان في نظر أمها عندما جاءت إليها بتلك النقود. وأعتقد أن رغبتها في الكتابة قامت على هذا الأساس.

● كانت أمها فظيعة على مايبدو

– يقال إنها كانت متسلطة وفظة. وقد قضت مرجريت حياتها في محاولة كسب حبها لها، كما أنها اختارت دائما رجالاً خدعوها.

● كيف تفسرين ذلك الميل إلى تكرار كتابة المؤلف نفسه: «سد ضد المحيط الهادئ»، «العاشق»، ثم «عاشق الصين الشمالية» مثلا؟

– لم يكن ذلك تسلط قصة على ذهنها، بل كانت تريد بالأحرى أن تصارع اللغة بتنويع أشكال الكتابة. أما الموضوع فكان يحتل المرتبة الثانية بالنسبة لها.

● لقد خضعت لمختلف التأثيرات في أسلوبها

– إليو فيتوريند بالأخص، وهو كاتب ومفكر إيطالي كان له تأثير ضخم على أسلوبها في الكتابة، سواء في اللغة ذاتها أو في طريقتها في وضع نفسها داخل الشخصيات. وهذا الوحي محسوس منذ مؤلفها «خيول تاركينا الصغيرة».

● أقل ما يمكن أن يقال إنها لم تحرز النجاح فوراً

– لقد عانت من أجل أن تنشر روايتها الأولى ولكن ريمون كينو الذي كان يعمل عند جاليمار كان يؤمن بموهبتها وشجعها. ومع ذلك لم يكن أحد في المحيطين بها طوال السنوات الخمسة عشرة أو العشرين الأولى من كتابتها يعتبرها كاتبة. ولم يحل ذلك دون أن تكتب بغزارة طوال أربع أو خمس ساعات كل يوم، وأن تواصل النشر وسط اللامبالاة الكبيرة وبطبعات لا تتعدى بضع مئات من النسخ.

● لقد تغيرت كثيرا بعد رواية «العاشق» التي حصلت على جائزة جونكور وجعلتها معروفة بالنسبة للجمهور العريض. هل يمكننا أن نقول إنه كان هناك ما قبل «العاشق» ومابعده؟

– كان ذلك تحولا بالفعل لأنها أصبحت تؤمن منذ تلك اللحظة بقدر أكبر بما كانت تكتب بالمقارنة مع ما عاشته، حتى وإن كانت هناك فجوات رائعة مثل إميلي إي. بيد أنها كانت تتصور أنها ليست أقل أهمية من رئيس الجمهورية.

● **كانت فقيرة ثم غنية. وكان سلوكها إزاء المال معقدا هو أيضا.**

– كانت تختلس السكر من الحانات وتكشف في الوقت نفسه عن كرمها بأن تساعد أصدقاءها المحتاجين. غير أنها كانت تقيم فعلا علاقة مرضية مع المال. كانت تحرص على أن تذكر أسعار الأشياء – بلوفرها، وتنورتها، وسيارتها – وعندما كانت تطهو، كانت تذكر كم كلفها كل صحن. وكانت تستثمر بكثرة في العقارات وتشعر بخوف حقيقي من العوز.

● **أتصور أن البحث الذي أجريته قلب رأسا على عقب الصورة التي كانت لديك عن دوراس.**

– قبل ذلك كانت مرجريت بالنسبة لي كاتبة عظيمة قضت طفولتها في المستعمرات وعاشت حياة ملتزمة وعرضت نفسها لمخاطر كثيرة. ومرجريت اليوم بنت صغيرة أمضت حياة مدمرة، وعانت عذابات وآلاماً كثيرة. وكانت أمها عنيفة للغاية فلجأت إلى كافة السبل لكي تثبت أن لها وجودا. وعلى أية حال فإن كتابها الأخير «هذا كل مافي الأمر» وهي على وشك الموت، لا يتحدث إلا عن أمها.

حوار أجرته باسكال فراي

لمزيد من المعلومات

* المجلة الفرنسية الجديدة، العدد رقم 542 / مارس 1998، 62 فرنكا فرنسيا.

* نشرت المجلة في هذا العدد إسهامات 18 كاتباً في تحية ذكرى مرجريت دوراس. وفضلاً عن الدوراسيين الرسميين، هناك بالأخص الإسهامات المتألقة لجوليا كريستيفا. ونانسي هوتسون، وفرنسيس مارماند، وبيير مرتنز..الخ.

* «الصديقة»، بقلم ميشيل مانسو، 218 صفحة، الناشر: البان ميشيل، 89 فرنكا فرنسيا مشاهدات ومعلومات. رواية حميمة لصداقة دامت ثلاثين سنة وجرت أحداثها في نوفل لي شاتو وكتبت هناك.

* «مرجريت دوراس ومواقع الكتابة الثلاثة»، بقلم آلييت آرمل، 150 صفحة، الناشر كريستيان بيرو، 110 فرنكات فرنسية.

* المواقع شارع سان – بنوا (باريس6)، نوفل لي شاتوه (بمقاطعة إيفلين)، تروفيل (بمقاطعة كالفادوس)، نزهة تذكارية مصورة، سجل لقطاتها آلان جيبون.

روائي برتغالي يفوز بجائزة نوبل

المجد يذهب إلى واقعية ساراماجو المخادعة

بقلم : آلان رايدنج

منحت الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب هذا العام لخوسيه ساراماجو، الكاتب البرتغالي ابن الخامسة والسبعين، الذي احترف الأدب في سن متأخرة نسبيا والذي حظيت رواياته الشديدة الثراء في خيالها بمتابعة قرائه المتحمسين في سائر أنحاء أوروبا ومعجبيه الكثيرين في الولايات المتحدة.

والواقع أن خوسيه ساراموجا، الطويل القامة الأصلع الرأس الذي تمنحه نظاراته الكبيرة المزيد من الجلال والهيبة، هو أول كاتب يكتب باللغة البرتغالية – وواحد من أوائل الشيوعيين الملتزمين – يصبح حائزا على جائزة نوبل.

وهو أيضا رابع أوروبي يفوز على التوالي بالجائزة، بعد داريو فو الإيطالي (1997)، وفيسلفا سمبروسكا البولندية (1996) وسيموس هايني الإيرلندي في 1995.

وفي حيثيات فوزه بالجائزة، أشادت الأكاديمية السويدية بخوسيه ساراماجو «الذي يمكننا باستمرار مجددا من إدراك واقع مخادع من خلال حكاياته الرمزية الحافلة بالخيال، والحنين والمفارقة».

وأشهر أعماله «بالتاسار وبليموندا»، و«سنة موت ريكاردو رايس»، و«الطوف الصخري»، و«تاريخ حصار لشبونة». أما آخر أعماله المترجمة إلى الإنجليزية، وهي رواية «العمى» التي يصاب كل أبطالها ما عدا واحد فقط بعمى غامض، فقد وصفها أندرو ميلر في New York Times Book Review يوم الأحد الماضي بأنها «روايته السيمفونية الجديدة».

وأضاف أندرو ميلر، وهو نفسه روائي، أنه «ليس هناك هجاء للواقع ولا استنتاجات، فقط إدراك عين صافية وحانية للأشياء كما هي، من ذلك النوع الذي يمكن أن نسميه بأمانة حكمة».

وكان ساراماجو قد علم بفوزه بالجائزة يوم الخميس في مطار فرانكفورت، حيث كان يستعد للعودة إلى بيته في جزيرة لانزاروتي، أحد جزر الكناري، بعد حضوره معرض فرانكفورت للكتاب. وكان قد شارك هذا الأسبوع في مائدة مستديرة للكتاب البرتغاليين موضوعها «لماذا مازلت شيوعيا؟». وسرعان ما عاد مجددا إلى

العنوان الأصلي للمقال:
Portuguese Novelist Awarded Nobel Prize نشر في الـ Herald Tribune عدد 9 أكتوبر 1998

معرض الكتاب، حيث استقبل بالتصفيق وبباقات الورود.

وقد قال: «إنني شخصيا سعيد جدا من أجل نفسي. وسعيد أيضا من أجل بلادي».

وفي وقت لاحق، قال في مؤتمر صحافي: «تعين على الثقافة البرتغالية أن تنتظر مئة عام من أجل هذا. لابد من وجود طرق ووسائل لحماية اللغة حتى لا تصبح متحفا، فهي شيء حي. أما دور الكاتب فهو حمايتها والعمل معها».

وقد احتفلت لشبونة بالجائزة، حيث وصفها الرئيس البرتغالي خورخي سامبايو بأنها «اعتراف بالثقافة البرتغالية»، بينما اعتبرها القائد الشيوعي كارلوس كالفارهو تعزيزا لمصداقية الحزب وقال: «بوصفه عضوا في حزبنا، قدم ساراماجو مساهمة كبيرة لمثلنا ولنضالنا من أجل التغيير الاجتماعي».

والأمر الاستثنائي أن ساراماجو، الذي نشرت له مجموعات شعرية، ومقالات، ومسرحيات، وأربعة أجزاء من يومياته وعشر روايات، بزغ نجمه كشخصية أدبية عندما كان في الستين من عمره. ومنذ ذلك الوقت، ترجمت أعماله إلى ثلاثين لغة، وحققت أعماله مبيعات ممتازة في البرتغال، والبرازيل، وأسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا، ومع أنه لم يحقق شهرة واسعة في الولايات المتحدة حتى الآن، إلا أن رواياته كانت دائما تحظى باستقبال رائع هناك.

ورغم أنه لم يحقق الشهرة إلا في سن متأخرة، فإنه حلم طويلا بأن يصبح كاتبا. فساراماجو، الذي ولد لعائلة من العمال الزراعيين نشأ في لشبونة، أجبره الفقر على ترك المدرسة وهو في سني مراهقته المبكرة وتعلم حرفة ميكانيكا السيارات. غير أنه نجح في أن ينشر رواية صغيرة وهو في الخامسة والعشرين. وفي وقت لاحق وجد عملا في إحدى دور النشر في لشبونة، لكن مناخ القمع والرقابة الذي فرضه الدكتاتور سالازار أحبطه عن الكتابة.

ولم يشعر بالحرية في أن يجد صوته إلا بعد ثورة 1974. وقد عمل ساراماجو، الذي كان عضوا في الحزب الشيوعي البرتغالي منذ العام 1969، رئيسا لتحرير صحيفة دياريو دينوتيسياس اللشبونية خلال الثمانية عشر شهرا التي أعقبت الثورة والتي بدا فيها اليسار على وشك الاستيلاء على السلطة. لكن الردة المعادية للشيوعية في نوفمبر 1975 أجبرته على ترك الصحيفة، وبدأ في ترجمة النصوص الفرنسية إلى اللغة البرتغالية حتى يجد قوت يومه.

وفي أواخر السبعينيات، تحول إلى كتابة الرواية، ونشر ثلاث روايات متتالية في الأعوام 1977، و1978 و1980. لكن عام 1982 هو الذي شهد انطلاقته على المستوى الدولي عندما نشر روايته «بالتاسار وبليموندا» (Memorial do Convento باللغة البرتغالية).

وقد وصفتها الأكاديمية السويدية في حيثيات منحه الجائزة بأنها: «نص ثري، متعدد الأوجه والمعاني يتمتع في الوقت نفسه بمنظور تاريخي واجتماعي وفردي. أما التبصر وثراء الخيال اللذان عبرت عنهما الرواية فهما من سمات أعمال ساراماجو بأسرها».

وتحكي الرواية، التي تدور أحداثها في برتغال القرن الثامن عشر إبان عهد محاكم التفتيش، محاولات المحارب العجوز بالتاسار وبليموندا الحالم الهرب إلى السماء على متن آلة طائرة تسيرها إرادات البشر الذين أسرهم بليموندا. وتجري أحداث هذه القصة الخيالية في مواجهة خلفية حقيقية للبناء القمعي لدير مافرا من خلال آلاف الرجال الذين سقطوا في قبضة محاكم التفتيش.

وفي روايته الثانية، «سنة موت ريكاردو رايس»، المهداة إلى الشاعر البرتغالي العظيم فرناندو بيسوا، الذي يظهر فيها كشبح، يضع ساراماجو الأحداث في السنوات الأولى لدكتاتورية سالازار ويروي فيها المحن الرومانسية والجنسية لطبيب شاعر. وقد وصفها هربرت متجانج في The New York Times Book Review بأنها: «رواية نادرة من الطراز القديم - فهي شاعرية، ورمزية وتأملية».

وقد سعى ساراماجو، الذي يبدو إحساسه الأدبي بالحرية واضحا في استخدامه غير التقليدي لعلامات الترقيم وللأزمنة المتناقضة، وراء شكل مختلف للحرية في روايته «الطوف الصخري»، حيث يتخيل التشوش الذي يتفجر عندما تبدأ شبه الجزيرة الإيبيرية في الانفصال عن بقية أوروبا وتأخذ في الإبحار صوب العالم الجديد وتهدد بالاصطدام بجزر الآزوري في شمال الأطلنطي. ولحسن حظ البريطانيين فإن جبل طارق يظل ملتصقا بأوروبا.

وليس من المستغرب أن روايته الهجائية المرة «البشارة وفقا للمسيح عيسى»، حيث يستخدم عيسى الإنساني البريء في خلق دين يبذر العنف وعدم التسامح، قد أثارت الكثير من الجدل والخلافات. فبينما رشحت هيئة تحكيم لشبونية الرواية لنيل الجائزة الأدبية الأوروبية في عام 1992، فإن الحكومة المحافظة عارضت هذا الترشيح معتبرة أن الرواية مليئة بالتجديف. وعندئذ قرر خوسيه ساراماجو أن يهجر شقته الصغيرة في لشبونة ويقيم في جزيرة لانزاروتي المنعزلة، أحد جزر الكناري.

أما «تاريخ حصار لشبونة» فهي حكاية نزوية غريبة الأطوار كانت بدايتها بقرار من مصحح لغوي نكرة في دار النشر أن يقحم أداة النفي «لم» في بداية استشهاد رئيسي من التاريخ المعروف للبرتغال. وقد وصف إدموند وايت في The New York Times Book Review هذا «العمل الإبداعي المجنون» بأنه قد «أخرج تماما ملحمة وطنية عن الخط» من خلال تأكيده أن الصليبيين في الواقع «لم» يساعدوا في القرن الثاني عشر في تحرير لشبونة من احتلال عرب الأندلس.

ومع نشر روايته «عمى» في الولايات المتحدة، فإن كل أعماله تكون قد ترجمت إلى الإنجليزية باستثناء روايته الأخيرة «كل الأسماء Todos os Nomes»، التي لاتزال تنتظر دورها في الترجمة.

وعلى خطى أندريه جيد وجوليان جرين، فإنه يعكف الآن على كتابة يومياته. وقد صدر الجزء الرابع منها للتو في لشبونة.

ومن المعروف أن قيمة جائزة نوبل هذا العام تقدر بنحو 985 ألف دولار أمريكي.

طريق كاتب لجائزة نوبل

بقلم : آلان رايدنج

عندما يتأمل حياته وهو في السادسة والسبعين، لايزال من الصعب على خوسيه ساراماجو أن يصدق أنه سيصبح في العاشر من ديسمبر في ستوكهولم أول روائي يكتب باللغة البرتغالية يحصل على جائزة نوبل للآداب. ولا يعود الأمر إلى أنه اختيار مفاجيء: كان ساراماجو بالفعل الاختيار المفضل للنقاد عندما ذهبت الجائزة لداريو فو الإيطالي. وهو يقول ببساطة: «أنا لم أولد لشيء من هذا القبيل».

فقد ولد لأب فلاح وأم لا تقرأ ولا تكتب، ونشأ في بيت لا يوجد به كتاب، وأمضى أربعين عاما تقريبا ليتحول من عامل تعدين إلى موظف حكومي ثم إلى محرر في دار نشر ثم إلى رئيس تحرير صحيفة. وأدت حادثة معاناته من البطالة وهو في منتصف الخمسينيات إلى المغامرة بالتفرغ للكتابة كمصدر وحيد لكسب العيش. وفي الستين من عمره فقط حظي بالاعتراف في وطنه وفي الخارج مع صدور روايته «بالتاسار وبليموندا» غير أنه إذا رغب في أن يذكر الناس بأنه لم يولد لشيء من هذا القبيل فإن الأمر لا يتعلق فقط بنجاحه في آخر العمر، وإنما يفسر أيضا أن أسلوبه الروائي الرائع، وصوته الساخر، وخياله الجامح والتيمات الرمزية في أعماله هي كلها نتاج لحياته قبل أن يصبح كاتبا. وهو يقول: «إن الأمر ببساطة يتعلق بماضٍ».

ويضرب هذا الماضي أيضا بجذوره عميقا في تاريخ وأدب بلد ظل لفترة طويلة أحد أفقر البلدان

العنوان الأصلي للمقال:
One Writer's Path to the Nobel for Literature نشر في جريدة الـInternational Herald Tribune
عدد 4 ديسمبر 1998

الأوروبية وأكثرها عزلة، وهو ما كان يمكن أن يؤثر في حجم الاهتمام به. لكن ساراماجو يشعر بأن هذا كان في مصلحته. وهو يقول: «أعتقد أنه كلما كان التعبير عن الجذور الثقافية لكاتب أكثر صدقا، كان مفهوما بدرجة أكبر لأبناء الثقافات الأخرى».

غير أن ساراماجو الموغل في برتغاليته يظل أيضا من الخارجين على مجتمعه، كاتب مادي وشيوعي في أرض كاثوليكية محافظة. وهو ما جعل الحكومة اليمينية البرتغالية تعترض في عام 1992 على روايته «البشارة وفقا للمسيح عيسى». فاستشاط ساراماجو غضبا ورحل عن لشبونة ليقيم في جزيرة بركانية برتغالية في مواجهة الساحل الغربي لأفريقيا مع زوجته الصحافية الأسبانية بيلار ديل ريو.

وعندما أعلن عن فوزه بالجائزة في أكتوبر، جاء الدور على الفاتيكان لكي يعرب عن حزنه لأنه للسنة الثانية على التوالي تذهب الجائزة لشخص يعتبره الفاتيكان معاديا للدين. ويتساءل ساراماجو منفعلا على غير عادته: «لماذا يتدخل الفاتيكان في هذه الأشياء؟ لماذا لا يهتم فقط برعاية المصلين؟ لماذا لا يفتح خزاناته بدلا من ذلك ويعرض الهياكل العظمية المحفوظة داخلها؟».

أما في البرتغال، التي امتلأت حوائطها بملصقات تحمل عبارة «تهانينا خوسيه ساراماجو»، فيستقبل الآن باعتباره ابنا عبقريا بارا. وهو يقول: «لقد أصبحت الجائزة حدثا وطنيا. فالناس يجيئون إلي لا ليهنئونني - وهو شيء طبيعي - لكن ليقولوا شكرا شكرا جزيلا. كما لو أن الجائزة ضرب من الاعتراف بكل أبناء بلدي، كما لو أن كل برتغالي قد ازداد طوله بوصة كاملة».

وقد أنهت الجائزة محنة ساراماجو على نحو قاطع ومفاجىء، وابتلته بتقلبات الشهرة المفاجئة، وهو موضوع عالجه بسخرية في آخر رواياته «كل الأسماء Todos os Nomes»، التي لم تترجم بعد إلى الإنجليزية. لكن الاحتفالات الصاخبة التي شهدتها الأسابيع الأخيرة جعلته يتأمل مجددا حياته، ليفتش في ماضيه عن الحوادث والمؤثرات التي قد تفسر ما ولماذا وكيف كتب؟.

ويبقى حادثان عالقان بذهنه من مرحلة الطفولة. فرغم أن والديه قد انتقلا إلى لشبونة عام 1924، عندما كان لايزال في الثانية من عمره، إلا أنه كان في العادة يمضي عطلاته مع جديه في مسقط رأسه في قرية أزينهاجان في منطقة ريباتيخو. وكان جداه يربيان الخنازير، وكانا يأخذان صغار الخنازير معهما إلى فراشهما في ليالي الشتاء الباردة. ويتذكر ذلك قائلا وهو مغمض العينين: «بوسعنا أن نتخيل العجوزين، مغطيين بالبطاطين، في بيت بارد، والصقيع في الخارج، وبينهما، مثل أطفالهما، اثنان أو ثلاثة من الخنازير الصغيرة، يدفئانها بحرارة جسديهما. وبالطبع ستقتل هذه الصغار في وقت لاحق، لكن الحياة كانت هكذا».

ويتذكر أن جده قد أصيب بأزمة قلبية بعد ذلك بعامين وتطلب الأمر نقله إلى لشبونة لتلقي العلاج. ويقول ساراماجو: «ذهب إلى باحة منزله، حيث كان هناك بضع أشجار، أشجار تين وزيتون. ذهب إليها الشجرة تلو الأخرى، كان يتحسسها ويبكي، وودعها جميعها لأنه عرف أنه لن يعود إليها ثانية. أن ترى هذا، وتعيش هذا، ولا يبقى راسخا في نفسك طوال العمر، فأنت لا أحاسيس لديك».

وفي المدرسة الابتدائية، أحب خوسيه الصغير

القراءة والكتابة، لكن مع عدم توفر النقود للاستمرار في الدراسة اضطر، وهو في الثانية عشرة، للانتساب إلى معهد مهني ليتعلم مهنة التعدين. ومن حسن حظه أيضا أن المعهد كان يدرس مادة الأدب أيضا.

وعندما بدأ يعمل كعامل تعدين، وهو في السابعة عشرة، كان يحلم أن يصبح كاتبا. فقام بتغيير وظيفته وعمل كاتبا في مستشفى وبدأ يمضي الأمسيات في المكتبة المحلية. وهو يقول: «عندما كنت في الخامسة والعشرين، كتبت رواية «أرض الآثام»، ولدهشتي فقد نشرت، لكنها مرت دون أن ينتبه لها أحد».

لكنه عندما أرسل قصة أخرى إلى الناشر ولم يرها ثانية أبدا، توقف عن الكتابة. وعندما يتذكر ذلك يقول: «أعتقد أنني لم أكن واعيا لذلك آنذاك. لكنني عندما أفكر فيه الآن، أتصور أنني توصلت لاستنتاج أنني لم أكن أملك شيئا مهما لأقوله. لذا فقد أمضيت عشرين عاما، من 1947 حتى 1966، دون أن أنشر حرفا واحدا. ولم أكن حتى أجمع خبراتي لكي أكتب عنها في وقت لاحق. كانت فترة الكتابة لدي قد انتهت. كنت فقط أعيش حياتي».

وفي الستينيات، عندما كان يعمل في دار نشر في لشبونة، أصدر ديواني شعر، لكن لا شيء آخر أكثر طموحا. وكانت البرتغال في ذلك الوقت ترزح تحت حكم دكتاتورية يمينية أمسكت بخناقها منذ العام 1926، لكن هذا لا يفسر صمت ساراماجو. وهو يقول: «لم أكن ضحية للقمع الفاشي. فقد كان هناك كتاب كبار واصلوا الكتابة رغم كل الظروف. لكنني لم أتحمل أي مخاطرة لأنه لم يكن لدي ما أقوله».

غير أن هذا كان على المستوى الأدبي فقط. لكنه منذ أن انضم إلى الحزب الشيوعي في العام 1969، بدأ يكتب افتتاحيات صحيفة لشبونية ويناضل يوميا ضد الرقباء الرسميين. وعندما أطاحت ثورة 1974 بالنظام القديم، عين نائبا لرئيس تحرير صحيفة «دياريو دي نوتيسيايس» التي أممت وأصبحت ذات صبغة شيوعية، لكنه طرد من وظيفته بعد حركة الثورة المضادة المناهضة للشيوعية في نوفمبر 1975.

وهو يقول: «أشعر أحيانا بالامتنان لهذا التطور لأنه حولني إلى كاتب. فعندما وجدت نفسي بلا عمل، مهزوما سياسيا، قررت أنه قد آن الأوان لكي أقرر إذا كنت كاتبا حقيقة. شعرت أن لدي ما أقوله، لكنني لم أعرف ما هو. وفي «كتيب الرسم والخط»، الذي نشر في عام 1977، وهو عن رسام يتأمل في سوء رسمه، طرحت على نحو غير مباشر السؤال الأساسي: و«الآن خوسيه، ماذا ستكتب؟»».

واليوم، ومع ترجمة كتبه إلى خمس وعشرين لغة، لم تعد جاذبية رواياته لغزا عصيا على الفهم. وهو يقول: «أعتقد أن الموضوعات التي أعالجها قضايا تهم كل إنسان. فأنا أفكر في علاقتي أنا بالعالم، وبالمجتمع، وبالزمن والتاريخ. وهناك أيضا أسلوب السرد، درجة أقل أو أكثر من المشاعر، ونظرة ساخرة إلى المؤسسات القوية، وربما كل هذه العناصر معاً».

ويضيف: «أنا في النهاية كاتب برتغالي فقط. قد يلجأ البعض إلى إطلاق التسميات، مثل «جارثيا ماركيز أوروبا»، لكنني لا أعتقد أن هذا الأمر صحيح. فهناك اختلافات كثيرة بيننا، تصب كلها لصالح جارثيا ماركيز. غير أنني أعتقد أن عملي نتاج مباشر لخيالي، وهمومي. لقد عشت دائما في عزلة. وقرأت كل شيء. لكن جذوري تبقى برتغالية».

حوار مع خوسيه ساراماجو

خواء الشهــرة وثمن الجائزة

حوار: ميجيل يوست

عندما حصل خوسيه ساراماجو على جائزة نوبل للآداب، فإن هذا لم يغير وجهة نظره في خواء الشهرة.

● في روايتك الأخيرة قلت إن الشهرة ريح تأتي وتذهب. ما الذي جعلك تكتب عن الشهرة ؟

– ربما لم أكن لأكتب عنها لو لم تكن الشخصية الرئيسية بطل الرواية – وهو ليس ببطل بالمعنى الحقيقي للكلمة لكننا نسميه بطلا – وهو موظف مكتبي يشغل نفسه في أوقات فراغه في جمع قصاصات أخبار الناس وصورهم الفوتوغرافية من الصحف والمجلات. ولم تكن مجموعته تتعلق بنشاط أو بمهنة معينة، فالكل سواء بالنسبة له بغض النظر عما إذا كانوا فنانين أو رياضيين. وأفترض، ولست واثقا من ذلك، أن مجموعته تضم أخبار بعض الكتاب. وقد قسم مشاهيره درجات تبدأ من صفر إلى مئة، وخلفهم عدد من الشخصيات التي يمكن أن تنتقل في أي يوم من الفئة الثانية للشهرة إلى الفئة الأولى. ولا يبدو أن هذا التقلب يحدث بشكل عشوائي كما قد يتصور البعض.

والشهرة في المقام الأول ليست إيجابية في ذاتها، وفي أحيان كثيرة يشتهر شخص ما لأسباب سلبية. لذا فإن الشهرة لا تعني شيئا آخر سوى أن تكون معروفاً. لكن هناك مستوى لكل شيء. فنحن كلنا معروفون بدرجة أو بأخرى، رغم أن هذا قد يحدث في الشارع الذي نقطن فيه، أو في دائرة أصدقائنا أو في العمل، حيث يتحدثون عنا بالخير أو بالشر. ثم يأتي

العنوان الأصلي للمقال:
Paying the Nobel price، ونشر في The Independent On Sunday عدد ١١ أكتوبر 1998

وقت يصبح شخص ما معروفا لعالم أوسع، في بلدته، في بلده، في عدة بلدان، أو في القارة التي يعيش فيها أو في سائر أنحاء العالم، لكن في كل الأحوال تبقى أغلبية الناس لا تعرف الشخص المشهور.

والشيء الإيجابي الوحيد الذي وجدته في الأمر. على افتراض أنني وصلت إلى درجة أصبحت فيها معروفا إلى حد ما لدى العالم الخارجي، هو أنه مكنني من التعرف على مزيد من الناس وليس العكس، أي أن يعرفني المزيد من الناس.

● **هذا التلاقي مع الآخرين، هل هو التعويض الوحيد لكونك أصبحت مشهوراً بين العامة؟**

– عندما يتلقى كاتب رسائل من قرائه، فإن هذه الرسائل تكون موجهة للكاتب لكن الدافع لها يكون أسبابا خارج نطاق الأدب. ولا يعني هذا أن هذه الرسائل لا تتضمن أي حديث عن الأدب أو الكتب، فالرسالة تتحدث بالطبع عن كتب قرأها كاتب الرسالة أو أشياء من هذا القبيل، لكن الرسالة تتحدث قبل كل شيء عما يدور في ذهن أو مشاعر أو قلب كاتب الرسالة من خلال حقيقة أن علاقة قد نشأت، بفضل قراءة الكتاب، ليس فقط بين قارىء ومؤلف وإنما أيضا بين إنسان وإنسان، أي بينه وبين المؤلف. وهذا نوع من التعويض. وفي هذا الصدد يمكنك أن تقول إن هناك شيئا جيدا في الشهرة. والآن يمكن أن يحدث هذا أيضا مع كاتب. ويمكن أن يحدث مع شخص ما يعبر عن الأفكار، والمشاعر والأشياء المشابهة الأخرى، لكن هناك مشاهير آخرين: مثل الرياضي، رغم أنه يتلقى رسائل وطلبات توقيع الأوتوجرافات. لكن أحدا لا يكتب إليهم ليتحدث عن حياته. إذن هناك مشاهير ومشاهير، والحقيقة أن بعض صغار المشاهير– عندما أتحدث عن صغار المشاهير فإنني أقصد بذلك نفسي على سبيل المثال– أكثر ثراء في مكانتهم، وعلاقاتهم وصداقاتهم وفي مقاربتهم للناس بالمقارنة مع مشاهير آخرين مثل رونالدو على سبيل المثال، فهو أكثر شهرة مني ومن أي كاتب آخر في أوروبا أو أمريكا. رونالدو معروف للعالم أجمع، لكن أحدا في أسبانيا أو البرازيل يمكن أن يكتب له رسالة ليقول له: «تخيل – إن الهدف الذي سجلته جعلني أعيد التفكير في حياتي، وفي مشاعري، وفي كل ما أفعله». لذا فإن الشهرة ليست خيلاء فارغة في ذاتها، لكن إذا سعدت بها هكذا فستصبح كذلك، مجرد خيلاء فارغة. وفي الحالة الأخرى تضيف الشهرة المزيد والمزيد من المسؤوليات على عاتقك. ربما تكون لحظة زائلة، لكن إذا كان لديك أسباب تجعلك تعتقد أن ما تفعله هو أمر مهم لدائرة أوسع أو أضيق من الناس، فإن هذا، كما قلت، قد يمنحك صورة تستمتع بها، لكنه

يلقي عليك أيضا بمزيد من المسؤوليات، لأن الناس تصبح أكثر استعدادا للتأثر بما تقول، وبما تفكر فيه، والأهم من هذا وذاك أنهم يصبحون أكثرا استعدادا للتأثر بسلوكك، لأن الأمر ليس هو فقط مسألة ما تقول أو تعتقد، فهذه مجرد كلمات، وبالنسبة للناس، الذين هم في هذه الحالة قراؤك، فإن الكلمات لا تكفي.

● هل هي مخدر ؟

– لا، لا أعتقد ذلك، إذا أخذت في الاعتبار أن كل شيء في الوجود نسبي ومشكوك فيه. أعتقد أننا نأخذ هذه الأمور بجدية مبالغ فيها. حياتك قد تستمر ستين أو سبعين أو ثمانين أو مئة عام. وهذا لا شيء. أنت مكتوب عليك أن تكون لا شيء، وبالإضافة إلى ذلك أنت مكتوب عليك أن تكون ما كنته. كل هذا سيذهب إلى النسيان. كله سيختفي. كله سينتهي بعد بضعة قرون، أو بعد بضع سنين، وفقا للأهمية، أو اللاأهمية. أما إذا كنت تؤمن بأبدية الشهرة وإن هذا سيؤدي بالأجيال القادمة إلى أن تظل تنطق اسمك، وأنها ستظل تذكر اسمك إلى الأبد بالتبجيل والاحترام، فإنك تخدع نفسك، وهذا بالتأكيد سيصبح مخدرا. والآن، إذا تصورت أن لحظة ستأتي تتوقف فيها عن الكتابة رغم أنك ستظل تحيا، فأنت لا تكتب لأن الأمر انتهى بالنسبة لك ولم يعد لديك شيء تقوله، وبعيدا عن احترامك لنفسك يتعين عليك أن تصمت، أو أنه يتعين عليك فعلا أن تصمت بينما أنت مستمر في الكتابة، لذا فستشعر حتى آخر يوم في حياتك بأنك على أفضل ما يرام لأن الناس لاتزال تصفق لك... علينا أن ندرك أن هذا لا يبقى، وأنا أقول إنني مستعد، ليس من خلال حقيقة أنني فكرت في هذا الأمر، لكن من خلال طبيعتي، لذا فإنه في الغد، أو في اليوم التالي، أو في يوم ما لا أعلم متى سيجيء، أو ماذا سأفعل حتى – أو عندما – يجيء، حينئذ سيتوقف الناس عن الاهتمام بي، وسيقال إن شهرة هذا الرجل المهذب قد انتهت – انتهت مثل شهرة آخرين كثيرين، والشيء الوحيد المؤكد هو أن العالم سيمضي في سبيله دون أن يحدث أي شيء يذكر.

● هل تصورت يوما وضعا مثل الذي أنت فيه الآن، مشهور ومحتفى بك ورائج جدا؟

– لا، لا، على الإطلاق. فقد أمضيت كل حياتي تقريبا كمواطن متحفظ مع أصدقائي، مع أناس قليلين يعرفونني، وحتى عندما بدأت الكتابة كان عدد قرائي يقدر بالعشرات، ولم يكن هناك من صدى لها تماما كما لو كنت أكتب أعمدة في الصحف ثم أجمعها لأنشرها مجددا في شكل كتاب. صحيح أن الخيلاء التافهة لرؤية عملك منشورا قد منحتني بعض المتعة من ذلك النوع العادي جدا، لكن حتى في هذه

الحالة فإنني عندما نشرت أربعة وخمسة وستة كتب وأكثر بقيت غير مشهور، وتعودت على ألا أكون مشهوراً. لم أكن مشهورا من قبل، ولم أصبح مشهورا حتى عندما بدأت أكتب وأنشر أعمالي، لكن عند لحظة معينة دون أن أعرف كيف ولماذا – وحتى لو عرفت، من الأسهل أن تعرف متى أكثر من كيف – بدأت الشهرة النسبية تطرق بابي لأنني كتبت بعض الروايات التي قرأها وأحبها الناس. والآن فإن الأمر الأكثر تعقيدا هو أن تفهم لماذا، فأنت ستسعد بالطبع إذا قالوا إنهم أحبوا كتابك، لكن من الأفضل ألا تسألهم لماذا أحبوه، لأنهم لن يستطيعوا أن يخبروك. حدث لي ليس مرة واحدة فقط بل مرات عديدة أن يجيء إلي شخص ما ويقول: «قراءة كتابك غيّرت حياتي». وكنت دائما أود أن أسأله: «وكيف تغيرت، كيف كنت قبل ذلك، وكيف أنت الآن؟ وعلى أي نحو تغيرت حياتك؟». ما الذي أقصده بذلك؟ أقصد أنني، رغم الشهرة التي أتمتع بها، مازلت أكثر الناس اندهاشا. فحفل كالذي أقاموه لي بالأمس كان عاطفيا للغاية وأنت تشعر كما لو أنك ترتجف حتى نخاع عظامك، وحتى عظامك نفسها، ويبدو كل شيء واضحا، لأنني ألفت بعض كتب، لأنني قلت بعض كلمات، وكل هذا، لكن الـ«لماذا؟» الحقيقية بقت بلا جواب، ولسبب واضح جدا، لأن «لماذا؟» كل واحد منا في علاقته بتلك الشهرة المعقدة شديدة التعقيد. والواقع أنني أحب أن أرى هذا الإحساس بالتعقيد يبقى على حاله. لا أرغب في معرفة الـ«لماذا؟»، لأنني لو عرفت الـ«لماذا؟» والـ«كيف» فقد يؤثر هذا علي عندما أبدأ في الكتابة. قد أتنبه لذلك وأكتب ملاحظة عنه. لكنني أفضل ألا أفعل ذلك على الإطلاق، أنا أفضل أن أعيش حياتي أفعل ما أريد.

● هل انتابك يوما شعور بالهجران، أو أن أحداً لا يتذكرك؟

– لا، لأنني كل يومين أو ثلاثة أتلقى إشارات من أناس آخرين، لأنني أتلقى خطابات أتلقى كميات هائلة منها. الرسائل هي جواهر الإنسانية.

● تحدثت من قبل عن صحف النميمة في أسبانيا. هل يعامل المشاهير على نحو مختلف في البرتغال؟

– لا، على النحو نفسه قريبا، لكن هناك كل شيء أصغر، بما في ذلك عالم المشاهير، وربما لأن كل شيء أصغر فإن الأمر هناك أكثر سخرية.

● ما درجة الغرور التي يمكن للكاتب أن يمنحها لنفسه؟

– يمكنني الإجابة إذا كنت أعرف درجات الغرور المسموح بها. والكتاب ليسوا أكثر

غرورا من الناس الآخرين. فالمسألة أنهم إذا فعلوا شيئا يصبح هذا الشيء محط اهتمام الآخرين، لذا فهم أكثر حساسية فيما يتعلق بالغرور. والحقيقة أن غرورهم أكثر هشاشة مقارنة بالآخرين، فهم بشر، واهتمام الرأي العام بهم يجعل غرورهم أكثر هشاشة، وأسهل أن نجردهم منه، وبالتالي فمن السهل أن نلاحظه فيهم.

● ما درجة غرورك ؟

– لا أعرف، ومن الأفضل أن يخبرك الآخرون عن ذلك، هناك أناس يعتقدون، بل ويقولون، إنني مغرور. وأنا أعترف أن الغرور صفة إنسانية فالكلاب لا تشعر بالغرور. وأعتقد أن درجة غروري تبقى معقولة.

● هناك كتاب مثل صمويل بيكيت راودتهم غواية الانسحاب من العالم. هل راودتك هذه الغواية يوما ؟

– لا، والعالم بالنسبة لي ليس هو الإطراء والتصفيق، لأن العالم، وها نحن نعود للموضوع مرة أخرى، يهجوك في اللحظة نفسها – وبالقدر نفسه الذي – التي يطريك فيها. لا يمكنك أن تعيش في عزلة أكثر، لكن بغض البشر شيء لا أفهمه، وكذلك رفض العالم. من أنا لأرفض العالم؟ رفض العالم يعني أنني لدي فكرة أعلى عن نفسي.

● تحدثنا عن الشهرة باعتبارها هشاشة وعن رونالدو. هل الشخص الشهير دائما على حافة الهاوية ؟

– دائما، دائما، على الحافة يوميا. إن الأمر أشبه إلى حد ما بالسيرك، مثل مشاهد يصاحب سيركا صغيرا جوالا كل يوم لأنه يتصور أن لاعب الأكروبات سيسقط عن الحبل يوما ما. هناك شبه كبير بين الحالتين، فهناك أناس ينتظرون من الشهير أن يسقط، وترى الابتهاج الضاري في كل مرة يحدث هذا فيها.

● وبالتالي فإن الشخص الشهير يبتغي الخلود. فماذا لو كان ماديا؟

– سيصبح الوضع أسوأ بكثير. فأنا لا أؤمن بالخلود، وأعرف تمام المعرفة أن بعض الأشياء تموت قبل أوانها. لكن فيما يتعلق بالشهرة التي حققتها، أنا لا أحب أن أسميها شهرة. وأقول لك صراحة، أنا لا أحب أن أكون شهيرا، ولا أفكر في نفسي كشهير.

● ماذا أنت إذن ؟

– لا أعرف. الشهرة شيء آخر، فالآن كل شيء مستهلك ويمضي بسرعة فائقة، أما الشهرة التي تبقى فهي شهرة المبدعين الذين يحيون ألمهم الشخصي، أما غير ذلك فكل شيء مجرد ديكور.

الأوديسة الشاردة

عودة الرواية إلى شرط الشعر

بقلم : خوسيه ساراماجو

من القصيدة إلى الرواية : طريق، رحلة عبر زمان ومكان وعوالم مختلفة، من قصائد هومير إلى مارسيل بروست أو جيمس جويس، عبر حكايات ألف ليلة وليلة، والملاحم الهندية، وقصص الكتاب المقدس ونشيد الإنشاد، وعبر الحكايات الإيرلندية الخرافية Milesian fables ، والحمار الذهبي The Golden Ass، وعبر قصائد الفروسية الملحمية Chansons de geste ، وقصص رولان البطولية The romances of roland وحكايات البحث عن الكأس المقدسة، وألكسندر Alexander، وروبين هود، وحكاية الوردة Roman de la rose وحكاية رينارد Roman de Renart، وعبر جارجانتوا Gargantua، وديكاميرون، وأماديس جاول Amadis of Gaul ودون كيشوت، وكذلك رحلات جاليفر وروبنسون كروزو، وفرتر Werther وتوم جونز، ومرورا بإيفانهوي Ivanhoe والفرسان الثلاثة، وعبر نوتردام باريس Notre Dam de Paris والكوميديا الإنسانية Comedie humaine، والأرواح الميتة والحرب والسلام، وعبر الأخوة كرامازوف وشرتروزيه بارما Charterhouse of Parma والجبل السحري*.



العنوان الأصلي للمقال:
Erratic Odyssey نشر في مجلة TLS عدد 20 نوفمبر 1998

* يلخص هنا ساراماجو تاريخ الرواية منذ هومير من خلال عناوين الملاحم والقصص والروايات. ولو كنا عرفنا كل عمل على حدة لاحتجنا في الحاشية إلى أضعاف مساحة المقال الأصلي.

إن طريقنا واضح. فهو يبدأ في يوم من الأيام بصرخة عالية في فيء شجرة أو داخل كهف، في مخيم للبدو تحت النجوم، في ميدان عام أو في سوق مكتظ. ثم بدأ إنسان يكتب، وبدأ إنسان آخر يكتب عما كتب، تكرار أبدي، وتعديل أبدي، وهكذا دواليك، ترتيب للكلمات في صمت من أجل قراءة تتم هي الأخرى في صمت.

وبغض النظر عن عدم التطابق الأكيد بين الحقائق الفعلية وهذا الاستحضار الشاعري لتطور الرواية بدءا من الرواة المنشدين للملاحم وحتى النص المحكم المكتوب وفقا لقواعد وتصورات ومعايير، ووفقا لأنساق تقاليد معينة، فإنه لا يمكن إنكار أن هذه التقاليد ذات طبيعة مؤقتة وانتقالية، وبالتالي تختفي الأنساق القديمة لتحل محلها أنساق جديدة، مكتوب عليها هي الأخرى أن تختفي عندما يحين أجلها. وقد حاولت من خلال هذه الرؤية أن أوضح على نحو مقنع الجزء الأول للعنوان الذي صدرت به كلامي، أي «من القصيدة إلى الرواية». ولأسباب في ذهني، فإن هذا العنوان قد يكون جيدا أو سيئا مثله مثل أي عنوان آخر. أما أي مشاكل أخرى فستظهر في وقت لاحق، وربما تظهر الآن.

أقول: «من الرواية إلى القصيدة»– وعند هذه النقطة يتعين علي أن أوضح، أو على الأقل أفترض أن الجنس الأدبي الذي نسميه «رواية» قد تحرك بقدر ما في وسعه في اتجاه واحد، كبندول متخيل، والآن هو يعود متأرجحا في الطريق نفسها الذي ذهب منها، ليكرر ربما كل تلك اللحظات التي خبرها في رحلته الأولى، قبل أن يعود إلى حالته الشعرية البدائية، حيث سيبدأ مجددا رحلته المألوفة، ليقفز عدة قرون، أو عدة آلاف من السنين، نحو المستقبل.

وأنا لست مجردا تماما من الفطرة السليمة. وأعرف أن الديناميكا والكينتيكا ينتميان لفرعين مختلفين من فروع المعرفة، وإذا كان الأدب يكرر نفسه على نحو لا نهائي، كما أوضحت سابقا، فإنه أيضا يتباين على نحو لا نهائي، كما أسلفت الذكر أيضا. لكن أحدا لا يمكن أن يساعدنا في تذكر بيير منراد الذي كتب «دون كيشوت» أخرى متطابقة حرفيا مع رواية سرفانتس، كما يخبرنا بورخيس في« الروايات Fictions»، والذي كرر كلمة بكلمة العمل الخالد الذي كتبه «رجل ليبانتو ذو اليد الواحدة» (أسماه هكذا حتى يتجنب تكرار اسمه، وباستثناء قدري لكاموينز Camoens، حيث لم يجرؤ أحد حتى اليوم على تسميته «رجل سبتة Ceuta ذو العين الواحدة»)، والذي يقول عادة أشياء مختلفة، تماما كما كان هناك طرق مختلفة لفهمهم في قرننا هذا وكذلك في القرن السادس عشر الذي لا يمكننا استعادته. غير أن هذا المثل يبين لنا في نهاية الأمر أن أي تكرار

متطابق أمر مستحيل، وبالتالي فمع عودة البندول في رحلة الإياب، راسما طريقا مماثلا، فإنه يخلف وراءه شيئا من ذاته، مماثلا للبديل المتزامن، إذا كان ذلك التناقض اللفظي الفج جائزا.

وبالطبع لا ألوم إلا نفسي على الانتهاء إلى هذا الطريق المسدود الذي يصعب الخروج منه. وواقع الأمر أنه إذا كان من المستحيل على الرواية العودة في رحلتها العكسية، وإذا كان منراد- عندما لم يأل جهدا في نقل دون كيشوت نقلا حرفيا- قد انتهى إلى كتابة كتاب جديد، فكيف سنعود إذن إلى القصيدة، تلك القصيدة التي نرتجيها بإلحاح، وإذا كنا سنذهب إلى هناك، فأية قصيدة سننشدها اليوم، حتى لو كانت الكلمات والموسيقى هي نفسها؟ إذ إن القصيدة الهوميرية الملحمية لم يعد لها مكان في عالمنا اليوم، فالزمان، خلاف كل الأشياء الأخرى، هو الشيء الوحيد الذي لا يمكننا تغييره. ما الذي سيبقى لنا إذن؟ كيف سنخترع هذه القصيدة الجديدة، التي نذرت لها النصف الثاني من عنوان هذا المقال؟ وتحت أي مبرر سأفترض أو سأعلن- إذا كان هذا هو هدفي الحقيقي – قدوم عصر جديد فيما يتعلق بمن سيبقى ويمارس هذا الأدب الجديد؟ وهل هناك أي معنى لإحياء هومير اليوم أو لمحاولة كتابة ملحمة هوميرية؟ وبالنظر إلى طبيعتها، فإن كل هذه الأسئلة وترتيب طرحها هم أبعد ما يكون عن البراءة. فقد سمحوا لي في نهاية المطاف بالانتقال من العام للخاص، من خلال اختراق العالم الوحيد الذي أملك مشروعية الحديث عنه بمعرفة عميقة، إذ إنه، إن جاز القول، عالمي الخاص الصغير، نوعية الرواية التي أكتب وتساؤلاتها وأسبابها.

أولا فلنمنح نفسنا الزمن إذا كان هذا الشيء قابلا للتصور أو التخيل. وليس ذلك هو الزمن الذي يمكننا أن نعثر فيه على أنفسنا، وليس هو الزمن الآخر الذي كان المؤلف يكتب فيه كتابه، لكنه الزمن الملتصق بالرواية والداخل في نطاقها، وهو ليس الساعات أو الأيام القليلة التي نحتاج لقراءتها، وليس هو المرجع الزمني الذي يتضمنه سياق الرواية، وهو أيضا ليس الزمن المحدد الذي يتضمنه عنوان الرواية، مثل «مئة عام من العزلة» أو «أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة».

إن الزمن الذي أتحدث عنه هو الزمن الشعري، الذي يتألف من إيقاعات ولحظات ترقب، زمن يكون خطيا ومتاهيا في اللحظة نفسها، غير يقيني وغير ثابت، زمن يخضع لقوانينه هو، دفق من الكلمات تحمل دوامها الذي يأتي بدوره بمده وجزره مثل موجة بين قارتين. وأكرر أن هذا زمن شعري يخص الإنشاد والشعر، زمن يستغل الإمكانات التعبيرية لدرجة السرعة Tempo والنبضة

والتلوين، زمن يمكن أن يكون مزخرفا أو مقطعيا، طويلا، قصيرا أو لحظيا. وطموحي أن تتعايش الرواية التي أكتبها مع هذا المفهوم للزمن، واعيا بما أحاوله من الاقتراب أكثر من بنية القصيدة الآتية في كونها قابلة للتمدد بينما يبقى جسد القصيدة متماسكا.

ويزعم الموسيقيون وعلماء الموسيقى أنه من المستحيل تأليف سيمفونية اليوم، تماما كما هو مستحيل اليوم، في رأيي، أن نشيد عاصمة كورنثية Corinthian* وفقا للمفاهيم الكلاسيكية. ومن الواضح أن أي شخص يمتلك المهارة الكافية سينجح في دحض هذا الزعم المتطرف من خلال تأليف سيمفونية أو تشييد عاصمة. لكن هذا الإنجاز على الأرجح لن يقنعنا أن الفنان كان يستجيب لنوع من الحاجة الحقيقية، سواء من أجل إبداعه الخاص أو من أجل متعتنا. والآن من الذي يمكنه أن يخبرنا أنه لم يتعين علينا أن نواجه ببسالة مسؤولية تطبيق مقولة مماثلة على الرواية: على سبيل المثال من خلال التأكيد على أن هذا مستحيل، أيضا، في شكلها النموذجي الذي استمر حتى يومنا هذا، مع اختلاف ضئيل واحد، جذري إلى أبعد الحدود، دائما كان يتم تمثله وتكامله داخل مادة الموضوع، الذي يسمح لنا، من خلال نعمة الله وفضل الناشرين، لكي نكتب كما لو أننا نؤلف سيمفونيات مقلدين برامز أو نشيد عاصمة كورنثية.

لكن هذه الرواية الآنفة الذكر، التي أبدو وكأنني أدينها، قد تتضمن في ذاتها، وفي تحولاتها المختلفة والمتباينة اليوم، الإمكانية الوحيدة لتغيير تصنيفها الأدبي (تعمدت هنا أن أقول تصنيفها وليس جنسها)، لتصبح قادرة على امتصاص، مثل بحر واسع هائج ومائج، روافدها الغزيرة: الشعر، والدراما، والمقال، فضلا عن العلوم والفلسفة، وتصبح بالتالي تعبيرا عن المعرفة والحكمة، وعن نظرة كونية، مثل قصائد العصور القديمة الكلاسيكية في أيامها.

قد أكون مخطئا، خاصة إذا أخذنا في الحسبان التخصص المتزايد- الذي يبدو تطورا لا رجعة فيه- للإنسان، الذي أصبح ميكروسكوبيا تقريبا. لكن ليس من المستحيل تصور أن هذا التخصص، بسبب ميكانزمات حتمية أو اندفاعات تعويضية، أو ربما كشرط غريزي للبقاء والتوازن السيكولوجي، قد يقودنا إلى السعي نحو تمجيد العام كنقيض للحماية التي يبدو الخاص متمتعا بها. وفي سياق أدبي، حيث إننا نناقش هذا الأدب فقط، فإن الرواية ربما تستعيد مجدها الأقصى، باعتبارها القصيدة المجيدة والمنتشية للإنسانية التي ظلت حتى الآن عاجزة عن التصالح مع

* كورنثية Corinthian نسبة إلى مدينة كورنث اليونانية، التي اشتهرت بالترف والفخامة.